



مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة للأفنية لشوامخ الكتب العالمية

رَمِيَتْ قَرْصًا!

من أشدع رواثع
الكاتب والفيلسوف الروسي الخالد: ليوتولستوي

СОЧИНЕНИЕ
ЛВБА ТОЛСТОГО

ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА

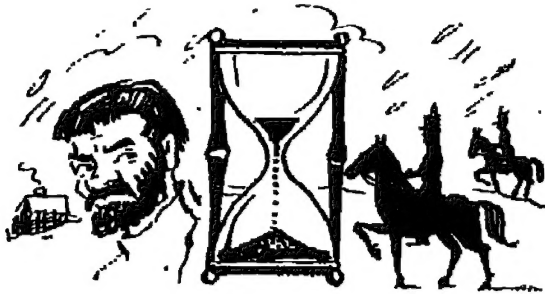


R
89
T6

لیو تولستوی

دمر.. و خمر!

العبید ضمیر! (بولیکوشکا)
فارسات.. وعذراء!



СОЧИНЕНІЕ
ЛЪВА ТОЛСТОГО
ПОЛИКУШКА
ДВА ГУСАРА

۲۰۰ صفحه - ۱۰ قروش

مجموعة كتابي

(الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن سبعة وسبعون كتاباً ، يضاف إليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من إدارة كتابي : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقاً) بالقاهرة (عمارة الجنيدول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريد المسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاً والاعداد ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشاً . اما الاعداد الستة الاولى والعدد العشرون فقد نفذت ، والادارة مستعدة لشراؤها . الاشتراكات : من سنة (١٢ عدداً) : في مصر والسودان : ١٢٠ قرشاً وفي العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازي ١٤٠ قرشاً مصرياً وفي الكويت وعمان وحضرموت واليمن وقهرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشاً « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفي ألمانيا ١٦٠ قرشاً بخلاف اجر البريد الجوي . ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : في مصر والسودان بالبريد عادى ، وفي الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تمطر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليماً على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها في مصر ، علماً بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليماً تصرف بسبعة وثلاثين مليماً .

مطبوعات كتابي

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخطئة ، حياة امرأة (جزآن) الخطيئة الاولى ، اوديب ، مدام بوفارى ، (جزآن) ، عاشقات في الغريف ، قلوب ضالة ، ديكاميون ، الظمالمحب ، جن اير (ثلاثة اجزاء) ، فانتات الرجال ، رجال ونساء ، النار للوطن ، فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ، الابن الضال ، اسرار العجاسوسية ، بيللا دونا (ثلاثة اجزاء) بوشكين ، اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء) ، قصص من الصين ، زبالي بلزك ، الايالة (٢ اجزاء) ، قصص من روما ، المسبعة (جزآن) ، سفينة اللذات .

وثمن النسخة ١٠ قروش ، عدداً الاعداد ١ و ٤ و ٧ و ١٩ و ٢٢ فثمن النسخة ٢٠ قرشاً ، و ١٢ و ٢٨ و ٣٢ - ١٢ قرشاً ، والاعداد ٣ و ٥ و ٦ - ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل اجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتاب

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

صار الكتاب



منهج الفكر عند العرب

الكتاب الثانى والاربعون

دم ٠٠ وخمير !

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الإدارة : عمارة الجنحول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

عملاق جبار .. يفيض بحبة وسلاما !

عزيزى القارىء :

.. وأخيرا ، جاء دور العملاق .. دور « ليو تولستوى » ، عملاق الادب العالمى ، لا الادب الروسى وحده .

ولقد ظللت طويلا أصبى الى أن أقدم لك شيئا من انتاج « تولستوى » ، فهو ثروة غالية ، ثمينة ، لا ينبغى أن تخلو منها مكتبة أى قارىء ، فى أى بلد .. ولكن أكبر عملين ضخمين فى حياة « تولستوى » الكاتب ، هما : « الحرب والسلام » و « أنا كارينا » .. وكل منهما تقتضى ترجمته - ترجمة أمينة كاملة ، كما هى رسالة « مطبوعات كتابى » - أفراد أعداد ، وأعداد متتابعة .. ولقد حدثتك فى العدد ٦١ من « كتابى » كيف أن « الحرب والسلام » تتألف من ألف وخمسمائة صفحة ، فالترجمة الحرفية لها ، كفيلة بأن تشغل أعداد « مطبوعات كتابى » لعشرة أشهر على الأقل .. لذلك وجدتني مضطرا الى أن أكتفى بتلخيصها لك فى ذلك العدد من « كتابى » ، كما لخصت لك قبلها « لحن كرويتزر » فى العدد ٣٠ .

ولكن الفكرة ظلت تراودنى باستمرار .. أن « مطبوعات كتابى » تظل ناقصة ما لم تتضمن شيئا من انتاج هذا العبقرى الجبار . وأقبلت أقرأ كل انتاجه ، عسى أن أجد منه شيئا يمكن تقديمه فى نطاق « المطبوعات » دون اختصار ، أو مسخ ، أو تشويه .. وكان لا بد لهذا الانتاج المنشود ، من أن لا يكون قد ترجم الى العربية من قبل ، ليكون مفاجأة طيبة لك ، وليكون فى السبق الى ترجمته تعويض لك عن « أرجاء » تقديم شوامخ « تولستوى » ..

واقول « ارجاء » متعمداً ، وعن قصد .. فان الفكرة لا تزال تراودنى ، وتلح على .. ولا ازال واسرة « كتابى » ندرس معا ، كيف يمكن أن تقدم لك هذه الشوامخ ، التى لم تترجم كاملة من قبل .. فمن الصحيح أن « الحرب والسلام » و « أنا كارينا » و « لجن كرويتزر » و « البعث » .. من « الصحيح أنها — أو بعضها — قد ترجم الى العربية ، ولكن جميع هذه الترجمات لم تكن كاملة ، لضخامة حجم المؤلفات الاصلية !

فاشل فى صفره .. عبقرى فى كبره !

• **والى ان يتم تحقيق هذا الحلم الجميل ، اقدم لك — من انتاج تولستوى — القصتين الطويلتين اللتين يضمهما هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، واللتي ترجمهما الزميل محمد بدر الدين خليل**

على أننى قبل أن اذكر لك كيف تم اختيارهما ، أحب أن اقدم لك حديثاً سريعاً عن « تولستوى » نفسه .. الكاتب والفيلسوف الذى أجمع النقاد وأهل الادب ، فى جميع البلدان ، وعلى مر الاجيال ، على أنه من أعظم الخالدين فى تاريخ الادب والقصص .

ولد « ليو نيكولايفيتش تولستوى » فى سنة ١٨٢٨ ، فى أسرة نبيلة ، عريقة المحتد .. اذ كان أبوه « كونت » ، وكانت أمه أميرة ، وكانت املاكهما شاسعة ، وثروتهما عظيمة . وقد ذاق « ليو » مرارة التيتيم وهو فى التاسعة من عمره ، ولكن أقرباء له أشرفوا على تربيته وتعليمه ، حتى اذا بلغ التاسعة عشرة من عمره ، ألحق بجامعة « قازان » ، حيث درس اللغات الشرقية والقانون .. بيد أنه لم يلبث أن انصرف الى اللهو ، فلم يتم دراساته ، والتحق بالجيش فى سنة ١٨٥١ . وقد قدر له أن يكون بين ضباط لواء المدفعية فى (القوقاز) ، وكان أحد

الدفاعين عن مدينة (سيبياستبول) في حرب القرم ..
على أنه لم يلبث أن استقال من الجيش ، وقضى أربعة
أعوام يجوس خلال أوروبا الغربية ، حيث درس أساليب
التربية . بيد أن احتكاكه بالمدرسة الغربية ، جعله يستنكرها
ويشتمز منها ، إذ لمس أن المادية لبها ، والزيف والاصطناع
مظهرها . لذلك عاد إلى ضياع أسرته في (ياسنایا بوليانا) ،
حيث أنشأ مدرسة لتعليم أبناء القلاحين ... وحيث تزوج من
« صوفيا اندرييفنا بيهرس » ، التي أنجبت له ثلاثة عشر ابنا
وابنة ، والتي كانت عوناً له في أعماله الأدبية ، وكثيراً ما كانت
تنقل له مؤلفاته بخطها . حتى ليقال أنها نسخت له « الحرب
والسلام » سبع مرات !

يتجرد من متاع الدنيا !

• وخلال هذه الفترة - التي امتدت من سنة ١٨٦٣ إلى
سنة ١٨٧٧ - تفرغ « تولستوى » للأدب ، وكتب خير إنتاجه
القصصى .. قصصاً أجمع أهل الأدب - في العالم بأسره - على
أنها كنز ثمين . بل أن قصته « الحرب والسلام » اعتبرت
« الرواية القومية لروسيا » .

وبعد سنة ١٨٧٩ - أي بعد أن فرغ من « أنا كارينا »
بعاميين - بدأ يستعرض حياته ، وينتقد الأسلوب الذي جرت
عليه . واستبدت به نزعة روحية بلغت ذروتها في سنة ١٨٨١ ،
حين أقبل على الدين ، وراح يمارس طقوسه وينقل تعاليمه
ويلبغو إليها ، ويبشر بأن « السعادة الحققة لا تتحقق إلا إذا
جرد الإنسان نفسه من كل المظاهر الزائفة للحضارة ، وارتد
إلى فطرته ، ورد الكنيسة إلى أصولها المسيحية الأولى ،
وسار على هدى الضوء المنبعث من أعماقه ، والذي يقوده إلى
حب أخوته من بنى البشر » . وكرس « تولستوى » قلمه
لهذه الدعوة ، فأصدر طائفة من المؤلفات والكتيبات الدينية ،



ليو تولستوى
في صدر شبابه

تدعو الى المحبة والسلام ومحو
الفقر ، ونزول الاغنياء عن
بعض مآلهم للفقراء .. فسبق
بذلك الحركة الاشتراكية في
بلاده . وقد بدأ بنفسه ، فوزع
أرضه على الفلاحين ورفيق
الأرض ، وتجرد من متاع الدنيا !
على أن تطرفه في دعوته ،
أوغر عليه صدر الكنيسة
الأرثوذكسية الروسية ،
فأصدرت قرارا بحرمانه في
سنة ١٩٠١ . ولكن هذا لم يقل
من روحه ، ولم يثنه عن الرسالة
الروحانية التي آلى على نفسه أن يؤديها !

زوجته تطلق الرصاص على صورة ابنتها !

♦ ولكن الحرمان من الكنيسة ، لم يكن كل ما أصابه من
جاء دعوته . فقد نكب بحرمان آخر .. الحرمان من حب
زوجته ! .. فقد كان تخلصه من ثروته وأملكه سبب شقاق
أحال حياتهما - التي كانت من قبل نعيما هائلا ، بكل ما للكلمة
من معنى - الى جحيم لا يطاق .. وقد انضم أولاده جميعا
الى أمهم ، عدا ابنته الصغرى « الكسندرا » التي ظلت تناصره ،
وتلازمه ، وتعمل كسكرتيرة له . ومن العجيب أن هذا أثار
غيرة إياها ، حتى أنها طردتها من المنزل ، ثم اندفعت الى
حجرتها ، واطلقت الرصاص على صورتها ! ..

الى هذا الحد بلغ الامر بزواجه ! وكانت تصاب - حين
يعارضها - بنوبات هستيرية ، وتهدهد بالانتحار ! .. ولكنها
- في احيان أخرى - كانت تذكر حبهما الماضي ، فترجع عند

قدميه ، وتلحف في الرجاء أن يقرأ لها العبارات الغرامية التي كتبها عنها في يومياته - قبل أربعين عاما - فكانا يديكان معا ، وهما يستعيدانها !

على أن حنقها عليه اشتد بعد أن أصر على أن يهب الشعب الروسى حقوق نشر كتبته بدون مقابل . ولم يعد يحتمل نوباتها حين بلغ الثانية والثمانين .. وفى ليل ٢١ أكتوبر سنة ١٩١٠ ، هرب من بيته - وابنته الكسندرا ترافقه - وانطلق هائما على وجهه في الظلام والبرد الزمهرير .. وبعد احد عشر يوما ، مات بالتهاب رئوى ، فى محطة (استابوفو) للسكك الحديدية .

تسع قصص تهب للشوامخ

♦ **والآن ، تعال أحدثك عن القصصتين الطويلتين اللتين ستقرأهما ، فى هذا العدد :**

لقد كان اختيار المادة من أصعب الامور ، اذ أن روائع « تولستوى » قدمت لك من قبل ، وان لم تكن كاملة او دقيقة .. كما أن البحث عن تحف جديدة ، لم يسبق أن نقلت اليك بالعربية ، كان كالبحث عن ابرة وسط كوم من التبن ! وأخيرا ، ظهر أن « تولستوى » كان قد وضع - قبل أن يفرغ لكتبه الضخمة - تسع قصص ، بين قصيرة وطويلة ، تناول فى بعضها أحداثا من صميم حياته مزجها بالخيال ، وتناول فى بعض آخر مشروعات أفكار لقصص كبيرة . وتناول فى اثنتين منها حياة الرقيق فى روسيا .. فقد كانت هناك - فى تلك الحقبة - من العهد القيصرى - طبقة مستعبدة ، لا تختلف كثيرا عن الطبقة التى عهدناها يوما فى ريفنا - فى بعض العهود المظلمة - اللهم الا فى أنها كانت ترسف فى مزيد من النل والهوان .. تلك هى طبقة الرقيق : رقيق الارض ، الذى كان يعيش على أراضى الاسرات الاقطاعية ، فهى تستنزف دمه

وقواه وحيويته ، في سبيل زيادة ثرواتها .. ورقيق البيت ، من أبناء الجوارى والعبيد ، الذين لا سبيل لهم في الحياة في مجتمع ساده الظلم والفوضى ، الا بالبقاء في أسار السادة !

القصة التي أذهلت « تورجنيف »

♦ وكانت « للعبيد ضمير ! » - أو « بوليكوشكا » ، كما أسماها تولستوى - هي أقوى هاتين القصتين .. وهى صورة لحياة ربما شاهدها أجيال قبلنا في بعض البلاد العربية ، ولكنها بالنسبة لجيلنا ، صورة جديدة ، طريفة ، تحرك ألقى القلوب الانسانية صلابه ، وتعالى من قدر الكرامة والعزة البشرية التي كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة ! .. انها تبين كيف أن الرقيق بشر ، يستطيع أن يتوب بعد ضلال ، وأن يستقيم بعد تخبط .. فلما أبت الظروف الا أن تظهر بطل القصة بمظهر يفقده ثقة مولاته ، وإيمان زوجته به ، وتقدير زملائه ، قضى على حياته !

ولست أملك أن أقول في هذه القصة أبلغ مما قاله « ايغان تورجنيف » ، وهو الآخر من أعمدة القصة الروسية :

« قرأت قصة تولستوى « بوليكوشكا » ، فأذهلتنى قوة موهبته الهائلة .. وإن فيها لصفحات من أروع ما كتب حقاً . انها لترسل قشعريرة باردة في ظهري ، رغم ما تعرفه من أن ظهري قد أصبح أكثر سمكا وصلابة .. انه لاستاذ ! أستاذ ! »

أما القصة الثانية : « ضابطان وعذراء » - أو « ضابطان من الفرسان » كما أسماها - فلها في حد ذاتها قصة .. إذ أن القصص الاولى لتولستوى - في تلك الحقبة التي بدأ فيها استقراره في أملاك أسرته - كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة ، دون أن تتعلق برسالة معينة .. فلما أقدم على كتابة هذه القصة ، كان قد بدأ يهتم برسائلته في الادب الروسي ،

فجعل لها نطاقا خاصا خارج نطاق تجاربه الشخصية .

دم وخمر .. بلا حساب !

♦ ولقد تسألنى - ومن حقك أن تسأل - لماذا اخترت لهذا العدد من « مطبوعات كتابى » ، الذى ضم القصتين ، اسم « دم .. وخمر ! » .. والجواب بسيط .. **فإن القصتين تصوران حقبة من تاريخ روسيا ، لم يكن فى تلك البلاد شيء يراقى باسراف ، ودون حساب ، قدر : الدم والخمر ..** دم الرقيق والفلاح .. تلك الطبقة المستعبدة ، التى كان زمامها فى أيدي الاقطاعيين .. وهو « دم » لا يقتصر على ذلك السائل الذى يجرى فى العروق فحسب ، بل يضم أيضا الدمع ، والعرق ، وعصارة الحياة .. ثم ، الخمر التى كان السادة يسرفون فى أراقتها ليزدادوا انسياقا وراء لهوهم وعبثهم ، كما كان العبيد يفرقون أنفسهم فيها ، لكى ينسوا .. ينسوا كل شيء !

وبعد .. اظننى احتججتك طويلا عن نبع « تولستوى » النмир . فلارفع القلم ، لاتركك تغترف من هذا النبع !

المحرر

للعبید ضمیر!

(یوٹیکوشکا)





(١) سيدة القضية

♦ - أنت صاحبة الكلمة ياسيدتي ، فالامر لك ! .. كل ما هنالك أنه سيكون من دواعي الرثاء أن يقع الخيار على آل «دوتلوف» .. كلهم صالحون ، ولا بد من أن يذهب احدهم ، ما لم ترسل واحدا من رقيق البيت ، على الاقل !
وسكت وكيل الاعمال لحظة ، ثم اردف : « وهذا ما يلزم اليه كل امرئ .. ولكن الامر رهن بمشيئتك ياسيدتي ! » .
ووضع يمينه على يسراه فوق صدره ، ومال برأسه على كتفه اليمنى ، وجذب شفثيه الى الداخل ، موشكا ان يحدث صوتا مسموعا (مضمصة) ، وصعد بصره الى أعلى ، ولم يزد على ما قال ، بل بدا أنه اعتزم ان يلزم الصمت طويلا ، وان ينصت - دون رد - الى كل لغو كان من المؤكد ان يصدر عن مولاته !
وكان وكيل الاعمال الحليق ، الذى ارتدى سترة طويلة ، صيغت على نمط خاص يليق بوكيل الاعمال ، والذى جاء فى تلك الليلة من لياالى الخريف ، ليعرض امرا على مالكة زمامه .. كان وكيل الاعمال هذا ، عبدا من رقيق البيت ، بحكم مولده ! .. وكان «عرض الامر» - من وجهة نظر السيدة - معناه الانصات

الى حديث عن امر يجرى في ضيعتها، واصدار تعليمات للمضى في العمل . اما من وجهة نظر « ايجور ميخيلوفيتش » - وهو رئيس الخدم - فإن « عرض الامر » كان يتطلب الوقوف معتدلا ، واصابع قدميه مرفوعة الى أعلى ، في ركن مواجه للأريكة . . مع الانصات الى كل ألوان الثرثرة المبتورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهئية ذهن السيدة لكي تقول بسرعة ونفاد صبر : « حسنا ! . . لا بأس ! » . ولكل هذا كان « ايجور ميخيلوفيتش » قد رسم خطته ! . . وكان « الامر » المعروض هو تعيين المجندين . فقد كان على ضيعة (بوكروفسك) ان تقدم في عيد «بوكروف» ثلاثة افراد ليجندوا في الجيش . ولاح ان القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية واخلاقية واقتصادية . ولم يكن ثمة تردد أو نزاع في أمرهما ، سواء من جانب السيدة ، أو الحكومة ، أو الراى العام . ولكن الذى كان متار الجدل هو : من يكون الثالث؟

وكان وكيل الاعمال تواقا الى أن ينقذ أبناء دوتلوف - الذين كان في أسرهم ثلاثة رجال في سن التجنيد - الى أيفاد «بوليكوشكا» ، وهو رجل من رقيق البيت ، متزوج ، سيىء السمعة ، فوجيء - أكثر من مرة - وهو يسرق الاكياس ، وسروج الخيل ، والتبن . . ولكن السيدة - التى كثيرا ما كانت تعطف على اطفال بوليكوشكا في اسماهم ، وتعمل على اصلاح اخلاقه بآيات من التوراة - أبت أن تفرط فيه . . غير أنها - في الوقت ذاته - لم تكن راغبة في ايداء آل دوتلوف ، الذين لم تكن قد عرفتهم ، ولا رأتهم قط . ولكنها - لسبب ما - لم تبد قدرة على ادراك وجهة نظر وكيل اعمالها ، كما أنه لم يقو على ان ينبئها صراحة بأنه لابد لواحد من أبناء دوتلوف ان يذهب ، اذا لم يذهب «بوليكوشكا» ، فقد راحت تقول له في تأثر : « ولكنى لا ابغى سوءا بآل دوتلوف ! » . وكان خليقا بوكيل الاعمال ان

يقول : « ما دمت لاتبغين ، قادفمي ثلاثمائة روبل لبديل ! » (١) .. ولكن مثل هذا الرد كان سياسة خرقاء ، ومن ثم ركن « ايجور ميخايلوفيتش » الى وقفة مريحة حتى لقد أستند - دون ان يفتن - الى اطار الباب ، بينما كان يحتفظ بمظاهر الخضوع على وجهه ، وهو يراقب خلجات شفتى السيدة ، ويمجّب بحواشي قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار ، تحت احدى الصور !

ولكنه لم ير من الضروري ان ينتبه لمعانى كلمات السيدة ، اذ انها كانت تتكلم طويلا ، وتقول كثيرا .. وتوترت العضلات التى خلف اذنيه ، تحت رغبة واثته فى التثاؤب ، ولكنه تحايل فحولها الى سعال أطلقه وهو يرفع يده الى فمه . ومنذ عهد غير بعيد ، رأيت « لورد بالمرستون » (٢) يجلس وقد أرخى قبعته على وجهه ، بينما كان احد أعضاء المعارضة يصب الحمم على الوزارة . وما لبث اللورد ان نهض فجأة ، فرد على المعارض - نقطة نقطة - فى خطاب استغرق ثلاث ساعات . ولم أدهش حين شهدت ذلك ، لاننى رأيت الشئ ذاته يجرى بين « ايجور ميخايلوفيتش » ومولاته ، آلاف المرات ! .. على انه لم يلبث انلقى ثقله على ساقه اليمنى بدلا من اليسرى - ولعله خشى أن ينساق للنحاس ، أو ظن ان السيدة كانت تتعمد اطالة الموقف - وشرع يمهّد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء ، كما اعتاد ان يفعل دائما : « الامر رهن بمشيئتك ياسيدتى .. على ان ثمة اجتماعا أمام نافذة مكتبى الآن ، ولا بد ان نبث

(١) كان من الجائز فى روسيا ان يدفع المجند الميسور الحال مبلغا لشخص آخر يؤدى الخدمة العسكرية بدلا منه . فاذا كان المجند من الرقيق ، وشاء مالكوه ان يحتفظوا به ، دفعوا عنه

(٢) لورد بالمرستون : كان رئيسا للوزارة الانجليزية من سنة ١٨٥٩ الى ان توفي فى سنة ١٨٦٥ ، ومن كبار ساستها فى القرن التاسع عشر

بقرار ، فان الاوامر تقول بان المجندين يجب أن يكونوا في المدينة قبل عيد «بوكروف» ، وهناك اجماع بين الفلاحين على ترشيح أبناء دوتلوف ، دون سواهم . اما «المير» (١) فليس يشقى بمصالحك ، اذا ما الذى يهمه اذا خربنا بيت آل دوتلوف؟ .. اننى اعرف قسوة الضائقة التى المت بهم ، فانهم - منذ توليت وكالة اعمالك - يعيشون في عوز . واليوم وقد كبر ابن أخ الشيخ ، وأوشك أن يكون عونا ، اذا بالاسرة تمنى بنكبة ثانية! .. اما انا ، فكما عهدت ، أمين على ثروتك كما لو انها كانت ثروتى .. وهم - على أية حال - ليسوا اهلا لى أو اقارب ، ولست اجنى منهم شيئا ..!»

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة: « ما هذا يا ابجور؟ .. كأنما فكرت انا يوما في هذا! » . على انها ارتابت لفورها في ان يكون قد تقاضى من آل دوتلوف رشوة . فقد واصل حديثه قائلا: « .. ان دارهم هى خير دار في (بوكروفسك) من حيث العناية والتدبير . وهم فلاحون مجتهدون ، اتقياء ، وكبيرهم شيخ للكنيسة منذ ثلاثين عاما .. فهو لا يشرب الخمر ، ولا يسب ، وانما هو يواظب على الذهاب للكنيسة .. » . وكان وكيل الاعمال يعرف الوتر الذى يحسن أن يضرب عليه ، فقال : « على ان أهم ما أريد ان أعرضه عليك ، هو أنه لم يؤت غير ولدين ، اما الآخرون فابناء أخوة له ، كفلهم بزا بهم .. ومن ثم فيجب ان يجرى الاقتراع بين الاسرات ذات الرجلين . كم من اسرات تفككت بسبب قلة حكمتها ، فانفصل عنها ابناؤها ، وأصبحوا الآن آمنين (٢) . اما آل دوتلوف ، فسيتعرضون للعناء ، لجرد انهم طيبون بارون ! »

(١) العملة أو رئيس القوم .. ولعلها تعريف « أمير » التى انتقلت الى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لتركيا والدول الاسلامية

(٢) كان الاقتراع على المجندين يجرى بين الاسرات المدينة الذكور أولا

ولكن السيدة لم تستطع أن تتبع حديثه عند هذه النقطة ،
 إذ انها لم تفهم ماذا يعنى بالاسرات « ذات الرجلين » ، ولا
 بـ « البر » . فقنعت بأن تسمع صوته ، وترقب الازرار
 المكسوة بالقماش ، فى ستره وكيل الاعمال . كان أعلاها ثابتا
 فى مكانه ، ولعله لم يكن يستعمل كثيرا .. اما الاوسط فكان
 مدلى ، وكان من الواجب ان يشبث فى مكانه منذ زمن طويل ..
 . على انه من المعروف ان ليس من الضرورى - فى المحادثات
 التى تدور حول الاعمال ، بوجه خاص - ان تفهم ما يقال ،
 وانما يكفى ان تتذكر ما تريد أنت ان تقول ! .. وقد عملت
 السيدة بهذا ، فقالت : « كيف يتعذر عليك الفهم يا ايجور
 ميخيلوفيتش ؟ .. ليست بى ادنى رغبة فى ان يصبح أحد
 أبناء دوتلوف جنديا . كنت أظن ان امرءا يعرفنى - كما تعرفنى
 أنت - قمين بأن يشهد لى بالرغبة فى أن ابذل ما فى طوقى
 لمساعدة رقيق اسرتى ، فأنا لا ابغى أن يصيبهم أى ضرر ، بل
 اننى على استعداد لان أضحي بكل ما أمتلك ، لانهرب من هذه
 الضرورة المحزنة ، فلا أرسل دوتلوف أو بوليكوشكا ! » ..
 ولست أدري ، هل خطر لوكيل الاعمال ان لا حاجة هناك
 للتضحية بكل شيء للتهرب من الضرورة المحزنة ، وانما كانت
 ثلاثمائة روبل كافية .. على أن من المحتمل ان هذه الفكرة
 طرأت على باله !

- ان اقول لك سوى هذا : لن افرط فى بوليكوشكا ، مهما
 يكن الامر . فعندما اعترف لى من تلقاء نفسه - بعد حادث
 الساعة - وبكى ، وعاهدنى على الاستقامة ، تحدثت اليه طويلا ،
 ورأيت انه كان صادقا فى تأثره ، وفى توبته !

وهنا قال ايجور ميخيلوفيتش لنفسه : « ها هى ذى تفضل
 ثائية ! » : وشرع يتأمل الشراب الذى كانت تحتسيه من كوب
 من اكواب الماء ، ويسائل نفسه : « اهو عصير برتقال أو ليمون ؟

« اظنه لازعا قليلا ! » .. بينما استطردت السيدة قائلة :
 « أولقد انقضت سبعة أشهر ، لم يحث فيها مرة ، بل كان رائع
 السليك . ان زوجته تقول لى أنه أصبح رجلا آخر . فكيف
 تريدنى على ان أعاقبه بعد ان استقام ؟ .. ثم انه من المجافاة
 للانسانية ان تجند رجلا ذا خمسة اطفال ، لا عائل لهم سواه ..
 لا ، يحسن ان لا تزيد فى اللجاج يا ايجور ! » . ورشفت من
 الشراب رشقة ، فراقب « ايجور ميخايلوفيتش » حركة حلقها
 والوسائل ينساب فيه ، ثم أجاب باقتضاب وجفاء : « اذن فقد
 استقر رأى على دوتلوف ؟ »

وعقدت السيدة يديها ، وقالت : « كيف لاتفهم ؟ .. افأريد
 بدوتلوف سوءا ؟ اترانى اكن له ضغينة ؟ .. الله شاهد على
 اننى على استعداد لان افعل كل شىء من أجلهم .. » . ونظرت
 الى صورة فى ركن الحجرة ، ثم تذكرت انها لم تكن ايقونة ،
 فقالت لنفسها : « لا بأس .. ليس هذا محور الاهتمام ! » .
 ومن الغريب ، فان فكرة الروايات الثلاثمائة لم تخطر لها فى هذه
 المرة أيضا ! .. وعادت تقول : « حسنا ، ما الذى املك ان
 افعله ؟ وما درائتى بهذا الامر ؟ .. من المستحيل ان اعرف :
 ومن ثم فانا أعتمد عليك ، وما قد عرفت رغباتى ، فاجعل على
 ارضاء الجميع ، وفقا للقانون .. ما الذى ينبغى عمله ؟ .. انهم
 ليسوا الوحيدين ، بل أن كل امرئ يتعرض لاقوات عصبية .
 كل ما هنالك أن ليس من سبيل الى ارسال بوليكوشكا ..
 يجب ان تفهم ان من أبغض الامور على نفسى ان افعل شيئا
 كهذا ! »

وكان الحماس قد تملكها . ومن المحتمل انها كانت على
 استعداد لان تسترسل فى الحديث طويلا ، لولا ان دخلت
 احدى خادمتها الحجرة ، فتحولت تسألها : « ماذا هناك
 يا دنياشا ؟ » فأجاب الخادم : « لقد جاء فلاح ليسال ايجور

ميخايلوفيتش عما اذا كان للاجتماع ان يستمر في انتظاره !» .
ورمقت ايجور ميخايلوفيتش في حلق ، وهى تقول لنفسها :
« يا لوكيل الاعمال هذا ! .. لقد ضايق السيدة ، ومن ثم فلن
تسمح لى باغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحا ! »

— حسنا يا ايجور ، اذهب وافعل خير ما فى وسعك !

واجاب الرجل : « سمعا ياسيدتى ! » . ولم يعد الى الحديث
عن دوتلوف ، وانما تساءل : « من الذى يذهب الى الموكل
بالبستان ، لياتى بالنقود ؟ » . فقالت السيدة : « ألم يعد بيتر
بعد من المدينة ؟ » . فاجاب : « لا ياسيدتى » . وسألته :
« الا يستطيع نيكولاس ان يذهب ؟ » . فقالت دنياشا : « ان
ابى مريض ، يشكو من ظهره ! » . وتساءل وكيل الاعمال :
« اذهب انا غدا يا سيدتى ؟ » . ولكن السيدة قالت : « لا يا ايجور ،
فانك مطلوب هنا » . وفكرت قليلا ، ثم اردفت : « كم المبلغ ؟ »
— اربعمائة واثمان وستون روبل ..

فقالت السيدة ، محمقة في وجه ايجور ميخايلوفيتش
باصرار : « ارسل بوليكوشكا ! » . وبسط الرجل شفتيه في
شبه ابتسامة ، دون ان يكشف عن اسنانه .. ولم تتبدل
اسارير وجهه . وقال : « سمعا ياسيدتى ! » . فقالت : « ارسله
الى هنا ! » . فقال وهو ينصرف الى مكتب المحاسبة : « سمعا
ياسيدتى ! »

(٢) بوليكوشكا .. ييطرى بالسليقة !

ه لم يكن لبوليكي — او بوليكوشكا ، كما كان ينادى عادة ،
من قبيل الاحترار — أى اعتبار لدى حارس الدار ، ولا رئيس
الخدم ، ولا وكيل الاعمال ، ولا وصيفة السيدة . اذ انه
كان رجلا قليل القيمة ، ملوث السمعة .. ولم يكن من أهل
القرية أصلا . فكان ركنه اسوأ الاركان ، رغم انه اوتى سبعة



افراد في أسرته . وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الاركان، على النحو التالي : ففي وسط مبنى من الطوب - مساحته حوالي ثلاث وعشرين قدما مربعة - اقيم قرن كبير من الطوب، احيط بردهة . وكانت اركان المبنى الاربعة تفصل عن هذه ((اللدهة)) - كما كان رقيق البيت ينطقونها - بحوائجز خشبية، ومن ثم فلم يكن في الاركان فراغ فسيح، لا سيما ركن بوليكي، الذي كان اقربها الى الباب . . وكان سرير الزوجية - بلحاف من قماش منقوش ، ووسادتين - ومهد يشغله طفل رضيع ، ومنضدة - يجرى عليها الطهو والغسل ، وتوضع عليها كافة انواع الاشياء المنزلية ، كما كان بوليكي ، الذي كان طبيباً للخيل ، يشتغل عليها - واوعية ، واثياب ، وبعض فراريج ، وعجل ، وسبعة افراد يؤلفون الاسرة . . كل هؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن ، وما كان بوتسهم أن يتحركوا فيه ، لولا ربع القرن الذي كان تابعا لهم - والذي كان بوسع الناس ان ينلموا عليه ، وان يضعوا عليه الاشياء - ولولا انه كان لهم ان يخرجوا الى درجات السلم . . وهو امر لم يكن ممكناً ، اذا ما اشتد البرد - في شهر اكتوبر - ولم يكن الافراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم ، يتشاطرونه فيما بينهم . على انه كان بوسع الاطفال - من ناحية اخرى - ان يدفأوا بالجرى، كما كان في استطاعة الكبار ان يدفأوا بالشغل .

وكان لهؤلاء واولئك ان يصعدوا فوق الفرن ، حيث كانت الحرارة ترتفع الى مائة وعشرين درجة فهرنهايتية . وقد يبدو ان الإقامة في مثل هذه الظروف بغيضة ، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بذلك .. كان يفيهم ان يستطيعوا ان يعيشوا !

كانت «اكولينا» - زوجة بوليكوшка - تفصل ثياب زوجها واولادها وتحركها ، وتفزل ، وتنسج ، وتبيض النسيج ، وتطهو ، وتخبز في الفرن المشترك ، وتتشاجر وتثرثر مع جارقتها . وكانت المخصصات الغذائية الشهرية لاتكفى الاولاد وحدهم ، بل تغذى البقرة كذلك . وكان خشب الوقود دون مقابل ، وكذلك العلف للماشية ، كما كان يصيهم بعض التبن من الحظائر ، احيانا . وكانت لهم رقعة صغيرة من الارض ، يستنبتون فيها الخضر .. وقد انجبت بقرتهم عجلا ، كما كان لديهم بعض الدواجن .. وكان «بوليكي» مستخدما في الحظائر للعناية بجوادين فيها ، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية ، وينظف حوافرها ، ويشطر قروحها ، ويعالجها ببلاسم من ابتكاره . وكان يتقاضى أجره عن ذلك نقدا وعينا . كذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرب الى حوزته ، وكان أحد فلاحى القرية يقدم له عشرين رطلا من لحم الضأن - شهريا - في مقابل كيلين من الشوفان . وكان من الممكن أن تكون الحياة محتملة ، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب .. فقد كانت الاسرة في عناء كبير !

كان «بوليكي» قد عاش - في صباه - في مزرعة لتربية الخيل ، في قرية اخرى . وكان السائس الذى قدر لبوليكي ان يقع بين يديه هو اكبر لص في المنطقة ، وقد انتهى أمره الى أن نفى الى (سيبيريا) . وقد عني «بوليكي» فترة المران والتدريب تحت اشراف هذا الرجل ، ومن ثم اعتاد من صغره تلك «الاسفاسف» التى لم يستطع في كبره ان يتخلص منها ، رغم انه كان من اليسير عليه ان ينصرف عنها ! .. كان فتى صغيرا ،

ضعيفا ، لا أب له ولا أما ولا أى ناصح أمين يعلمه . ومن هنا
 جنح الى الشراب ، ولم يعد يحب ان يرى شيئا حوله مهملا
 دون ان يستحوذ عليه . . فما من شيء ، سواء كان عنان جواد ،
 أو قطعة من عدة الركوب ، أو قفلا ، أو مزلاج ، أو شيئا أهم
 من ذلك وأعظم قيمة ، ألا ووجد له « بوليكي » نفعا لديه ! .
 فقد كان ثمرة أناس - في كل مكان - يودون أن يحصلوا على
 هذا الشيء ، وان يدفعوا ثمنه شرابا أو نقودا . . حسب
 الاتفاق! ومثل هذه المكاسب من أيسر الأمور ، كما يقول الناس ،
 فهي لا تحتاج الى تعلم أو مران ، ولا الى جهد ، ولا الى أى شيء
 . . والذي جرب هذا مرة ، لا يحفل بمصدر للكسب سواء .
 ولم يكن ثمرة سوى عيب واحد . . فمع انك تحصل على
 الأشياء بسهولة ، ودون ما كثير عناء أو نفقة ، فتنعم بعيش
 رغد ، الا ان الأمور قد تنقلب فجأة ، نتيجة شر من شخص ما ،
 فاذا الاخفاق يصيب حرفتك ، والكساد يلحق بتجارتك ، واذا
 بك تسأل - فورا - ان تقدم حسابا عن كل شيء . . حتى
 لتلعن اليوم الذى ولدت فيه !

وهذا ماجرى لبوليكي ! . . كان قد تزوج ، وأنعم الله عليه
 بحظ طيب . اذ ظهر ان زوجته - ابنة الراعى - كانت موفورة
 الصحة ، ذكية ، ذات جلد على العمل ، وقد انجبت له طفلا
 بعد آخر ، اطفالا ملاحا لطافا . . ومع ان بوليكي ظل دأبا على
 حرفته ، دون ان يصادفه أى سوء . الا ان الحظ تخلى عنه
 يوما ، فاذا بأمره يفتضح . . وكانت الفضيحة كلها حول شيء
 تافه ، اذ كن قد خبا بعض اعنة الخيل الجلدية ، التى كانت
 ملكا لاحد الفلاحين ، ثم تسنى العشور عليها . . فضرب
 (بوليكي) من اجلها ، ورفع الامر الى مولاته - سيدة الضيعة
 وفرضت عليه رقابة . . وضبط مرة ثانية ، ومرة ثالثة ،
 متلبسا . وبدأ القوم يسبون ويغيرونه . وانذره وكيل اعمالها
 بان يزوج به بين المجندين . ووبخته سيدة الضيعة ، وبكت

زوجته واصبحت كسيرة الفؤاد . وهكذا ساءت الامور جميعا !
 وكان رجلا ذا فطرة طيبة ، فهو لم يكن سيئا بطبيعته ، وانما
 كان ضعيفا .. كان مغرما بالخمير ، وقد اعتاد الاقبال عليها ،
 حتى لم يعد يقوى على هجرها .. وكانت زوجته تؤنبه - بل
 وتضربه - أحيانا ، اذا عاد اليها ثملا ، فكان يبكي ويقول :
 « ماذا أصنع وأنا رجل منكود ؟ .. فلأفقد عيني اذا أنا لم
 اكف عن الخمر .. لن اعود اليها البتة ! » .. وينقضى شهر ،
 ثم يقادر البيت يوما ، فيسكر ، ولا يرى لمدة يومين . واذا ذاك
 يقول جيرانه : « لا بد له من أن يحصل على المال ، لكي يشرب
 به ! » .. وكان يعمد الى الطريقة الميسورة ، ثم لا يلبث أن
 يفتضح أمره !

وكان آخر مآزقه ناشئا عن ساعة مكتب الضيعة .. كانت
 من ساعات الحائط ، قديمة ، تعطلت عن العمل منذ امد طويل .
 وتصادف أن وجد الباب مفتوحا - من تلقاء ذاته - فدخل ..
 وأغوته الساعة ! .. فأخذها ، وتخلص منها في المدينة . وشاء
 سوء الطالع أن كان صاحب الحانوت الذي اشترأها منه ،
 قريبا لاحدى جوارى المنزل ، فجاء يزورها في يوم عطلة ،
 وحدثها عن الساعة .. وشرع القوم - لا سيما وكيل الاعمال ،
 الذى كان يكره بوليكي - يتحرون ويتقصون ، وكان الامر يعنى
 كلا منهم ! .. وانكشف الامر ، ورفع الى السيدة ، فارسلت
 تستدعى « بوليكي » ، فاذا به يرتدى على قدميها لتوه ،
 ويعترف بكل شيء - في لهجة مؤثرة - كما أوصته زوجته أن
 يفعل ! .. واحسن تنفيذ تعليمات زوجته بحضرة ، فأخذت
 السيدة تقرعه ، ثم أخذت تعظه .. ومضت تتكلم ، وتتكلم ،
 مذكرة آياه بالله ، وبلاستقامة ، وبالحياة الآخرة ، وبالزوجة
 والاولاد ، حتى أثرت في نفسه ، وأدفعت بعينه .. ثم قالت :
 « اننى أصفح عنك ، على أن تعمدى بأن لا تعود اليها ثانية ! »

فقال بوليكي ، وهو ينشج ببكاء مؤثر : « أبدا لن أعود
ما حييت .. أو فلاهلك ، ولتنفجر امعائى ! »
وعاد بوليكي الى داره ، فقضى يومه مستلقيا على الفرن ،
وهو يجهش ببكاء أشبه بخوار العجل .. ومنذ ذلك اليوم لم
يؤخذ عليه أى مأخذ . بيد أن حياته لم تعد ممتعة ، فقد ظل
القوم ينظرون اليه ككس ، حتى اذا اقترب موعد التجنيد ،
أخذ كل امرئ يومئذ اليه !

ولقد كان بوليكي طبيبا للجياد ، كما قدمنا .. أما كيف
أصبح كذلك فجأة ، فهذا ما لم يدره أحد ، ولم يدره هو بوجه
خاص ! .. اذ كان واجبه الاوحد فى مزرعة الخيل - حيث
كان يعمل تحت امرة رئيس حراس انتهى أمره الى النفى -
أن ينظف الحظائر من الروث ، وأن ينظف الجياد أحيانا ، وأن
يحمل الماء .. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلم المهنة هناك !
.. ثم بات نساجا ، وعمل - بعد ذلك - فى بستان كان يجتث
الاعشاب من دروبه ، ثم قضى عليه بتكسير الطوب عقابا على
ذنب آتاه ، ثم أصبح حمالا لدى تاجر كان يدفع لخليته مبلغا
سنويا لتدعه فى هذا العمل .. ومن ثم فمن الواضح أنه لم
يكن ممكنا أن يحظى بأية خبرة بأعمال البيطرى هناك أيضا !
.. ومع ذلك فإن شهرته كبيطرى رائع للمهارة - بل خارقها -
بدأت تذيب تدريجا ، وبطريقة ما ، خلال اقامته - آخر مرة -
فى قريته . اذ حجم جوادا مرة أو اثنتين ، ثم أرقده أرضا ،
وراح ينخسه فى خاصرته ، ثم أمر بأحكام وثاقه ، وراح يجرح
خصيتيه - والجواد يناضل عبثا - قائلا ان هذا يؤدى الى
« استنزاف الدم المرتد من الحوافر » ! .. ثم أوضح لفلاح
أن من الضرورة - التى لا غنى عنها - فصد الدم من وريدى
جواده « زبادة فى اراحته » ، وشرع يدق المضغ المثلوم السن،

بمطرقة من الخشب .. وضمد - بعد ذلك - جرحا في أسفل بطن جواد صاحب فندق القرية بشريحة اقتطعها من شال زوجته .. وأخيرا ، راح يمارس علاج كافة أنواع القرح بنثر مسحوق الشب عليها ، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة المديه .. وكان - أحيانا - يوصى باعطاء الجواد جرعات من أى شيء يخطر بباله .. وكلما ازداد عدد الجياد التى يعذبها ، ويفضى بها إلى الموت ، ازداد القوم ايمانا ببراعته وأقبالا بجيادهم عليه !

واشعر بأنه ليس لنا - معشر المتعلمين - يسوغ الضحك من « بوليكي » ، فإن الاساليب التى أتبعها لبث الثقة ، هى عين تلك التى كانت تؤثر على آبائنا ، والتى لا تزال تؤثر علينا ، والتى ستظل تؤثر على ابنائنا ! .. فان الفلاح الذى ينكب على رأس جواده الاوحد - الذى لا يمثل كل ثروته فحسب ، وانما هو فرد من أسرته ، فى الغالب - وهو يحملق فى يقين وخوف الى وجه « بوليكي » العابس ، وأساريره الدالة على خطورة شأنه ، وكميه المحسورين عن ذراعيه النحيلتين ، وقد راح يضغط موقع الداء من الجواد تماما - وبين فكية خرقه مبللة بدواء ، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشب ، ثم يقدم فى جراحة على شيق اللحم الحى - وهو يقول لنفسه فى السر :

« لسوف يتغلب الحيوان المعوج السيقان على جراحه ويبرأ منها ! » - فى حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح ، وأنها رباط العضل وأنها العرق ! .. هذا الفلاح الذى يرقب كل هذا ، لا يمكن أن يرتاب فى أن « بوليكي » ما كان ليرفع يده كى يشق اللحم ، لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل ، لا سيما وأنه - أى الفلاح - لا يستطيع أن يقدم على شيء كهذا بنفسه ! .. فاذا حم القضاء ، وأنهى الامر ، فإنه لا ينحو باللائمة على نفسه اذ أذن للبيطرى بشق لحم جواده دون ما داع لذلك !

ولست أدري رايك فى هذا ، بيد أننى جربت الامر ذاته مع طبيب راح - برجاء منى - يعذب أولئك الذين أعزهم ! ..

أليس المبضع ، وزجاجة الدواء المتسامى (١) ، و « يترنج ..
السقاوة .. تفصيلد الدم .. المادة » وما إليها .. أليس لكل
هذه الكلمات من الاثر ما للكلمات : « العصاب .. والروماتيزم
.. والكائنات الحية » ، وما إليها ؟ .. ان الحكمة القائلة :
« يقدمون على الخطأ وهم يحلمون » ، لاتنطبق على الشعراء
قدر ما تنطبق على الاطباء والجراحين البيطريين !

(٣) في « ركن » بوليكي !



• وعندما اجتمع اهل القرية في العتمة الباردة ب التي
شابت ذلك المساء من أمسيات أكتوبر - لاختيار المجندين
واعلان اصواتهم ، امام مكتب ادارة الضيعة ، كان « بوليكي »
يجلس على حافة فراشه ، منهمكا في صحن دواء للخيل وضعه
على المنضدة وراح يمر عليه بزجاجة .. أما كنه هذا الدواء ،
فلم يكن « بوليكي » نفسه يعرفه ! .. كان يتألف من المادة
الاكالة المتسامية ، والكبريت الخام ، واملاح جلوبر ، وبعض
انواع العشب التي كان قد جمعها اذ خيل اليه فجأة انها ذات

(١) المادة الكيميائية المتسامية هي التي تتحول اذا عرضت للهواء الى بخار
يتصاعد .. وغالبا ما يكون نفاذ العبير

نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبسة (١) ، ثم قدر انها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الأخرى !

وكان أطفاله قد ناموا : اثنان على الفرش ، واثنان على السرير ، وواحد في المهد الذي جلست « اكوлина » الى جواره تفزل .. وكانت بقية الشمعة - احدى شموع مالكة الضيعة ، لم تلق من الصون ما يبعدها عن يد بوليكي - تحترق في شمعدان خشبي على حافة النافذة ، و « اكوлина » تنهض اليها - من آن الى آخر - فتسوى ذبالتها بأصابعها ، حتى لا يضطر زوجها الى أن يتعطل عن عمله الهام . وكان بعض المتحررين في الراي يعتبرون « بوليكي » بيطريا غير ذي قيمة ، وانسانا غير ذي شأن . ولكن سواهم - وهم الاغلبية - كانوا يعتبرونه انسانا غير ذي شأن ، غير أنه استاذ عظيم في فنه .. أما « اكوлина » فكانت تراه طبيب الخيل الاول ، وخير الرجال بلا مرء ، برغم انها كثيرا ما كانت تؤنبه ، بل وتضربه !

ونثر « بوليكي » بعضا من مادة خام على كفه ، اذ انه لم يكن يستخدم الموازين قط ، وقد اعتاد أن يسخر من الالمان الذين يستخدمونها قائلا : « ليس هذا من صنعة العقاقير في شيء ! » .. ووزن « بوليكي » المادة على راحة يده ، فلاح له أن الكمية غير كافية ، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد ، وقال محدثا نفسه : « سأضع هذا القدر كله ، ليكون أفضل تأثيرا ! » .. واسرعت « اكوлина » تلتفت عند سماعها صوت زوجها - مولاها وسيدها - مترقبة منه امرا . حتى اذا رأت أن حديثه لم يكن يعنيه ، هزت كتفها ، وجال بخاطرها : « يا للمعرفة ! .. ترى من أين يستقيها ؟ ! » .. ثم واصلت الفزل . وكان بوليكي قد وضع المادة على ورقة ، فاذا الورقة تهوى الى الارض .. ولم يفت ذلك « اكوлина » ، فصاحت : « آني ، انتبهى ! .. »

(١) انتفاخ البطن لاحتباس الغازات الناشئة عن سوء الهضم .

لقد أسقط أبوك شيئا ، فالتقطيه ! »

وابرزت «آنى» ساقىها العاريتين ، الصغيرتين ، الناحيتين ، من تحت المعطف الذى كانت تتغطى به ، وانسابت تحت المنضدة كالحريرة الصغيرة ، والتقطت الورقة ، قائلة : « هاك يا أبت ! » . ثم اندفعت عائدة إلى السرير ، وقد ائلج البرد قدميها الصغيرتين . وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع وسنان ، ونطق التبغ : « لا تدفعينى ! » . فتمتمت أكوлина : « لسوف أضربكما ! » . وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف !

وقال بوليكي بعد ان وضع المادة فى الزجاج ، وأحكم سداده : « لسوف يمنحنى ثلاثة روبلات . ولسوف ابرىء جواده . ما أرخص الثمن ! .. انه جهد يفلق الدماغ ! .. اذهبى يا أكوлина فاطلبى من «نيكىتا» قدرا من التبغ ، وسأدفع له الثمن غدا » . وأخرج من جيب بسرواله أنبوبة غليون من خشب الليمون - كانت مطلية يوما - وقد انتهت بفوهة (مبسم) من الشمع الاحمر ، وشرع يثبتها فى قصعة الغليون (المكان الذى يوضع فيه التبغ)

وتركت «أكوлина» مغزلها وخرجت ، وهى تحرص على ان تتفادى كل ما كان فى طريقها . وان لم تكن هذه بالمهمة اليسورة . وفتح «بوليكي» الصوان ، فوضع فيه الدواء ، ورفع الى فمه زجاجة «فودكا» فاذا بها خالية ، واذا ذاك قطب محياه . . حتى اذا عادت زوجته وقد احضرت التبغ ، جلس على حافة السرير ، وحشا غليونه وأشعله ، ثم اشرقت أساريه رضى واعتزازا ، شأن الرجل الذى أتم عمل يومه . . وسواء راح يفكر فى غده - وكيف سيمسك بلسان الجواد ويصب دواءه ، هذا المزيج القوى ، فى حلقة - أو راح يتأمل كيف ان أحيدا لا يرفض للشخص النافع طلبا - « ألم تر

بنفسك؟ .. الم يرسل له نيكيتا التبغ؟! « - فان «بوليكى»
شعر بهناءة .

وفجأة ، دفع الباب الذى كان معلقا على محور (مفصلة)
واحدة - ودخلت «الركن» خادما من .. «(فوق)» ! ولم تكن
الوصيفة الثانية ، ولا الثالثة ، وإنما الخادم الصغيرة التى
كانت مكلفة بنقل الرسائل . و «(فوق)» - كما يعرف كل
امرىء - يعنى منزل سيده الضيع ، ولو كان مقاما على
منخفض من الارض !

ولقد اعتادت «اكسيوتكا» - وهو اسم الفتاة - ان تدخل
فى اندفاع ، مارقة كأنها رصاصه ، دون ان تثنى ذراعيها
اللتين كانتا تتحركان فى اتساق مع سرعتها، وتهتزان كبندول
الساعة ، لا الى جانبيها ، وانما امامها ! .. وكانت وجنتها
أشد احمرارا من ثوبها الوردى دائما، كما كان لسانها يتحرك
بسرعة ساقها . وقد اندفعت الى الحجرة، وامسكت بحافة
الفرن، لسبب ما ، غير معروف ! .. وشرعت تترنج الى امام
والى خلف ، ثم اخذت تخاطب «أكولينا» - وهى مقطعة
الانفاس - دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثا فى كل مرة ،
على النحو التالى :

((ان السيدة .. اصدرت أوامرها .. بأن يصعد اليها ..
بوليكى تورا .. أوامرها أن يصعد !))

ثم امسكت ، والتقطت أنفاسها بعناء ، وعادت تقول :
((لقد كان ايجور ميخايلوفيتش مع السيدة .. وقد
تحدثنا عن المجندين .. وذكرنا بوليكى .. وقد امرت افدوشيا
نيكولايفنا .. بأن يصعد فى اتو واللحظة .. هكذا امرت
افدوشيا نيكولايفنا ..)) ، وتنهت مرة أخرى ، ثم اتمت
عبارتها : ((بأن يصعد فى هذه اللحظة .. !))

واخذت « اكسيوتكا » تجيل بصرها — لنصف دقيقة — بين بوليكي، واكولينيا، والاطفال الذين كانوا قد اخرجوا رؤوسهم من تحت الاغطية .. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق — كانت على الفرن — ورمت بها « آنى » الصغيرة . وما لبثت ان رددت : « ان يصعد في هذه اللحظة ! .. » . ثم اندفعت الى خارج الحجرة كالاعصار، والبندولان — الممثلان في ذراعيها — يتأرجحان كالعادة ، بعرض الاتجاه الذى كانت تندفع فيه ! ونهضت « اكولينيا » عن مغزلها مرة اخبرى ، فأحضرت لزوجها حذاءيه .. وكانا حذاءين رثين من احذية الجنود تخللتها الثقوب .. ثم اخذت سترة زوجها من فوق الفرن، فناولته اياها دون ان تنظر اليه، وقالت : « الا تبذل قميصك يا بوليكي ؟ » . فأجابها : « لا » . ولم تكن « اكولينيا » قد نظرت الى وجهه مرة، وهو يرتدى حذاءيه وسترته، وحسنا كانت تفعل بعدم النظر .. ولقد كان وجه بوليكي — فى هذه المرة — شاحبا ، وكان فكه الاسفل يختلج ، وتبدت فى عينيه نظرة دامعة ، وادعة ، عميقة الاسى .. نظرة لا يراها المرء الا فى أعين المساكين ، والضعفاء ، والمذنبين !

ورجل « بوليكي » شعره ، ثم هم بالخروج ، ولكن زوجته استوقفته ، فدست فى صدره رباط شريطه الذى كان مدلى تحت سترته ، ووضعت له قلنسوته على رأسه .. ومن خلف الحاجز الخشبي، انبعث صوت زوجة النجار : « ما هذا يا بوليكي ؟ .. هل ارسلت السيدة فى طلبك ؟ » .. كانت زوجة النجار قد رفعت صوتها فى ذلك الصباح بالذات ، متشاجرة مع « اكولينيا » من اجل وعاء الغسيل المصنوع من رماد الفرن ، الذى قلبه اولاد « بوليكي » فى ركن النجار . ومن ثم فقد سرت — فى بداية الامر — اذ سمعت بأن « بوليكي » قد استدعى امام السيدة .. فغالبا ما يكون الاستدعاء لغير خير ! وكانت امرأة ماكرة ، دبلوماسية ، ذات لسان لاذع ، فما

كان احد ليحرف - خيرا منها - كيف يشطر امرا بكلمة ..
 « او هكنا كانت تتصور ، على الاقل ! .. وقد عادت تقول :
 » اتوقع أن توفدك السيدة الى المدينة لشراء أشياء ، فما
 اعتقد مهمة كهذه تتطلب سوى من هو اهل الثقة ، ولهذا
 فان السيدة تستدعيك ! .. فلعلك تبتاع لى ربع رطل من
 الشاى - من هناك - يا بوليكي ! »

وكبحت « اكوليننا » دموعها ، وقد راحت شفتاها تختلجان
 معبرتين عن غضب . واحسنت بأنها تمنى لو استطاعت ان
 تمسك « هذه السليطة ، زوجة النجار ، من شعرها الرث
 الاكروت ! » . ولسكنها نسيت زوجة النجار ذات اللسان
 السليط ، اذ نظرت الى اطفالها وفكرت في أنهم قد يصبحون
 بلا أب - اذا جند الإوهم - كما تصبح هى زوجة جندى ،
 لا تكاد تكون أحسن حالا من الأرملة فى شيء ! .. واخفت
 وجهها فى راحتها ، وجلست على السرير ، واسلمت رأسها
 الى الوسائد . فقالت ابنتها اللثغاء ، وهى تجذب المعطف -
 الذى كانت تتغطى به - من تحت مرفق امها : « اماه ، انك
 تهشميننى ! »

فصاحت اكوليننا : « ليتكم تموتون .. جميعا ! لقد أنجبتكم
 الى الدنيا لغیر ما شئ سوى الحزن ! » . وأجهشت ببكاء
 مرتفع ، مما سر زوجة النجار التى لم تكن قد نسيت بعد
 انقلاب وعاء الغسيل فى ركنها ، فى الصباح !

(٤) بوليكي .. مبعوث السيدة الى المدينة !

♦ وانقضى نصف ساعة .. وشرع الرضيع يبكى ، فنهضت
 « اكوليننا » ، وألقتته ثديها . وكانت قد كفت عن البكاء ، ولكنها
 اسلمت وجهها - الذى ظل محتفظا بوسامته رغم نحوله -
 الى يدها ، وثبتت بصرها على الومضات الاخيرة للشمعة



المحتضرة ، وجلست تفكر فيما دفعها الى الزواج ، وتعجب مما يدعو الى طلب جنود بهذه الكثرة ، وتندبر كيف تستطيع ان تثار من زوجة النجار !
وسمعت وقع قدمي زوجها ، فجفت دموعها ، ونهضت لتفصح له مكانا يمر خلاله . ودخل بوليكي كما لو كان غازيا مظفرا ، فطوح بقلنسوته على السرير ، ونفخ ، وفك أزرار سترته

— ترى ما الذي كانت تبغيه منك ؟
— أممم !! طبعاً ! ان بوليكوشكا هو آخر من يخطر بالبال من الرجال .. ولكن ، عندما تكون ثمة مهمة تحتاج للاداء ، فمن الذي يرتجى لها ؟ .. بوليكوشكا ، بلا شك ...
— واية مهمة هي ؟

ولم يجد بوليكي داعياً للتعجيل بالرد ، فأشعل غليونه ، وبصق ، قبل ان يقول : « ان اذهب فاحضر نقودا من احد التجار »

وهتفت أكوлина متسائلة : « تحضر نقودا ؟ ! »
فضحك بوليكي — بصوت خافت — وراح يهرز رأسه ، قائلاً : — أه ! .. أو ليست السيدة بارعة في اختيار الكلمات ؟ ..
قالت : « لقد كنت معتبرا غير أهل للثقة ، ولكني اءتمنتك أكثر مما اءتمن أي رجل آخر » !
وكان بوليكي يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران .

واستطرد قائلاً :

— قالت : « لقد وعدتني بأن تستقيم ، فهالك الدليل الاول على اننى أصدقك .. اذهب الى التاجر ، فخذ منه النقود التى هو مدين بها ، واحضرها الى ! » . فقلت لها : « اننا جميعا عبيدك يامولاتي ، ومن واجبنا ان نخدمك كما نخدم الله . ولهذا اشعر بأن بوسعى ان أفعل أى شئ لفخامتك ، ولست املك ان ارفض اداء أى عمل .. مهما تكن أوامرك أصدق بها ، لاننى عبدك ! »

وعاد يتسم من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف واستخذاء، وتلطف، وشعور بالذنب. ثم استأنف الحديث قائلاً:
— فقالت : « أحسنت .. ائن ففسوف تؤدي المهمة باخلاص ؟ » .. ثم أردفت : « أنك لتعلم أن مصيرك يتوقف عليها ! » فرحت اقول لها : « كيف امجز عن أن ادرك ان بوسعى ان أنفذ أوامرك بحذافيرها ؟ .. اذا كانوا قد تقولوا على ، فان كل امرئ يستطيع ان ينسج الاقاويل عن سواه .. ولكنى لم أراع يوماً أية فكرة توحى بأن فخامتك تصدقين هذه الاقاويل .. أو هكذا اعتقد، على الاقل .. » . وقصارى القول اننى رحت أدق فى رفق ، حتى لانت مولاتى تماماً .. فقالت : « لسوف أحسن الظن بك ! »

ولاذ بالصمت دقيقة ، ثم عادت الابتسامة ترسم على محياه من جديد ، واستأنف الحديث :
— اننى أعرف جيد المعرفة كيف اتحدث الى امثالها ! .. وعندما كنت انطلق لأعمل لحسابى — فيما مضى — كان يحدث ان يقسو شخص من طبقتها على ، ولكنى لا أكاد اجتذبه بكلمة أو اثنتين ، حتى أروح «أصقله» الى ان يصبح فى نعومة الحرير !

— وهل المبلغ كبير ؟

فأجاب بوليكي فى غير اكتراث: « الف وخمسمائة روبل ».

وهزت زوجته رأسها ، ثم عادت تسأله : « ومتى أمرت بأن
ترحل ؟ »

— لقد قالت : « غدا .. خذ أى جواد يروق لك ، واذهب
الى ادارة ضيعتى ، ثم انطلق فى رحلتك .. والله معك ! »
فقالت اكوлина ، وهى تنهض فترسم علامة الصليب على
وجهها وصدرها : « المجد للرب ! » .. ثم اردفت فى همس ،
حتى لا يسمع صوتها خلال الحاجز الخشبى : « وليساعدك
الله يا بوليكي » .. وأمسكت بكم قهبيصه ، وقالت ، وهى
سائرة فى همسها : « اصغ الى يا بوليكي ! .. استخلفك باسم
السيب ربنا ان تقبل الصليب حين تشرع فى رحلتك ، وعاهديه
على ان لاتمس قطرة من الخمر شفتيك ! »

فقال ساخرا : « أمر محتمل ! .. ان أشرب وأنا أحمل
كل هذه النقود ! .. آه ! ما أبدع العزف الذى كان يوقعه
شخص ما على البيانو ، هناك ! بديع ! .. » . وصمت لحظة ،
ثم ابتسم وقال : « أحسبها السيدة الصغيرة .. كنت أقف
هكذا امام السيدة الكبيرة ، بجانب ذلك الذى لا ادريه ، وكانت
السيدة الصغيرة تعزف خلف الباب . وظلت تدور وتدق ،
حتى نسقت بين الاوتار فانسابت فى تناسق بديع ! .. آه ،
يا عجبى ! .. لكم اتمنى ان أعزف لحنا ! .. اننى سرعان ما
أحذق العزف ، وانى بهذا لقمين ! لكم انا بارع فى اجادة مثل
هذا الامر ! .. اعطنى قميصا نظيفا فى الغد ! »
وأويا الى فراشهما سعيدين .

(٥) فى اجتماع الفلاحين

• وكان الاجتماع صاخبا ، خارج ادارة الضيعة ، فى تلك
اللائنة . فان المهمة التى كانوا يعالجونها لم تكن هينة . وكان



كل الفلاحين - تقريبا - حضورا . وبينما كان وكيل الاعمال مع السيدة ، ظلوا مرتدين قلنسواتهم ، وازدادت أصواتهم عددا وارتفاعا . وكانت تتخلل اللفظ العميق - في أويقات نادرة - أصوات متهدجة ، وأصوات متحشجة ، وأصوات رفيعة ، تملأ الجو ، وتبدو - اذ تنساب خلال نوافذ دار السيدة - كهدير البحر ينساب من بعيد ، فيثير في السيدة انفعالا عصبيا كذلك الذي تحدثه عاصفة مرعدة ثقيلة الوطأة .. انفعالا هو خليط من الخوف وعدم الارتياح . فقد كانت السيدة تشهر كما لو ان الاصوات كانت توشك ان تزداد - في أية لحظة - ارتفاعا فوق ارتفاعها ، وسرعة فوق سرعتها ، ثم يحدث أمر ما ! .. وراحت تقول في نفسها : « كأنما من العسير ان يجرى كل شيء في هدوء وسلام ، بدون نزاع وصياح ، وفقا لشريعة الحب الاخوى والتواضع المسيحي ! » كانت ثمة اصوات عديدة تتكلم في آن واحد ، ولكن صوت « ثيودور ريسون » النجار كان أكثرها ارتفاعا . فقد كان في اسرته شابان مكتملا النمو ، ومن ثم فقد أخذ يحمل على آل «دوتلوف» . وانبرى الشيخ دوتلوف يدافع عن نفسه ، فبرز من بين الحشد الذي كان يقف خلفه - في بادئ الامر - وراح يتكلم مرسلا نثارا من لعبه ومخاطه ، وهو يبسط ذراعيه آنا ، ويمسك بلحيته الصغيرة آنا آخر ، ويطلق الكلمات بطريقة

كان من العسير عليه - هو نفسه - أن يفهم معها ما كان يقول . وكان ابنه وابن أخيه - وهم جميعا من الشباب البديع - يقفون خلفه منكشمين ، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التي تذود الصقر عن أفراخها . . . وكان الصقر هو « (ريسون) » . . بل إن « (ريسون) » لم يكن يهاجم وحده « (دوتلوف) » ، بل رآح يهاجمه معه جميع الرجال الذين أوتى كل منهم في أسرته شابين مكتملي النمو . . والآباء الذين أوتى كل منهم ابناً واحداً ، وكل المجنمين تقريباً ! وكانت نقطة الخلاف أن شقيق « (دوتلوف) » كان قد جند منذ ثلاثين سنة ، ومن ثم فقد رغب « (دوتلوف) » في أن تعفى أسرته من دورها - في التجنيد - بين الأسرات التي أوتيت كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان صالحين للجنودية . . وأراد أن تحسب خدمة أخيه في الجيش لصالح أسرته ، فتمنح بذلك عين الفرصة التي تمنحها الأسرات التي لا يوجد بين أفرادها غير شابين ، ويجرى الاقتراع بين هذه الأسرات جميعاً - على قدم المساواة - ليختار المجند الثالث من بين شبائها . وكانت ثمرة أربع أسرات أخرى - إلى جانب أسرة دوتلوف - تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان . ولكن أحداها كانت أسرة شيخ القرية ، وقد أعفتها سيده الضيعة . أما الأسرة الثانية ، فكان أحد أبنائها قد جند في العام السابق . . ومن كل من الأسرتين الباقيتين اختير مجند ، في هذه المرة . . بل إن أحد هذين المجندين لم يحضر الاجتماع ، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعاً ، يساورها أمل مبهم في أن عجلة الحظ قد تتجه نحوها ، بطريقة ما ! . . أما « (رومان) » ذو الشعر الأحمر ، والد المجند الآخر ، فقد وقف في سترة مهلهلة وان لم يكن فقيراً - ونكس رأسه في صمت ، وهو يستند إلى جدار المبنى ، لا يكاد يتحرك إلا ليرمق باهتمام أى أمرىء كان يرفع صوته - من حين إلى حين - ثم يعود إلى تنكيس رأسه من جديد ، وكأنما كان كل كيانه ينضح بالتعاسة ! . . وأما الشيخ

سمعان دوتلوف ، فقد كان رجلا يستطيع اى امرىء - عرف عنه شيئا - ان ياتمنه على مئات وآلاف الروبلات ، وهو مطمئن . كان رزينا ، تقيا ، يمكن الركون اليه . . وكان شيخ الكنيسة كذلك . وهذا مما جعل الضجيح الذى احاط به - فى هذه المناسبة - يبدو اكثر اثارة للدهشة والعجب !

وعلى العكس منه ، كان «ريسون» النجار ، وهو رجل طويل اسمر . فقد كان سكيراً عريداً ، بارعا جدا فى محاجة العمال والتجار والفلاحين والسادة ومجادلتهم فى الاجتماعات والاسواق . وقد بدا فى الاجتماع معتدا بنفسه ، لاذع السخرية ، وراح - من علياء طوله - يسحق شيخ الكنيسة المتداعى بكل ما لصوته الرنان من قوة ، وبكل ما اوتى من موهبة للخطابة ، حتى لقد اهتيج شيخ الكنيسة واخرج عن وقاره العميق المعهود .

والى جانب هؤلاء ، كان «جاراسكا كوبيلوف» حاضرا ، وكان احد المتكلمين باسم الجيل الشاب ، اذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الشباب . وكان مستدير الوجه ، مربع الرأس ، مجعدا شعر اللحية ، ربعة القوام . وقد حذا حذو «ريسون» ، وانحاز اليه فى الجدل . وكان قد اكتسب مكانة وقدر فى اجتماعات القرية ، اذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة . . ثم ، كان هناك ، «ثيودور ميلنيكنى» . وكان شابا هو الآخر ، طويلا ، رفيعا ، اصفر الوجه ، ملتف الكتفين ، خفيف اللحية ، ضيق العينين ، دائم الهم والاكتئاب ، لا يرى سوى الجانب المظلم من كل شىء . . وكثيرا ما اثار الارتباك فى الاجتماعات بما كان يوجهه من اسئلة وملاحظات مفاجئة ، محرجة !

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين - كوبيلوف وميلنيكنى - الى «ريسون» . وكان هناك - فضلا عنهما - اثنان من المهذارين الثرثارين ، راحا ينضمان - بين آن الى آخر - الى الثلاثة . . وكان احدهما يدعى «خرابكوف» ، وقد اوتى وجها

من اكثر الوجوه بشاشة ، ولحية بنيسة مسترسلة ، وقد راح يردد: « آه ، يا صديقي الاعز ! » : اما الآخر ، فهو « زيدكوف » ، وكان شابا قلة في الجسم ، ذا وجه كوجه الطائر ، وقد ظل يردد في كل فرصة : « هكذا الامر فعلا يا اخوتي ! » ، موجهها الحديث الى كل امرئ ، ومتكلما في لباقة دافقة ، دون ان يلزم الموضوع اطلاقا ! .. وكان هذان الاثنان قد انحازا - في بادئ الامر - الى احد الجانبين ، ثم ناصرا الفريق الآخر ، ولكن احدا لم يكن ينصت اليهما . وقد كان هناك غيرهما ، ممن على شاكلتهما ، ولكن هذين الاثنين اللذين ظلا يتنقلان خلال الحشد ، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق كافة الاصوات - فيشيران الجزع في نفس سيدة القرية - كانا اقل الجميع ظفرا باصغاء الجمع ، واذا انتشيا بالضجيج والصياح ، اسلما نفسيهما للذة اطلاق صوتيهما بالجمجمة .

وكان بين اعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم ، من ذوى الشخصيات الرصينة ، المحترمة ، وقد وقفوا غير مكترئين ، أو مستعائين . كما كانت هناك نسوة وقفن خلف الرجال ، وفي ايديهن عصي . . على اننى سأحدث عنهن في مرة اخرى ، ان شاء الله . وعلى كل حال ، فان الشطر الاكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو انهم كانوا في كنيسة ، يتهامسون - كل من خلف ظهر الآخر - باحاديث عن شؤونهم المحلية ، أو عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة . . أو كانوا ينتظرون - في صمت - انتهاء الجدل .

كذلك كان هناك فلاحون اثرياء ، ما كان الاجتماع ليزيد من رفاهيتهم أو ينقص . من هؤلاء كان شيخ القرية « ارميل » ذو الوجه العريض اللامع ، الذى كان الفلاحون يطلقون عليه « المكزش » لانه كان غنيا . . ومنهم كذلك كان « ستاروستين » الذى كان وجهه ينم عن رضى ذاتى بقوته ونفوذه ، وكأنه يقول :

« لكم ان تتكلموا ماشاء لكم الكلام، ولكن احدا ان يمسنى ! .. ان لى اربعة أبناء ، ولكن ما من واحد منهم سيضطر الى الذهاب ! » . وكان هذان الاثنان يتعرضان - بين وقت وآخر - لهجوم من بعض ذوى التفكير المستقل ، مثل كوبيلوف او ريسون ، ولكنهما كانا يجيبان فى هدوء وحزم ، وباطمئنان الى مناعتهما .

واذا كان « دوتلوف » قد شابه الدجاجة التى تدود الصقر عن أفرأخها ، فان فتيانة لم يكونوا يشبهون الافراخ فى كثير . فلم يحوموا حوله ويشقشقوا، وانما وقفوا خلفه صامتين .. كان ابنه الاكبر « اجنات » قد بلغ الثلاثين من عمره فعلا ، كما ان الثانى « فاسيلى » كان رجلا متزوجا . اما الثالث - ابن أخيه « ايليشا » - فكان قد تزوج من عهد قريب .. وكان شابا أشقر ، متورد الوجه ، فى سترة انيقة من جلد الغنم ، اذ كان من سائقى عربات البريد .. وقد وقف ينظر الى الجمع، ويحك - فى بعض الاحيان - رأسه ، تحت قبعته ، وكان الامر كله لم يكن يعنيه فى شيء ، بالرغم من ان الصقور كانت تحوم لكى تنقض عليه هو بالذات !

وقال أحد الحضور ، معرضا بما قاله دوتلوف عن تجنيد أخيه : « اذا كان الامر كذلك ، فان جدى كان جنديا، ومن ثم فلى ان ارفض ان اكون بين المقتربين - انا الآخر - على الاساس ذاته ! .. ليس هناك قانون يقر هذا يا صديقى . ففى موسم التجنيد الماضى ، أخذ ((ميخيتشيف)) بالرغم من ان عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد ! »

وكان دوتلوف يقول ، فى الوقت ذاته : « لا أبوك ولا عمك قد خدم القيصر يوما . ولماذا نذهب بعيدا ، وانت نفسك لم تخدم سيدة الضيعة ، ولا الحكومة ، وانما كنت تقضى كل

وقتك في الحانة !.. لقد انفصل عنك ابناؤك لان من المستحيل عليهم ان يقيموا معك ، ولهذا فأنت تتحمس لترشيح ابناء الغير للتجنيد !.. اما أنا فقد انضويت في خدمة البوليس عشر سنوات ، وخدمت كشيخ للكنيسة . ولقد احترق كل ماكنت أملك مرتين، فلم يمد لى أحد يد العون. فهل يقضى على اليوم بالخراب، لان الامور تسير في دارى بسلام وتقوى؟.. اعيدوا الى شقيقى اذن ! فقد مات في الخدمة العسكرية ، على وجه التأكيد .. احكموا بأمانة ، وفقا لقانون الرب ، ايها القوم المسيحيون ، ولا تنصتوا الى هذيان سكير ! »

وفي الوقت ذاته، كان «جيراسكا» يقول لدوتلوف : «أفتتخذ من أخيك حجة ؟» ولكن اهل القرية لم يرسلوه الى الجيش، وانما أرسله سيد الضيعة ، بسبب أساليبه الشريرة ، ومن ثم فهو ليس بالعدو الذى يعفبك ! »

ولم يكن جيراسكا قد اتم حديثه ، عندما تقدم ثيودور ميلنيكنى - الاصفر الوجه - وشرع يقول وهو بادى الكتابة : « اجل، هكذا ينبغى القول .. ان السادة يرسلون الى الجيش بمن يروق لهم ، ومن ثم فعلى القوم ان ينفضوا أيديهم . لقد اجمع القوم على فتاك ، فاذا لم يرق ذلك لك ، فأذهب واصل السيدة ، فلعلها تأمرنى - أنا الرجل الذى يقول اسرة - بأن اترك اولادى واذهب !.. » . ثم اردف بمرارة : « هاك قانونا يرضيك ! » ، ولوح بيده، ثم عاد الى مكانه السابق . واذ ذاك، انتبه «رومان» ذو الشعر الاحمر - الذى كان ابنه أحد المجندين اللذين تم اختبارهما - فرفع رأسه وغمغم : « هو كذلك !.. هو كذلك ! » ، وجلس على عتبة الباب فى استياء وكره .

على ان هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلمون معا ، فى وقت واحد . فالى جانب اولئك الذين كانوا يتحدثون عن شؤونهم الخاصة - فى المؤخرة - لم ينس المهذاران ان يؤديا دوريهما :

فقال زيدكوف - الضئيل الجسم - يناصر دوتلوف : « وهكذا ينبغي أيها القوم الأوفياء ! .. يجب أن يحكم المرء بضمير مسيحي .. اعني أننا يجب أن نحكم كمسيحيين، أيها الإخوة ! » .. وكان « خرابكوف » البشوش يقول مرددا كلمات « جاراسكا كوييلوف » ، وهو يجذب سترة دوتلوف المصنوعة من جلد الفم : « يجب على المرء أن يحكم وفقا لضميره يا صديقي العزيز .. لقد كانت تلك الإرادة السيد ، وليس قرار أهل القرية الذي أرسل بأخيك إلى الجيش ! » .. وقال آخرون : « هذا صحيح ! هكذا كان ! »

وصاح ريسون في دوتلوف : « أي سكير يهرف هناك ؟ .. هل قدمت لى أى شراب ؟ .. أم ترى ابنك - الذى يلتقطونه من قارعة الطريق وهو ثمل - يجرؤ على لومى على الشراب ؟ .. يجب أن نتخذ قرارنا أيها الأصدقاء ! إذا أردتم أن تعفوا آل دوتلوف، فاختاروا مجندا .. لا من بين الاسرات ذات الرجلين فحسب ، بل ومن بين الاسرات التى لم تؤت كل منها سوى ابن واحد .. ودعوا الرجل يضحك منا ! »
- لابد لواحد من أبناء دوتلوف من الذهاب ! ففيم أطالة الكلام ؟

وشرعت اصوات مختلفة تقول : « من الطبيعى ان تكون الاسرات ذات الابناء الثلاثة هى الاولى فى الاقتراع ! »
 فصاح صوت : « لابد لنا من ان نرى أولا ماسوف تقول السيدة . لقد كان ايجور ميخايلوفيتش يقول انهم كانوا راغبين فى ارسال أحد عبيد البيت ! »

وأوقفت هذه العبارة الجدل برهة، ولكنه سرعان ما تأجج من جديد ، وتحول - مرة أخرى - الى المسائل الشخصية . فان « أجنات » - الذى رماه ريسون بأن الناس يلتقطونه من الطريق ثملا - شرع يرمى ريسون بأنه سرق منشارا من جماعة

من النجارين الرجل، وانه كان يضرب زوجته — حين يثمل — حتى يكاد يقضى عليها ! .. فرد عليه ريسون بأنه يضرب زوجته حقاً ، ويضربها وهو في وعيه ، دون ان ترعوى .. فاضحك قوله كل امرئ . ولكنه استنكر في ابناء مفاجيء مسألة المنشار، ودنا من « اجنات » وسأله : « من الذى سرق ؟ .. » . فأجاب اجنات — المتين البنيان — وهو يدنو منه بدوره : « انت ! »

وصاح ريسون : « من الذى سرق ؟ .. الم تكن انت السارق ؟ » . فأجاب اجنات : « لا .. بل انت ! » .. ومن المنشار انتقلا الى سرقة جواد ، وكيس من الشوفان ، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل .. بل اتهموا تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معين . وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح جزء من مائة منها ، لكأنه يستحقان النفى الى سيبيريا — على الاقل — بحكم القانون .

وكان دوتلوف — في تلك الاثناء — قد اختار طريقة أخرى للدفاع عن نفسه ، فانه لم يرض عن صراخ ابنه ، فحاول ان يوقفه قائلاً : « انها خاطئة ! .. كف عن هذا ! اننى آمرك ! » . وفي الوقت ذاته، راح يقول ان الذى اوتى ثلاثة شبان يقيمون معه ليس وخده رب اسرة ذات ثلاثة ابناء ، وانما ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة ابناء يعيشون منفصلين عنه . و اشار بذلك الى « ستاروستين » . فابتسم « ستاروستين » ، واجلى حلقه ، وأخذ يسوى لحيته ، كما يفعل الفلاح الذى اوتى بسطة في الرزق، واجاب بأن الامر كله يتوقف على سيدة الضيعة ، وان من الجلى ان ابناءه كانوا موضع تقدير ، اذ ان الامر صدر باعفائهم .. وحطم « جراسكا » حجج دوتلوف بشأن الاسرات التى انقسمت ، بأن قال انه لم يكن ينبغي لها ان تنقسم — اذ كانت هذه هى القاعدة التى سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفى — وانه ليس للمرء ان يبكي على لبن

أريق ، فقد تم الانقسام فعلا ، وأصبح كل ابن ربا لاسرة ،
ولا سبيل الى تجنيد الرجل الاوحد فى هذه الاسرة .
وانبعثت اصوات الرجال الذين انقسمت اسراتهم ، وقد
انضم اليهم المهذاران : « اتراهم انفصلوا عن أهلهم حبا فى
اللهو ؟ .. لماذا يقضى عليهم الآن بالخراب المبرم ؟ » .. وقال
ريسون لدوتلوف : « يحسن بك ان تبترع بديلا اذا لم يرضك
هذا ، وفى وسعك ان تفعل ! » . فشدد دوتلوف اطراف سترته
حوله ، فى حركة يائسة ، وتقهر وراء الآخرين ، وهو يدمدم
مغضبا : « يبدو انك تعذ على نقودى ! .. لسوف نرى مايقول
ايجور ميخايلوفيتش عندما يعود من لدن السيدة ! »

(٦) .. وانفض الاجتماع !



♦ وفى تلك اللحظة بالذات ، برز « ايجور ميخايلوفيتش »
من الدار ، فاذا القلنسوات ترتفع واحدة بعد اخرى ، اثناء
اقتراب وكيل الاعمال ، حتى تعرت جميع الرؤوس من شيباء
وسوداء تتخللها بواكير الشيب ، وحمراء ، وبنية ، وصفراء ،
وصلعاء من امام ، أو صلعاء فى أم ناصيتها ! .. وأخذت
الاصوات تخفت تدريجا ، حتى ران الصمت فى النهاية ، وسيطر
السكون . وخطا « ايجور ميخايلوفيتش » الى عتبة الباب ،

وقد تجلى انه كان ينتوى الكلام .. ووقف في سترته الطويلة ، وقد دس يديه في جيبه الاماميين اخفاء لخرجته ، وجذب على جيبه قلنسوته المصنوعة في المدينة .. وقف ثابتا ، وقد باعد بين ساقيه ، على العتبة المرتفعة ، فبدأ كأنه كان يطل من عل على تلك الرؤوس ، وعلى الوجوه التى تطلعت اليه ومعظمها مسن ، ملتج ، مليح .. وكان في وقفته هذه رجلا غير ذلك الذى كانه حين وقف امام مولاته .. كان متعاليا ، ذا سلطان ! .. وما لبث ان قال :

— هاكم قرار السيدة يا رجال ! .. ليس مما يسرها ان تقدم احدا من رقيق الدار . انما الذين سيذهبون منكم ، هم الذين تقرررون بانفسكم اختيارهم . ان المظلومين — في هذه المرة — ثلاثة ، والواجب ان يكونوا اثنين ونصف رجل ، ولكن النصف الآخر سيراى حسابه في المرة المقبلة فالامر سيان ، واذا لم يذهب اليوم ، فلا بد له من الذهاب باكر !

فقال بعض اصوات : « طبعاً ، هذا صحيح ! » . بينما استطرد ايجور ميخايلوفيتش : « وفي رأى ان لابد لخاروشكين ولفاسكا ميتيوخين من الذهاب .. فهذه ارادة الله ، كما يبدو ! » .. وقالت الاصوات : « اجل .. هذا صحيح ! » . وظل هو ماضيا في الحديث : « .. اما الثالث فلا بد ان يكون من آل دوتلوف ، أو واحدا من الاسرات ذات اترجلين .. فما قولكم ؟ » وصاحت الاصوات : « دوتلوف ! .. ان في الاسرة ثلاثة من

الشبان ، في سن التجنيد ! » .. ومن جديد ، عاد الصياح يتزايد شيئا فشيئا ، وانبعث حديث خضر الحديقة وبعض الاكياس التى سرقت من ساحة السيدة مرة اخرى ، بطريقة ما . وكان « ايجور ميخايلوفيتش » قد قضى في ادارة الضيعة الاعوام العشرين الاخيرة ، فكان اربيا ، خبيرا . ومن ثم فقد ظل واقفا يصفى زهاء ربع ساعة ، ثم امر الجميع بالصمت ، وامر شبان اسرة دوتلوف الثلاثة بأن يقتنعوا على من يذهب

منهم . واعدت اوراق الاقتراع، وخلطت داخل احدى القبعات، ثم سحب « خرابكوف » احداها ، **فازا بها ورقة « ايليشا »** . وسيطر الصمت على الجميع . وقال ايليشا في صوت مرتعش : « اهي ورقتي ؟ .. دعني اراها ! » فظل الجميع سكونا ، بينما أمر « ايجور ميخايلوفيتش » بأن يحضر كل امرئ نقود التجنيد في اليوم التالي - سبعة كوبكات من كل دار - ثم اردف ان الامر قد انتهى ، وفض الاجتماع . وتحرك الحشد منصرفين ، وأخذت أصواتهم ووقع اقدامهم تخفت رويدا ، حتى أصبحت كظنين يسرى من بعيد . ومكث وكيل الاعمال واقفا يرقب انصراف الجمع ، حتى اذا غاب ابناء دوتلوف الثلاثة، في منعرج الطريق، أشار الى الشيخ دوتلوف ، الذي كان قد وقف من تلقاء نفسه، ثم دخلا غرفة المكتب معا . وقال ايجور ميخايلوفيتش، وهو يجلس في مقعد، وثر امام المكتب : « اننى آسف من اجلك ايها الشيخ . على ان الدور كان دورك . فهل ستدفع لـ **مجل محل ابن أخيك** او لا ؟ » - **لكم يسرنا ان ندفع لـ **مجل محل ابن أخيك** ، لولا اننا لانملك الى ذلك سبيلا . لقد آل جوادان - في هذا الصيف - الى تاجر الجياد التي لم يعد لها نفع (١) ، ثم .. كان هناك زواج ابن أخى .. انه قدر مكتوب علينا ، كما ترى .. جزءا اننا نعيش بأمانة وشرف . أن له حقا في أن يتكلم كما يشاء !** (وكان يفكر اذ ذاك في ريسون)

ومسح ايجور ميخايلوفيتش وجهه بيده وتثاوب . كانت المهمة قد أتمتته وأسقمته - كما ظهر - وكان تواقا لان يتناول الشاي . فقال : « آه ، يا صديقي الكهل ، لا تكن شجيجا ! .. ابحث في أرض دارك ، فانى لموقن من أنك ستخرج من تحتها زهاء اربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل ، وسأبحث لك عن

(١) كانت الغيل المريضة والمكتهلة تباع لتدبح ويتجر في لحمها .

بديل .. واحد ممن اعتادوا التطوع ! .. لقد جاءني شاب منذ أيام يعرض نفسه !
وتساءل دوتلوف : « (في الحكومة ؟) » .. وكان يقصد « في المدينة »

— حسنا ، هل تدفع له ؟

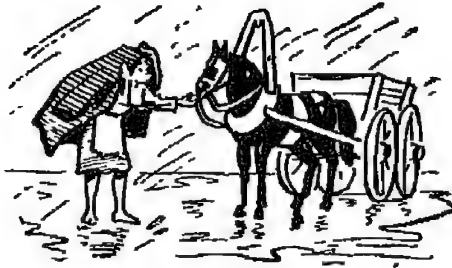
— لكم كفن يسرني ، والله على ما أقول شهيد ، ولكن ...
فقاطعه ايجور ميخايلوفيتش بلهجة صارمة : « آه ، اذن فاسمع ايها الشيخ ! .. حذار من ان يلحق ايليشا بنفسه اذى (١) ، ولا بد من اخذه الى المدينة فوراً .. بمجرد ان اخطركم بذلك ، ان اليوم أو غدا . لسوف تصحبه أنت ، وستكون مسئولا عنه ، ولو ان شيئا حدث له — لا قدر الله ! — فسأبعث بابنك الاكبر بدلا منه ! هل تسمعني ؟ »

— ولكن ، اما من سبيل لارسال واحد من اسرة ذات رجلين ؟
.. ان هذا ليس من الانصاف في شيء يا ايجور ميخايلوفيتش !
وصمت لحظة ، ثم عاد يقول ، والدمع يكاد يطفئ من عينيه :
« لقد مات أخي في الجندية ، وها هم أولاء يأخذون ابني ! ..
كيف استحق مثل هذه البلوى ؟ » .. وأوشك ان يهوى جاثيا على ركبتيه ، فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لا بأس ، لا بأس .. انصرف ! لا سبيل الى عمل شيء ، فهذا حكم القانون ! .. راقب ايليشا ، فسوف تكون مسئولا عنه ! »
وعاد دوتلوف الى داره ، وهو يدق الأرض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون ، اثناء سيره !

(٧) «بوليكي» يذهب الى المدينة

♦ في ساعة مبكرة من الصباح ، وقف عند عتبة اركان رقيق

(١) كان من الشائع ان يصيب المجند نفسه باذى يجعله غير صالح للخدمة العسكرية ، كان يقطع من يده اصبعاً .



الدار ، جواد عريض العظام ، مخصى - كان يدعى « الطبل »
 لامر ما - شد الى عربة صغيرة ، اعتاد وكيل الاعمال ان يستقلها
 بنفسه احيانا . وبالرغم من ان السماء كانت تمطر بردا ،
 والريح قارسة ، فان « آنى » - ابنة بوليكي الكبرى - وقفت
 حافية عند رأس الحصان ، ممسكة عنائه على قيد ذراع ، بينما
 امسكت باليد الاخرى سترة خضراء مصفرة حائلة اللون ، كانت
 ملفاة على رأسها ، وكانت تستخدم كغطاء فراش للأسرة ،
 ومعطف ، وغطاء للرأس ، وبساط ، ومعطف لبوليكي ، وأداة
 لعدة اغراض أخرى بجانب ذلك . وكان « ركن » بوليكي يضج
 بالحركة . وكان الضوء الواهن - لذلك النهار المطير - قد بدأ
 يتسرب خلال النافذة التي كان زجاجها مهشما - هنا وهناك -
 وقد سدت الشفرات بالورق .

وتركت « اكولينا » الطعام الذي كانت تطهوه في الفرن ، كما
 تركت اطفالها - الذين كان اصغرهم في الفراش - يرتجفون ،
 لان السترة التي كانت بمثابة غطاء لهم في نومهم ، اخذت منهم
 ولم تستبدل بغير الشال الذي اعتادت امهم ان تضعه على
 رأسها . وانهمكت « اكولينا » في مساعدة زوجها على التأهب
 لرحلته . كان قميصه نظيفا ، ولكن حذاءيه - اللذين كانت
 اصابعه تطل منهما تشند قوتا ، كما يقول المثل - كبداها كثيرا
 من العناء . فقد نزع جورييها الصوفيين الثقيلين - جورييها

الوحيدين - واعطتهما ازوجها ، واقتطعت بمهارة زوجا من النعال الداخلية ، من كساء سرج كان ملقى في حظيرة الخيل مهملا - وقد أحضره بوليكي الى داره قبل ذلك بيومين - حتى تسد ما كان في الحذاءين من ثقوب ، وتصون قدميه من الرطوبة .

وجلس بوليكي على السرير بكل جسمه وقدميه ، وراح يسوى حزامه حتى لا يبدو كحبل فذر . وكانت الابنة الصغرى اللثغاء ، الحولاء البصر ، قد التفت في جلد الغنم - الذي غطي رأسها واسترسل فراجت تجرجره على الارض - واوفدت لتسال « نيكيئا » ان يعير اباما قلنسوة . وضاعف الحركة في « الركن » مقدم رقيق الدار ليسالوا بوليكي ان ياتيهم بمختلف الاشياء من المدينة . فطلب واحد ايرا للحياكة ، وطلب آخر شاياء وثالث تغاء وغيرهم زيت زيتون . وكانت زوجة النجار قد وجدت وقتا لتذكي النار تحت غلاية الماء ، وتعد قدحا مليئا بسائل اسمته شاياء قدمته الى بوليكي استرضاء له ، لتسأله ان يحضر لها قفرا من السكر .

ومع ان نيكيئا رفض ان يعير قلنسوته ، فاضطروا الى ثريتي قلنسوة بوليكي ، وذلك برد الوبر الذي حشيت به - والذي برز من جوفها - وحياكتها بابرقة من ابر جراحة الخيل . . ومع ان الحذاءين ايبا - في بادىء الامر - ان يتسعا لقدمي بوليكي ، بعد ان زج فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج . . ومع ان « آنى » كادت تفلت عنان « الطبل » وقد أثلجت اطرافها ، وكان لابد لمارى ان تحل محلها وهى ملتفة بجلد الغنم ، ثم اضطرت « ماري » ان تخلع عنها جلد الغنم ، لكى تلتف به « اكوليننا » وتحل محلها لتمسك بالحواد . . بالرغم من كل هذا ، فقد انتهى الامر بان وفق « بوليكي » الى ان يكسو جسمه بكل ما لدى الاسرة من ثياب للتدفئة ، فلم يخلف وراءه

سوى السترة وزوجا من النعال المكشوفة !

واذ استكمل اهبطه ، صعد الى العربية الصغيرة ، واحكم جلد الغنم حول جسمه ، وهز كيس التبغ المعلق أسفل العربية ، ثم عاد فلف نفسه جيدا ، وامسك بعنان الجواد ، وشد اطراف المعطف حوله من جديد ، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة ، وشرع في رحلته .. واقبل ابنه الصغير « ميشكا » على الدرج مهرعا ، وتوسل اليه ان يدعه يركب قليلا ، كما ألحقت عليه ماري اللثغاء ان يسمح لها بأن يدعها « تلكب » - أى تركب - قائلة انها لا « تشعل بيلد (أى تشعر ببرد) . ولو انها بدون جلد الغنم » . فبادر « بوليكي » الى استيقاف « الطبل » ، وابتسم ابتسامته الواهنة ، بينما كانت « اكولينا » ترفع الطفلين الى العربية . ومالت نحوه فتوسلت اليه همسا ان يتذكر عهده ، فلا يتناول أى خمر في رحلته . وجاس « بوليكي » بالطفلين خلال القرية حتى حانوت الحداد ، ثم انزلهما ، ولف جسمه جيدا ، وسوى من وضع قلنسوته ، وساق الجواد في خيب رزين متزن ، وخداه يختلجان مع كل هزة ، وقدماه ترتطمان بجانبى العربية الخشبيين . واندفعت « ماري » و« ميشكا » حافيين ، يهبطان التل الزلق الى البيت ، وهما يصرخان عاليا ، حتى ان كلبا مشردا من كلاب القرية تطلع اليهما ، ثم سابقهما الى البيت وذيله بين ساقيه ، مما جعل خليفتي بوليكي يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات

وكان الجو لا يطاق ، فالريح لازعة ، تتأرجح بين المطر والصقيع ، وبين آن وآخر كان البرد يرتطم بوجه « بوليكي » ويبيده العاريتين اللتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد - واللتين لم ينفك يجذب كمي معطفه ليفطيهما - ويجلد نير الجواد ، وبرأس « الطبل » المكتمل ، الذى رد اذنيه الى الخلف ، واغمض

عينيه نصف اغماضة !

ثم كف المطر فجأة ، واشرق الكون في لحظة . وانقضت
الغيوم الجليدية ذات اللون الضارب الى الزرقة ، وشرعت
الشمس تشق طريقها لتبزغ ، ولكن .. في احجام ودون ما
ابتهاج ، كابتسامة « بوليكي » ! .. ومع ذلك ، فان « بوليكي »
كان مغرقا في افكار بهيجة .. **فها هو ذا - هو الذى كان مهيدا
بالنفى وبالتجنيد ، والذى لم يكن يعنف به ويضربه سوى
اولئك الذين يشند بهم الكسل ، والذى كان يزج به دائما في
أسوأ الاماكن - ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصل مبلغا من
المال - بل مبلغا كبيرا - وقد اتمنته مولاته .. ها هو ذا ينطلق
في عربة وكيل الاعمال ، يجرها «الطبل» الذى كانت السيدة
نفسها تستخدمه في جسر عربتها .. وكأنه مالك من أصحاب
الارض، يسرج جواده بنير واعنة من المجلد بدلا من الحبال ! ..
واعتل « بوليكي » في جلسته ، ودس الحشو الذى تدلى من
قلنسوته ، وعاد يحكم لف معطفه حول جسده !**

على ان « بوليكي » اذا كان قد وهم انه بدا في مظهر الفلاح
المثرى صاحب الاملاك ، فانما كان يخدع نفسه ويفشها . فمن
الحقيقى - كما يعرف كل امرئ - ان تجارا يمتلكون عشرة
آلاف روبل ، يرحلون في عربات تجرها جياد ذات سروج
جلدية ، الا ان هذا لم يكن كل شيء .. ولقد يمر بك رجل
ذو لحية ، وقد ارتدى معطفا ازرق أو اسود ، وجلس وحيدا
في عربة يجرها حصان جيد التغذية ، فلا تلقى اليه نظرة إلا
لترى ما اذا كان الجواد ناعم البشرة ، وما اذا كان الرجل جيد
التغذية ، ولتتبين الطريقة التى يجلس بها ، وسرج جواده ،
واطارات عجلات عربته ، وعباءته ، فتعرف لفورك ما اذا كان
الرجل يتجر حقا في مئات الروبلات او في آلاف ! .. وكان أى
شخص مجرب يتاح له ان ينظر عن كثب الى « بوليكي » ويديه،
ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت ، وعباءته ، والتبن الذى وضع

في العربية باهمال ، و «الطبل» النحيل، والاطارات البالية حول العجلات .. كان أى شخص ذو تجربة يرى ذلك ، خليقا بأن يدرك أنه ليس سوى عبد وليس تاجرا ، ولا وسيطا يتسوق صفقات الماشية ، بل ولا فلاحا يملك أرضا .. وأنه لا يتعامل بالآلاف ولا بمئات - بل ولا بعشرات - الروبلات !

ولكن «بوليكى» لم يكن يفكر على هذا النسق .. فقد أثر ان يقرر بنفسه ، وان يقرر بها مختارا ، راضيا .. انه لن يلبث ان يعود حاملا ألفا وخمسمائة روبل في صدر معطفه .. ولو شاء فان بوسعه ان يولى وجه «الطبل» صوب (اوديسا)، بدلا من ان يوجهه شطر قريته ، وان يسوقه الى حيث يشاء القدر والمصير . ولكن «بوليكى» لن يفعل شيئا من هذا القبيل، بل انه سيحمل النقود كلها الى السيدة، كما ينبغي، وسيحدثها بأنه حمل يوما مبالغ تفوق هذا المبلغ قيمة !

وعندما بلغا حانة - في الطريق - شرع «الطبل» يجذب العنان الايسر ، موليا صوب الفندق ، ثم وقف . وكانت مع «بوليكى» النقود التى اعطيت اليه كي يشتري بها ماسئل ان يشتريه ، ولكنه - رغم ذلك - ساط «الطبل» ، واضطره الى ان يواصل السير . وتكرر الامر ذاته عند الحانة التالية . حتى بلغا المدينة - حوالى الظهر - وقفا لدى حانة . وهبط «بوليكى» من العربية في هذه المرة ، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة - حيث اعتاد كل اتباع مولاته ان ينزلوا - وقاد الجواد والعربة الى الفناء . وهناك ، فك قيود «الطبل» ورفع عنه النير ، وقدم له بعض التبغ، ثم تناول غداءه مع اتباع صاحب الحانة ، دون ان يغفل ذكر المهمة الخطيرة التى اقبل من اجلها .. وما لبث ان انطلق ليجت من التاجر الذى كان يتساع منتجات بستان السيدة ، ومعه قائمة الحساب في ثنايا مقدم

فلنستوته !

وكان التاجر يعرف «بوليكى» ، وقد بدأ بوضوح مرتابا فى أمره . فلما قرأ الخطاب ، راح يسأله ليستوثق من أنه كان أوفد فعلا لتحصيل النقود . وحاول « بوليكي » ان يبدى استياء ، وكان الاسئلة قد جرحت شعوره ، ولكنه لم يستطع ان يجيد الاصطناع ، ولم يملك سوى ان يتسمم ابتسامته المعهودة . وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جديد ، ثم أسلمه النقود .

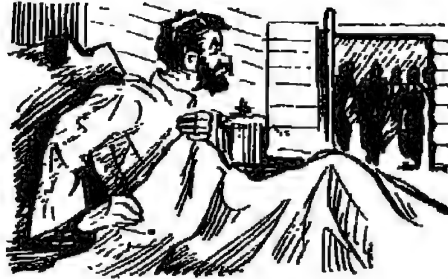
وما ان تسلم «بوليكى» المبلغ ، حتى دسه فى صدر معطفه ، وعاد الى الخان، فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أى شىء . . . كان يشعر بالفعال مستعذب يسرى فى كل كيانه ، وقد وقف أكثر من مرة أمام الحيوانات التى كانت تعرض سلعاً مفرية - من أحذية ، ومعطف ، وقلنسوات ، واقمشة ، ومواد غذائية - ثم كان يهضى فى سبيله ، وفى نفسه شعور ممتع ، وكأنه يقول لنفسه : « بوسى أن ابتاع كل هذا ، ولكن . . ولكنى - مع ذلك - لن أفعل » ! وذهب الى السوق لشراء الاشياء التى كلف بشرائها ، فحصل عليها جميعا ، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم ، سئل أن يدفع خمسة وعشرين روبلا ثمنها . ولامر ما ، لاح على البائع - بعد ان تأمل بوليكي - انه يرتاب فى قدرته على شراء المعطف . بيد ان بوليكي أشار الى صدره ، قائلا ان بوسعه ان يشتري الحانوت كله ، لو انه شاء . واصر على ان يرتدى المعطف للتجربة وراح يتحسس ، ويجس قماشه ، وينفخ الصوف ليباعد بين شعيراته ويتأمل النسيج ، حتى امثلاً برائحته . . ثم خلعه عنه وتنهد ، وقال : « ان السعر لا يلائمنى ، فهلا بعته بخمسة عشر روبل ؟ » . فطرح البائع بالمعطف عبر نضد الحانوت وهو مغیظ ، بينما خرج بوليكي مبتهجا ، وسأر الى الخان الذى نزل فيه . وبعد العشاء روى «الطبل» وقدم له قدرا من الشوفان ،

ثم اعتلى المدفأة (١) ، وأخرج المظروف الذى ضم النقود ، ففحصه طويلا ، ثم سأل حملا كان يعرف القراءة ، ان يقرأ عليه العنوان وما خط تحته ، فاذا به : **طيه الف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحسولة** (٢) . وكان المظروف مصنوعا من الورق العادى ، ومختوما بشمع بنى صلب - نقش عليه رسم مرساة (هلب) - فى خمسة مواقع .. خاتم كبير فى الوسط ، وأربعة فى الاركان . كما كانت ثمة نقاط من الشمع بقرب الحافة . ولقد فحص «بوليكى» كل هذا وتأمله وطبعه فى ذاكرته .. بل انه تحسس حواف الاوراق المالية المرفهة، التى كانت بداخله . وداخله شعور صبيانى بالسرور وهو يرى انه يمسك بين يديه بمبلغ ضخيم كهذا . ثم دس المظروف فى ثغرة بين ثنايا قلنسوته ، وورقه والقلنسوة تحت رأسه .. ولكنه لم يطمئن - مع ذلك - فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسس المظروف . وكان - فى كل مرة - يجده فى مكانه ، فيخالجه شعور مستعذب بالرضى .. فها هو ذا «بوليكى» الملطخ السمعة المستضعف ، المهين .. ها هو ذا يحمل مبلغا كهذا ، ليسلمه الى مولاته بعناية دونها عناية اى امرىء آخر .. حتى وكيل اعمالها نفسه !

(٨) هياج فى الخان

♦ استيقظ خدم صاحب الخان و « بوليكى » - حوالى

-
- (١) كانت البيوت الروسية مزودة بمدافئ مبنية بالطوب ، كبيرة الحجم ، على شكل الافران المعروفة فى ريفنا .
- (٢) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعة الروبل الفضى فى القيمة . فكان المبلغ كله ٤٦٢ روبل .. وهو ما ذكره ايجور لمولاته فى نهاية الفصل الاول



منتصف الليل - على طرقات على الباب الخارجى ، وصياح صادر من فلاحين . واذا بفريق المجندين من (بوكروفسك) قد وصل . . كان ثمة عشرة أفراد تقريبا : خوربوشكين ، وميتيوكين ، وايليشا (ابن أخى دوتلوف) ، وبديلان رافقا القوم عسى ان تدعى الحاجة اليهما ، وشيخ القرية ، ودوتلوف الكهل ، والرجال الذين ساقوا العربات التى أفلتهم . وكان فى الحجرة ضوء ساهر ، وقد رقدت الطاهية على اريكة خشبية تحت الايقونات ، فقفزت ناهضة ، وبادرت الى اشعال شمعة . . كذلك استيقظ « بوليكي » ، واطل من اعلى المدفأة ، فنظر الى الفلاحين اثناء ولوجهم المكان .

ودخلوا وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وجلسوا على المقاعد الخشبية المخصوصة بحذاء جدران الحجرة . وكانوا جميعا يلوحون فى اكمل هدوء وسكينة ، حتى ليعجز المرء عن ان يتحدث اليهم المجندون ، وايهم الذين كانوا يرافقونهم . واخذوا يحيون اهل الخزان ، ويتحدثون بأصوات عالية ، ويطلبون طعاما . . وصحيح ان بعضهم كانوا سكوتا ، واجمين ، محزونين ، الا ان بعضا آخر كانوا على النقيض ، فى مرح غير عادى . . كأن من الجلى أنهم سكارى . وقد كان بين هؤلاء « ايليشا » الذى لم يسرف يوما فى الشراب من قبل

وتساءل شيخ القرية : « وبعد يا اولاد .. هل ننام أو نتناول عشاء ؟ » . فقال « ايليشا » وهو يفتح صدر معطفه ، ويجلس على مقعد خشبي : « عشاء ! .. واطلبوا لنا بعض الفودكا ! » . فقال شيخ القرية في ايجاز : « كفاك فودكا ! » . والتفت الى الآخرين قائلاً : « ليقطع كل منكم لنفسه لقمة من الخبز يا اولاد ! .. لماذا نوقظ القوم ؟ » . فعاد ايليشا يصيح ، دون ان ينظر الى اخذ ، وبصوت نم عن انه لن يسكت : « آتوني بفودكا ! »

واخذ الفلاحون بمشورة شيخ القرية ، فأحضروا خبزا من العربات التي اقلتهم ، وطلبوا قليلا من الجعة ، ثم استلقوا .. بعضهم على الارض ، وبعضهم على المدفأة . وظل ايليشا يردد بين فترة واخرى : « دعوني أصب بعض الفودكا . اتسمعون ؟ .. اريد بعض الفودكا ! » . ثم فطن الى « بوليكي » ، فصاح : « بوليكي ! ها ، بوليكي ! .. آنت هنا ايها الصديق العزيز ؟ .. الا تعلم انني ذاهب لاصير جنديا ؟ .. ودعت امي وزوجتي .. لكم راحت تصول وتجهش بالبكاء ! .. لقد حزموني حزما وارسلوني كالطرد لاصبح جنديا .. اطلب لي بعض الفودكا ! » . فأجابه بوليكي : « لست املك اية نقود ! » . واخذ يواسيه ، ثم اردف : « من يدري ؟ .. لعلك يرفضون تجنييدك بعون الله ! »

— لا يا صديقي ، فانا متين البنيان كالشجرة الصلبة .. ابدا لم أصب بمرض . لا سبيل الى رفضي ! .. أى جندي يرجوه القيصر خيرا مني ؟

واخذ بوليكي يروي له كيف ان فلاحا اعطى طبيبا ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة ، فغاز بالاعفاء من الجندية .. واقترب « ايليشا » من المدفأة ، وشرعا يتكلمان بمزيد من الحرية . فقال ايليشا : « لا يا بوليكي ، لقد انتهى الامر ! لم اعد انا نفسي راغبا في البقاء ، فقد استغنى عمي عني ، وكأنه لا يملك ان يدفع

لبديل يحل محلي ! .. لا ، لقد ضن بابنه، وضن بالمال ، ومن ثم فقد أرسلوني . لا ! .. أنا نفسي لا أريد المكث ! » . وكان يتكلم بصوت منخفض - تحت تأثير أساه الهادىء - وكأنه يبت الآخـر سره .. واستطرد يقول : « انما آسى على شىء واحد .. آسى على امى ، تلك الحبيبة ! .. لشدة ما كان حزنها ! والزوجة كذلك ! .. لقد قضوا على المرأتين بالخراب ، لغير نفع ! .. لسوف تهلك امرأتى .. أو - بمعنى آخر - ستصبح زوجة جندى ، وكفى ! .. كان خيرا لو اننى لم أتزوج ! فلماذا زوجونى ؟ .. انهم آتون الى هنا غدا ! »

وتساءل بوليكى : « ولكن ، لماذا احضروكم بهذه العجلة ؟ .. ان احدا لم يسمع بالامر كله ، ثم اذا بهم فجأة .. » . فأجاب ايليشا مبتسما : « تصور انهم يخشون ان أحدث بنفسى اذى . لا داعى للخوف ، فلن أحدث بنفسى شيئا من هذا القبيل .. كل ما هنالك اننى آسف من اجل اسى .. » . ثم اردف فى رفق واسى : « ما الذى حملهم على ان يزوجونى ؟ »

وفتح الباب اذ ذاك ، ثم اغلق بصوت عال ، ودخل الشيخ دوتلوف وهو ينفذ البلل عن قلنسوته ، وقد غيب قدميه فى حذاءين من لحاء الخشب مفرطى الكبر - كمادته - فكأنهما قاربان حول قدميه ! .. وقال لخادم الخان وهو يمر به : « أليس هناك مصباح يا افاناسى ، لاحضر على حـصـوته بعض الشوفان ؟ » . وشرع يشعل - فى بطة - بقية من شمعة ، دون ان ينظر الى ايليشا ، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسين تحت حزامه الذى شد باحكام وعناية حول معطفه . ولاح وجهه - الذى أضناه الجهد والنصب - مألوا ، ساذجا ، وادعا ، مليئا بهموم العمل ، وكأنه وصل لتوه مصطحبا قافلة من العربات المحملة !

وصفت ايليشا عندما رأى عمه، وعاد بطرق، متأملا مقعده الخشبي في وجوم . ثم تمت مخاطبا شيخ القرية : « فودكا ، يا ارميل ! .. اريد بعض الشراب ! » .. وبدأ صوته محنقا ، ساخطا . فأجابه الشيخ الذي كان يأكل شيئا من وعاء أمامه : « شراب ، في مثل هذا الوقت ؟ الا ترى الآخرين قد اكتفوا بلقمة وناموا ؟ .. لماذا تثير شغبا ؟ » . وتجلى ان كلمة « شغب » قد وسوست الى « ايليشا » بالعنف ، فصاح : « لسوف أقدم على عمل غير طيب ، اذا أنت لم تعطني فودكا ، ايها الشيخ ! » . فالتفت شيخ القرية نحو دوتلوف الذي كان قد وضع الشمعة في « فانوس » ، وهم بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث ... والذي كان يرمق ابن اخيه - من ركن عينه - في رثاء ، وكأنما هو في عجب لسلكه الصبياني .

وعاد ايليشا يغض بصره ، وهو يتمتم : « فودكا ! .. اعطني ! .. اقدم على شر ! » . فقال شيخ القرية في لين : « دعك من هذا ، يا ايليشا ! .. اجل ، دعك ، وكفى ! .. ان هذا خير لك ! » .. وقبل ان يفرغ من كلماته ، كان « ايليشا » قد وثب فضرب زجاج إحدى النوافذ بقبضته ، وهو يصيح بأعلى صوته : « مادمت تأبى ان تسمع كلامي ، فهناك العقوبة ! » . واندفع نحو النافذة الاخرى ليكسر زجاجها . وفي لمح البصر ، ثقل « بوليكي » مرتين ، واختبأ في الركن القصي على قمة المدفأة .. وقد فعل ذلك بسرعة خاطفة ، بثب الفزع في جميع الصراصر التي كانت هناك . والقى شيخ القرية بملعقته ، واندفع نحو « ايليشا » . ووضع دوتلوف فانوسه ببطء ، وفك حزامه ، وهز رأسه ، وهو يصك لسانه بسقف فمه محدثا صوتا ينم عن الاستنكار ، وسار الى « ايليشا » الذي كان قد انهمك في نضال ضد شيخ القرية واحد اتباع صاحب الخان ، وهما يردانه عن النافذة .

وكانا قد أمسكا بذراعيه ، ولاخ انهما قد سمراه في مكانه .

ولكنه لم يكد يرى عمه والحزام في يده ، حتى تضاعفت قواه عشر مرات ، وانتزع نفسه منهما ، وتقدم من دوتلوف وعينهاه تكادان تقفزان من محجريهما ، وقبضتاهم مشدودتان ، وصاح :
 ((لسوف أقتلك ! .. ابتعد ، أيها الحيوان ! .. لقد قضيت على ، أنت وابناك الزنيمان ! لقد قضيتكم على بالخراب ! .. لماذا حملوني على الزواج ! .. ابتعد ! لسوف أقتلك ! ..))
 وكان ايليشا رهيبا في هيأه ، فقد احتقن لون وجهه ، وراح انسانا عينيه يدوران في محجريهما ، واخذ جسده الشاب السليم يرتجف بأجمعه كالمحموم . وبدأ كأنما كان يبغي أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا في وجهه ، وكان قادرا على قتلهم !
 — أنك تشرب دم أخيك ، يا مصاص الدماء !

وأومض بريق خاطف خلال وجه دوتلوف الدائم الرزانة ، وتقدم خطوة ، ثم قال فجأة : « أنك تأبى أن تسكن في سلام ! » .
 وكان أعجب ما في الأمر هو : من أين جاء بتلك الطاقة ؟ ..
 فقد أمسك بأذن أخيه بحركة سريعة ، وألقى به على الأرض ، وارتمى معه ، وأحكم وثاق يديه بحزامه ، بمعونة شيخ القرية ! وظلا يتصارعان زهاء خمس دقائق ، ثم نهض دوتلوف أخيرا .
 — بمساعدة الفلاحين — وهو يجنب معطفه من قبضة ((ايليشا)) .
 وما لبث أن أنهض « ايليشا » الذي أصبحت يدها مكتوفتين خلف ظهره ، واضطره إلى أن يجلس على مقعد خشبي في الركن .
 وقال وهو لا يزال متهدج الانفاس — من جراء الصراع — وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاما غير عريض : « لقد قلت لك أنك ستسبى إلى نفسك ! .. لماذا تأثم ؟ ان الموت مكتوب علينا جميعا ! » . ثم التفت إلى اتباع صاحب الخان ، وقال : « اطووا معطفا ليتوسده ، والا فسوف يتصاعد الدم إلى رأسه » . وراح يربط الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم ، ثم تناول الفانوس ، وخرج ليغنى بالجياد .
 وراح ايليشا — وهو شاحب الوجه ، مشعث الشعر ، وقد

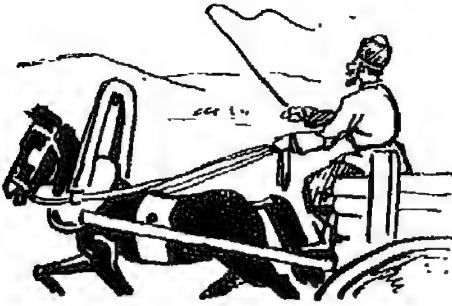
تهدل قميصه - يطوف ببصره في الحجرة ، وكأنه يحاول أن يتذكر أين هو .. بينما انهمك اتباع صاحب الخان في جميع شظايا الزجاج المهشم ، ثم دسوا في الثغرة - التي خلفها في النافذة - معطفا ، ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس . وعاد شيخ القرية يجلس الى وعائه ، وهو يردد : « آه ، يا ايليشا ! يا ايليشا ! .. لكم أنا آسف من أجلك حقا ! .. آية حيلة لنا في الامر ؟ .. هاك خوريوشكين .. انه الآخر متزوج ! .. من الواضح أن لا حيلة لنا في الامر ! »

وعاد ايليشا يقول بصوت خشن ، ولهجة مشبعة بالسخط : « انما قضى على بالدمار ، من أجل ذلك الشرير عمى ، فحسب ! .. لقد كان كل حرصه منصبا على ابنه .. لقد قالت أمي أن وكيل الاعمال دعاه الى أن يدفع من أجل بديل عني ، فأبى ، وقال انه لا يملك ما يدفع .. كأنما لا قيمة لكل ماجلبته وأخى على أسرته من خير ! .. انه شرير ! »

ورجع دوتلوف الى الحجرة ، فأدى الصلاة أمام الايقونات ، وخلع ثيابه الخارجية عنه ، وجلس بجوار شيخ القرية ، فأحضرت الطاهية بعض الجمعة ، وملقعة أخرى . وران السكون على ايليشا ، ورقد على المعطف المطوى ، وأغمض عينيه . فأشار شيخ القرية نحوه ، وأخذ يهز رأسه في صمت . بينما لوح دوتلوف بيده قائلا : « كأنما المرء غير آسف من أجله ! .. انه ابن أخي ، من صلبى ودمى ! .. وكأنما الامور ليست باللغة السوء ، كما هو جلى ، فراق لهم أن يصوروني له وغدا شريرا ! .. ولعلها زوجته التي بشت في رأسه أن يوسعنا أن ندفع من أجل بديل عنه ، فهي امرأة ضئيلة الجسم ، خبيثة ، رغم صغر سنها .. ومهما يكن ، فإنه ينحو باللائمة على ! .. ولكن المرء يرثى للفتى ! .. » . فعقب شيخ القرية قائلا : « آه ! ..

ويا له من فتى بديع !
 - ولكن صبرى بلغ مداه معه ! .. على اننى سامد له ! ..
 ففدا سياى « اجنات » ، وقد رغبت زوجة الفتى فى ان تاتى
 معه هى الاخرى .

فقال شيخ القرية وهو يبارح مكانه ، ويصعد الى سطح
 المدفأة : « أحسنت صنعا . دعهما يأتيان ! .. الا ما اتفه
 المال ، انه عرض زائل ! » . فغمغم أحد اتباع صاحب الخان ،
 وهو يرفع رأسه : « لو كان لدى المرء مال لما ضن به .. مندا
 الذى يضمن بالمال ؟ » . فرد عليه دوتلوف قائلا : « آه ! المال ،
المال ! .. أنه سبب الخطايا ! لا شىء فى الدنيا يسبب من الآثام
أكثر مما يسبب هو .. وقد قال الكتاب المقدس ذلك ! » .
 فقال العامل يقره على قوله : « كل شىء مشيت فى الكسباب
 المقدس . لقد روى لى رجل كيف أن تاجرا اختزن كوما من
 المال ، ولم يشأ أن يخلف وراءه شيئا منه ، فقد بلغ من حبه للمال ،
 أن أراد أن يأخذه معه الى قبره . وعندما كان يحتضر ، طلب
 أن تدفن معه وسادة صغيرة . فلم يرتب أحد فى الامر ،
 ودفنوها معه . ثم راح ابناؤه يبحثون عن ماله ، فلم يستطيعوا
 أن يعثروا على شىء منه . وأخيرا ، خطر لواحد منهم أن من
 المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها فى الوسادة .
 وعرض الامر على القيصر ، فسمح بأن يفتح القبر . فماذا
 تظن أنه حدث ؟ .. لقد فتحوا التابوت ، وشقوا الوسادة فلم
 يجدوا فيها شيئا . ولكن التابوت كان مليئا بثعابين صغيرة ،
 ومن ثم فقد دفن ثانية .. رأيت ما يفعل المال ؟ »
 وقال دوتلوف وهو ينهض قائما : « هذه حقيقة واقعة ،
 فالمال يجلب كثيرا من الآثم ! » . وشرع يصلى . حتى إذا
 فرغ ،لقى نظرة على ابن أخيه ، فاذا الشاب نائم .. وسار
 اليه دوتلوف ففك الحزام الذى كان يوثق يديه ، ثم رقد هو
 الآخر . وخرج فلاح من الحجرة ، لينام مع الخيل !



(٩) مفاجأة في نهاية الطريق !

♦ ما أن سيطر السكون على كل شيء ، حتى هبط بوليكي عن المدفأة متسللا في رفق ، وكأنه مجرم ، وشرع يتأهب للرحيل . . فقد شعر - لسبب ما - بعدم ارتياح لمجرد التفكير في قضاء الليل في الخان ، مع المجندين . وكانت الديكة قد بدأت تكثر من التصايح ، ينادى بعضها بعضا : كما كان . « الطبل » قد أتى على كل الشوفان الذي قدم اليه ، وشرع يمد عنقه الى دلو الماء . فأسرجه بوليكي ، وقاده - خلال عربات الفلاحين - الى الخارج . . وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها ، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الارض المكسوة بالصقيع ، ميممة سطر (بوكروفسكى) .

ولم يشعر بوليكي بطمأنينته الا حين خلف المدينة وراه . فقد ظل - حتى بارحها - يتصور انه ان يلبث أن يسمع اصواتا تنم عن أنهم يطاردونه في أية لحظة ، وانهم لن يلبثوا أن يستوقفوه ، وأن يوثقوا كتافه - بدلا من ايليشا - ثم يأخذوه الى مركز التجنيد في صباح اليوم التالي . . وكان ثمة شيء - لعله الصقيع ، أو لربما كان الخوف - يرسل قشعيررات باردة تسرى في ظهره ، فأراح يلهب « الطبل » مرة بعد أخرى ، يستحثه على الاسراع . . وكان اول من صادفه قسا ارتدى

قلنسوة طويلة من الفراء ، يصحبه عامل أعور . فتشباءم « بوليكي » من هذا الأخير ، واشتد جزعه ، فازداد انطلاقا ، ولكنه عاد يطمئن من خوفه تدريجا ، عندما بارح المدينة ، حتى تبدد الخوف أخيرا . . وخفف « الطبل » من ركضه ، وقد ازدادت الطريق وضوحا أمامه . . وخلع « بوليكي » قلنسوته ، فتحسس الأوراق المالية ، وقال لنفسه : « هل أخبئها في صدري ؟ . . لا ، فقد اضطر الى أن أفك حزامي . . مهلا ! فلاهبط عندما أبلغ أسفل التل ، وأسوى من حالي . . ان القرص الأعلى قد حيك بعناية واحكام ، ومن ثم فلا سبيل الى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج . . وخير لي - على أية حال - أن لا أدخل القلنسوة حتى أبلغ البيت ! »

ولما بلغ أسفل التل ، واستقبل أمامه التل الذي يليه ، ركض « الطبل » من تلقاء نفسه صاعدا اباء ، فلم يحاول « بوليكي » أن يكبح جماحه ، اذ كان مشوقا مثله الى العودة الى الدار . . وكان كل شيء على ما يرتجى ، أو هكذا تصور « بوليكي » - على الأقل - فأسلم نفسه للأحلام ، متخيلا ما سوف تبديه السيدة من عرفان ، متصورا الروبلات الخمسة التي ستمنحه إياها ، والفرح الذي سيطغى على أسرته ! . . وخلع القلنسوة ، فتحسس المظروف وابتسم ، ثم ردها الى رأسه وأحكم وضعها . وكانت المقدمة المخملية للقلنسوة بالية ، ونظرا لان « اكولينا » كانت قد رتقت فتوقها رتقا محكما في أحد جوانبها ، فانها لم تلبث أن تفسخت من جانب آخر . . وإذا الحركة التي ظن « بوليكي » في وهن الفجر الوليد أنها دفعت المظروف الى جوف طبقات القلنسوة ، تزيد من تمزق الجانب المتفسخ ، وتدفع ركننا من المظروف الى الخارج ، خلال المقدمة المخملية .

وبدا الفجر يسفر النقاب ، فشرع النعاس يداعب أجفان « بوليكي » الذي لم يكن قد نام في ليلته . . وفي نعاسه شد

القلنسوة لتزداد التصاقا برأسه - فازداد بذلك بروز المظروف الى الخارج - وارتطم رأسه بمقدم المركبة . واستسلم للنعاس ، فلم يستيقظ الا وقد اقترب من القرية . وهم بأن يفحص قلنسوته ، ولكنه أحس بأنها محكمة الوضع فوق رأسه ، فلم ير داعيا لرفعها ، مطمئنا الى أن المظروف بداخلها . ومس « الطبل » بسوطه ، ونسق القش الذى كان يكسو أرض العربية ، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسر ، ويتلفت حوله فى خيلاء ، والعربة تدرج نحو القرية !

وتراعى له مطبخ الدار ، و « الاركان » التى يسكنها الرقيق .. ولاحت له زوجة النجار وهى تحمل الفسيل ، ثم تبين مكتب ادارة الضيعة ، ومسكن السيدة .. المسكن الذى لن يلبث أن يبرهن فيه على أنه رجل أمين ، أهل للثقة .. لسوف يقول للسيدة : « بوسع كل امرئ أن يقول على أى شخص كما يحلو له ! » .. وسترد السيدة قائلة : « لابأس يا بوليكي ! .. هالك ثلاثة (أو ربما خمسة ، بل عشرة) روبلات ! » .. وستامر بتقديم الشئ الىه ، بل ربما امرت بتقديم بعض الفودكا ! .. ولن يكون هذا بالامر المستغرب ، بعد الوقت الذى قضاه فى البرد ! .. ومضى بوليكي يحدث نفسه : « بعشرة روبلات نستطيع أن ناعم غدا بعيد طيب ، وأن نبتاع أحذية ، ونرد الى نيكيتا روبلاته الاربعة والنصف .. اذ لا حيلة فى ذلك ، فهو قد بدا يضايقنا بالمطالبة .. »

وعندما أصبح على حوالى مائة خطوة من الدار ، أحكم لف معطفه حول جسمه ، وسوى من وضع حزامه وياقته ، وخلع قلنسوته فسوى شعره ، ودس يده تحت بطانة القلنسوة ، غير متعجل .. وأخذت اليد تعبك وتبحث داخل البطانة ، واشتدت سرعة أصابعها .. ثم انضمت اليها اليد الاخرى ، بينما أخذ وجه « بوليكي » يزداد شحوبا فوق شحوب . ودخلت احدى اليدين فى جوف القلنسوة بأكملها . ثم هوى

« بوليكي » على ركبتيه ، واستوقف الجواد ، وراح يبحث في العربى ، منقبا بين أنقش ، وبين الأشياء التى كان قد ابتاعها .. متحسسا معطفه وسرواله .

ولكن .. لم يكن ثمة أثر للنقود !

وشرع يزأر ، وهو يشد شعره : « يا للسموات ! ما معنى هذا ؟ .. ما الذى سيحدث الآن ؟ » .. ثم فطن الى أنه قد يشاهد ، فحول وجه الجواد نحو الطريق الذى اتى خلاله ، وأحكم قلنسوته على رأسه ، ثم ساق « الطبل » عائدا من حيث أتى ، والجواد مشدوه مستنكر ، ولا بد أنه كان يقول لنفسه : « ليس بوسعى أن أخرج ثانية مع بوليكي .. لقد عنى باطعامى وسفائيتى أتم عناية ، لمرة واحدة فى حياته ، ثم لم أحظ منه بغير الخداع الذى لا يسر النفس ! .. لكم أجهدت نفسى فى الجرى أثناء العودة ، حتى اشتد بى التعب ! .. ومع ذلك ، فأننى لم أكد أصبح على قيد خطوات من العلف ، حتى شرع يسوقنى راجعا بى ! »

أما بوليكي ، فقد راح يصيح فيه ، خلال الدموع : « هيا أيها الحصان المنهوك القوى ! » . ووقف منتصبا فى العربى ، يشد عنان « الطبل » فى عنف ، وينهال عليه ضربا بالسوط !

(١٠) بوليكي ! .. أين بوليكي ؟

♦ لم ير أحد « بوليكي » فى (بوكروفسك) طيلة ذلك اليوم . وقد سألت السيدة عنه مرارا بعد الغداء ، واندفعت « اكسيوتكا » كالاعصار الى « اكولينا » ، ولكن « اكولينا » قالت أنه لم يعد بعد ، لعل التاجر الذى كان يبتاع خضر البستان قد عطله عن العودة ، أو لعل شيئا قد جرى للحصان .. واردفت قائلة : « ليت له لم يصب بالعرج ! .. لقد قضى » مكسيم « يوما بأكمله فى الطريق — عندما ذهب به فى المرة



السالفة - واضطر الى ان يقطع المسافة كلها على قدميه ،
في العودة ! »

وولتها « اكسيوتكا » ظهرها ، وعادت وهي تحرك بندوليتها ،
بينما أخذت « اكولينا » في ابتكار الاعذار التي تبرر غياب
زوجها ، لتطامن من هواجس نفسها . ولكن ، دون جدوى !
.. كان قلبها مثقلا ، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضية
فيما كانت تتخذ من استعدادات للعيد الذي كان مرتقبا في
اليوم التالي . وضاعف من ألمها أن زوجة النجار راحت تؤكد
لها أنها رأت بعينها « رجلا يشبه بوليكني تماما ، مقبلا في
عربة ، ثم ولي راجعا » .. كذلك راح الاطفال يرتقبون « بابا »
في لهفة وصبر نافذ ، وان اختلف حافزهم عن الحافز الذي
كان يثير قلق أمهم . فان غيابه حرم « آني » و « ماري » من
جلد الغنم ومن السترة الثقيلة ، وهما اللذان كانا يمكنهما
من أن يقوموا بجولات خارج البيت ، فلم تعودا تملكان سوى
أن تجرياً في دورات سريعة قصيرة ، حول البيت . ولم تكن
المضايقات - التي ترتبت على ذلك - قليلة ، بالنسبة لجميع
من كانوا يقطنون مساكن الرقيق . ولقد ارتطمت « ماري »
مرة - وهي تجري - بساقى زوجة النجار التي كانت تحمل
ماء بين يديها .. ومع أنها بدأت تعول مستبقة العقاب - بمجرد
أن اصطدمت بركبتي المرأة - إلا أن هذا لم يعفها من الضرب

وجذب الشعر ، مما جعلها تزداد صراخا . . أما اذا لم ترتطم بأحد ، فانها كانت تندفع من الخارج مارقة خلال الباب ، وتبادر الى امتلاء وعاء لترقى الى قمة القرن !

ولم يكن ثمة من راح يعاني القلق حقا - من أجل بوليكي - سوى السيدة و « اكولينا » . . أمه الاطفال ، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب !

ولم تكن السيدة تكف عن سؤال ايجور ميخيلوفيتش : « ألم يحضر بوليكي بعد ؟ » . . أو : « ترى اين يحتمل أن يكون ؟ » . فكان يجيبها وكأنه مفتبط لان ما توقعه قد تحقق : « لست أدري » . . ثم كان يضيف في لهجة ذات معنى : « كان الواجب أن يكون هنا حوالى الظهر ! »

لم يسمع أحد شيئا عن « بوليكي » طيلة اليوم ، اللهم الا ما عرف - في أواخر النهار - من أن بعض فلاحى المناطق المجاورة ، قد رأوه يجرى فى الطريق عارى الرأس ، يسأل كل من كان يصادفه عما اذا كان قد عثر على خطاب ما . وراه رجل راقدا على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها الى شجرة . وقال الرجل : « لقد حسبته سكرانا . وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين ، أذ كان جنباه متهللين ! »

ولم تنم « اكولينا » الليل طوله ، بل ظلت ساهرة ، مرهفة السمع . ولكن « بوليكي » لم يعد . ولو أنها كانت بمفردها ، أو لو أنها أوتيت طاهية أو خادمة ، لشعرت بمزيد من التعاسة ، ولكن اولادها كانوا يلهونها أحيانا عن هواجسها . وما ان صاحت الديكة ، واستيقظت زوجة النجار ، حتى اضطرت « اكولينا » الى النهوض ، والى اشعال النار ، فقد كان اليوم عيدا . . وكان لا بد من انصاج الخبز واخراجه من الفرن

قبل ان يطلع النهار ، وكان لا بد من اعداد الحجة ، ومن خبز
الفتائر ، ومن حلب البقرة ، ومن كى الثياب والاقمشة ، ومن
تنظيف الاطفال ، ومن اجتلاب الماء الى «الركن» ، ومن الحيلولة
دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله . . ومن ثم شرعت «اكوليننا»
في العمل ، وهى لا تزال ترهف سمعها . . ولكن النهار ازداد
ضياء ، وأخذت أجراس الكنيسة تدق ، واستيقظ الاطفال
. . ولم يعد بوليكي بعد !

وكانت بوادى الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق ، وتساقط
بعض الجليد وتراكم فى أكوام صغيرة فى الحقول ، وعلى الطريق
واسقف الدور . ولكن الجو كان بديعاً ومشمساً ، رغم
الصقيع ، فى ذلك اليوم . وكأنما كانت الطبيعة تمجد العيد
. . وفى هذا الجو الصحو ، كان بوسع المرء أن يمد بصره فىرى
على مسافة بعيدة ، ويسمع الاصوات عن بعد . ولكن «اكوليننا»
— التى كانت تقف بجوار الفرن — راحت تدفع رأسها خلال
الباب ، وهى منومة فى اعداد الفتائر . . ومع ذلك فانها لم
تسمع بوليكي — وهو يصل بالعربة — وانما عرفت من صيحات
الاطفال أن زوجها قد عاد

كانت « آنى » قد ضمخت شعرها بالزيت ، وتهيأت دون
معوثة أحد ، بوصفها الابنة الكبرى . وكانت ترتدى ثوباً من قماش
منقوش ، جديداً ولكن المكواة لم تسر عليه . . منحة عن
السيدة . وكان مشدوداً وكأنه مصنوع من الياف الشجر .
مما غبطها عليه الحيران . وأخذ شعر الصبية يلتمع ، اذ كانت
قد أذابت لتضميخه نصف بوصة من شحم الشموع . بينما
غابت قدمائها فى حذاءين رقيقين ، وأن لم يكونا جديدين . .
أما « ماري » فكانت لا تزال ملتفة فى سسترة قديمة ، وقد
تلطخت بالوحل ، فلم تدعها « آنى » تدنو منها خشية أن
يتسخ ثوبها . ومن ثم فقد مكثت « ماري » خارج الركن ،
فراحت أباهما وهو يقبل فى العربة ، ومعه كيس كبير . وصرخت :

« بابا جاء ! » ، واندفعت خلال الباب الى الخارج ، مارة بآني - التي خفت لترى ما جعل اختها تصرخ - ملطخة لها ثوبها . ولم تعد « آني » تحفل بالحيلة ، بعد أن اتسخ الثوب ، فانقضت عليها وضربتها . ولم يكن بوسع « أكوлина » أن تبرح مكانها ، فلم تملك سوى أن صاحت في البنتين : « وبعد ؟ .. لسوف أسوطكما معا ! » . والتفتت نحو الباب ، فإذا بوليكي يدخل من الباب الخارجي ، حاملا كيسا ، فيسير الى (ركنه) مباشرة . ولاح لأكوлина أنه كان شاحبا ، وبدأ لها من وجهه أنه اما كان ينتسم ، ولما كان يبكي .. ولكنها لم تجد وقتا كي تكتشف أى المداين كانت حاله .

وصاحت تسأله ، وهي في مكانها أمام الفرن : « أكل شيء على ما برام يا بوليكي ؟ » . فغمغم بوليكي بكلمات لم تستبناها .. وعادت تصيح : « اه ؟ .. هل ذهبت الى السيدة ؟ » . وجلس بوليكي على السرير في ركنه ، يتأمل ما حوله بنظرات طائشة ، وهو يبتسم ابتسامة تيم عن الذنب .. ابتسامة تعسة ، مفرطة التعاسة . وتناهى اليه صوت أكوлина ، تساءل : « ماذا يا بوليكي ؟ .. لماذا اطلت الغياب ؟ » . فقال فجأة : « أجل يا أكوлина ، لقد أسلمت السيدة نفوذها .. وكم شكرتني ! » . وشرع يتلفت حوله ، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارتباك .

شيئان اجتذبا نظراته المحمومة : الطفل الرضيع ، والحيال التي كانت مدلاة من المهد المعلق . ونهض فسار الى حيث كان المهد معلقا ، وشرع يفك بعجلة عقدة حبل منها ، بأصابعه النحيله . ثم استقرت عيناه على الرضيع . ولكن « أكوлина » دخلت في تلك اللحظة ، حاملة صحفة الفطائر ، فأسرع بوليكي الى إخفاء الحبل في صدره ، وجلس على السرير .

وتساءلت أكوлина : « ماذا بك يا بوليكي ؟ .. انك لست في حالك الطبيعية ؟ » . فأجابها : « لم أنم ! » . وفجأة ، مرق

شيء بجوار النافذة . وان هي الا لحظة حتى اندفعت « اكسيوتكا »
 - الخادم التي من « فوق » - كالسهم . وقالت : « السيدة
 تأمر بوليكي بأن يأتي في هذه اللحظة .. هذه اللحظة ..
 افدوشيا نيكولايفنا تقول : هذه اللحظة ! » . فنظر بوليكي
 الى « اكوليننا » ، ثم الى الفتاة ، وقال : « ها أنذا قادم . ترى
 ما الذي تريد ؟ » . قالها ببساطة ، فهدأت وساوس اكوليننا .
 ثم استطرذ : « لعلها تريد أن تكافئني .. قولي لها انني قادم ! »
 ونهض فخرج . وتناولت « اكوليننا » وعاء الاستحمام
 فوضعتة على مقعد خشبي ، وملأته بالماء من الدلاء التي كانت
 الى جوار الباب ، ومن الرجل الذي كان في الفرن ، ثم شممت
 عن ساعديها ، ولمست الماء لتتعرف مدى حرارته . وقالت :
 « تعالي يا ماري ، سأغسل لك جسمك ! » . فشرعت البنية
 الصغيرة - الحولاء اللثغاء - في الانتحاب . وصاحت اكوليننا :
 « تعالي ايتها الشريرة ! سأغسل لك جسمك ، فلا تبثري
 ضجة ولا ضوضاء .. هيا ، فلا يزال أمامي أن أنظف أخاك ! »

في تلك الاثناء ، لم يكن « بوليكي » قد تبع الخادم الموفدة
 من « فوق » ، وانما سعى الى مكان آخر .. فالى جانب
 الجدار - في الردهة - كان ثمة سلم يفضي الى الفراغ الذي
 تحت السقف مباشرة . فلما بارح « بوليكي » مسكنه ، تلفت
 حوله ، حتى اذا لم ير أحدا ، أحنى ظهره ، وتسلق ذلك السلم
 بسجلة ، وخفة ، فكانه كان يجري فوقه .

وتساءلت السيدة في صبر نافذ ، موجهة الخطاب الى
 « دنياشا » التي كانت ترجل لها شعرها وتنسقه : « ترى ما
 الذي جعل بوليكي لا يأتي حتى الآن ؟ .. أين بوليكي ؟ لماذا لم
 يأت ؟ » .. ومرة أخرى ، انسابت « اكسيوتكا » الى مساكن
 الرقيق ، واندفعت داخلية ، وهي تنادي بوليكي كي يوافي

مولاتها . فردت اكوлина التي كانت قد فرغت من « ماري » ، ووضعت ابنها الرضيع لتوها في حوض الغسيل ، وبدأت تبلل شعره الخفيف القصير ، غير حافلة ببكائه : « عجباً .. لقد ذهب منذ فترة طويلة » . وصرخ الطفل ، وتقلصت عضلات وجهه ، وراح يحاول أن يتشبث بشيء ما ، يديه الصغيرتين الواهنتين . فوضعت اكوлина إحدى يديها تحت ظهره الناعم ، والبض ، الطرى ، وراحت بالآخرى تفسل جسمه ، وهي تقول متلفتة في قلق : « ابحثى عنه خشية أن يكون قد استسلم للنوم في مكان ما ! »

وفي تلك اللحظة ، كانت زوجة النجار قد صعدت مشعثة الشعر ، دون أن تحكم ضم أطراف أزارها ، الذي رفعت ذيله عن الأرض بيدها - إلى الفراغ الذي يلي السقف مباشرة ، حيث كانت قد علقت بعض الثياب لتجف . وضحجة ، ملأت ذلك الفراغ صرخة دعر ، وهبطت زوجة النجار كالمنخولة ، وقد أغمضت عينيها ، وكادت لفرط اسراعها تنزلق على السلم انزلاقاً .. وصرخت : « بوليكي ! » .. وإفلتت اكوлина طفلها من بين يديها ، بينما راحت زوجة النجار تصرخ : « لقد شئني نفسه ! »

واندفعت اكوлина الى الردهة ، غير حافلة بالرضيع الذي تقلب في الحوض ، ثم وقع وساقاه في الهواء ، ورأسه تحت الماء ! .. وكانت زوجة النجار تقول : « انه مدلى .. من إحدى العارضات الخشبية ! » . ولكنها أمسكت حين رأت « اكوлина » .

واندفعت « اكوлина » صاعدة السلم . وقبل أن يمسك بها أحد ، كانت قد بلغت قمته . ولكنها سرعان ما هوت من هناك ، وقد أرسلت صرخة رهيبة ، ولولا أن تلقفها القوم الذين أقبلوا مهرعين من كل ركن ، لكانت قد لقيت حتفها !



(١١) ضحكات في « ركن » بوليكي !

♦ لم يكن من سبيل الى تمييز شيء خلال الضجيج العام ،
 لعدة دقائق . فقد تجمع حشد من القوم راحوا يصرخون
 ويكلمون ، واخذ الاطفال والعجائز يكون . بينما كانت
 اكولينا مستلقية فاقدة الرشد . واخيرا ، صعد رجلان -
 النجار ووكيل الاعمال ، الذي كان قدهرع الى المكان - درجات
 السلم . وشرعت زوجة النجار تروى - للمرة العشرين -
 كيف انها لم تكن ترتاب في شيء ، اذ صعدت لتحضر ثوبا لها
 .. « ونظرت حولى هكذا .. ورأيت .. رجلا ! ونظرت مرة
 أخرى .. كانت ساقاه متدليتين . وتثلج كل جسمي ! ..
 افهو أمر بديع ؟ تصوروا رجلا شقق نفسه ، وتصوروا أن
 اكون أنا التي قدر لها أن تراه ! .. أما كيف هبطت بسرعة ،
 فهذا ما لست أذكره ! .. انها لمعجزة أن صان الله حياتي !
 الحق أن الرب كان رحيمًا بى ! .. اهو أمر هين ؟ أن أقفز من
 مكان على مثل هذا الارتفاع . كنت خليقة بأن أهوى قتيلة ! »
 وأقبل الرجلان اللذان صعدا السلم ، بعين القصة ..
 كان بوليكي مدلى من احدى العارضيات ، بالجبل الذي أخذه
 من المهد ، وهو في قميصه وسرواله . وكانت قلنسوته مقلاوبة ،
 باطنها الى الخارج ، وملقاة بجواره .. بينما كان معطفه وجلد

الفنم مطويين في تناسق وعناية ، على مقربة . وكانت قدماه تمسان الأرض ، ولكن أى أثر للحياة لم يكن يسندو عليه . واستردت أكولينا وعيها ، فعادت تندفع نحو السلم ، ولكنها صدت عنه . وفجأة ، صاحت الصبية اللثغاء من « الركن » : « ماما .. لقد غلق (أى غرق) سيمكا ! » . وانتزعت أكولينا نفسها من أيدي المسكين بها ، وجرت الى « الركن » .. كان الطفل ملقى على ظهره في الحوض ، لا يحير حراكا ، وقد جمد ساقاه عن كل حركة . فانتزعته أكولينا من الحوض ، ولكنه لم يتنفس ، ولم يتحرك .. وألقته على السرير ، وانطلقت - وهى معقودة الذراعين على صدرها - بتضحك مرتفع ، ثاقب ، رهيب .. حتى أن « ماري » - التى ضحكت هى الأخرى - في بادئ الامر - غطت أذنيها بكفيها ، وهرعت خارجة الى الردهة ، وهى تصرخ باكية !

وتقاطر الجيران على « الركن » معولين باكين ، فحملوا الطفل الى الخارج ، وبدأوا يدلكون جسمه ، ولكن .. دون جدوى . وكانت « أكولينا » تتقلب على الفراش وهى تضحك .. تضحك بشكل بث الذعر في نفوس كل من سمعوها ! .. وما كان المرء ليتبين عدد المقيمين في مساكن العبيد ، ولا أى نوع من الناس هم ، الا في مثل هذه الآونة ، وقد تراحم الرجال والنساء .. كانوا جميعا في هرج ، يتكلمون في وقت واحد ، وكثير منهم راحوا يبيكون ، ولكن أحدا لم يقم بعمل يناسب الموقف .. وكانت زوجة النجار لا تزال تجد أناسا لم يسمعوا قصتها عن الصدمة التى أصابت مشاعرهم الرقيقة ، عندما وقع بصرها على المشهد غير المرتقب ، وكيف حفظها الله فلم تقع من قمة السلم .. وراح كهل القى على كتفيه سترة امرأة - وقد كان يوما خادما خاصا للسيد - يروى كيف أن امرأة أفرقت نفسها في بركة ماء ، ذات يوم ، في عهد السيد السابق .. وأوفد وكيل الأعمال رسلا الى القس وإلى « كونستابل » .

البوليس ، كما اقام رجالا على حراسة الجثة .. وظلت
 ((أكسيوتكا)) - الخادم التي من ((فوق)) - تحمق في الفتحة
 المفضية الى الفراغ الذي يلي السقف ، بعينين جامدتين ، دون
 أن ترى شيئا ، ودون أن تقوى - كذلك - على أن تنتزع
 نفسها من موقفها ، وتعود الى مولاتها .. وكانت « أجاثا
 ميخايلوفنا » - التي كانت وصيفة لصاحبة الضيعة السابقة -
 تبكى وتطلب بعض الشئ لتهديء أعصابها ! .. أما « آنا »
 القابلة (الداية) فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة ،
 وقد نضحت يديها البضتين ، المدربتين ، بزيت الزيتون .
 بينما وقفت نسوة أخريات حول « اكولينا » يحملقن فيها
 ضامئات !

وانكمشت البنات الصغيرات معا في الركن ، ورحن يسترقن
 النظر الى أمهن ، ثم انطلقن في الصويل . وما لبثن أن هذان
 لحظة ، ونظرن الى أمهن ، ثم ازددن انكماشا وتماسكا ..
 وانتشر الرجال والعلمان خارج المبنى ، وهم ينظرون الى
 الباب والنوافذ ، وقد تجلى اللعير على أساريرهم ، وان لم
 يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئا ، فراح كل منهم يسأل
 الآخر عما جرى ! .. فقال واحد أن النجار اجتث قدم زوجته
 ببلطة .. وقال آخر أن الفسالة قد حملت الى فراشها ، حيث
 وضعت ثلاثة توائم .. وقال ثالث أن قط الطاهية قد أصيب
 بلوثة فعرض عددا من الناس . على ان الحقيقة لم تلبث أن ذاعت
 تدريجا ، حتى صعدت - في النهاية - الى سيدة الضيعة .
 ولاح أن أحدا لم يكن يدرك كيف يعلنها اليها . ولكن « ايجور »
 الجلف فاجأها بالحقائق مباشرة ، فاضطربت أعصاب السيدة ،
 وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد جاشها . وكان القوم
 المتجمعون في أسفل الدار قد بدأوا يهدأون ، وأشعلت زوجة
 النجار النار تحت الغلاية ، لتعد بعض الشئ ، فلما لم توجه
 دعوة الى الدين لم يكونوا من المقيمين في مساكن الرقيق ،

انصرفوا وقد راوا أن ليس من اللياقة أن يبقوا . واخذ الغلمان يتصارعون خارج المبنى .

وكان كل امرئ قد عرف جلية الامر ، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم ، وينفضون ، حين دوت فجأة صرخة عالية : « السيدة ! .. السيدة ! » . وتزاحم كل من في الحشد ، ليفسحوا لسيدة الضيعة طريقا ، وان راح كل منهم - في الوقت ذاته - يحاول أن يرى ما هي فاعلة .. وولجت السيدة الردهة بوجه شاحب لطخته الدموع ، فاجتازت عتبة « ركن » أكولينا ، ودخلت عليها .. وتلاصقت عشرات الرؤوس وتزاحمت لتنظر خلال الباب . واشتد الضغط على امرأة حبلى ، حتى اضطرت الى أن تطلق صرخة عالية ، ولكنها انتهزت هذا الظرف ، لتظفر لنفسها بمكان أمين في الصف الاول .. وكيف كان لاحد أن يتمالك نفسه من الرغبة في أن يرى سيدة الضيعة في « ركن » أكولينا ؟ .. كان الامر - بالنسبة لرقيق الدار - أشبه بالاضواء الملونة التي تنار في نهاية أى استعراض ! .. وكما أن اشعال نيران ملونة عمل عظيم ، يشير الى مناسبة جليلة ، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة - في ثيابها الحريرية الموشاة بالدانتيل - في « ركن » أكولينا !

وتقدمت السيدة ، فأمسكت يد « أكولينا » ، ولكن أكولينا جذبت يدها من قبضتها ، فهز العبید المسنون رؤوسهم في استهجان ، بينما قالت السيدة : « أكولينا ! .. ان أولادك بحاجة اليك ، فاحرصي على نفسك » . ولكن « أكولينا » انفجرت مقهقهة ، ونهضت قائلة : « ان أولادى كلهم من الفضة ، الفضة الخالصة ! .. فلست احتفظ بنقود ورقية ! » . ثم تمت في عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتندغم : « انني

فلت ابوليكي : « لا تأخذ نقودا ورقية ! » .. وها هي ذى النتيجة .. لقد لطخته بالقار .. بالقار والصابون يا سيديتى ! .. فان القار والصابون يخلصانك من أى جرب يلحق بك ، فى الحال ! » .. وازدادت قهقهتها ارتفاعا !

وتحولت السيدة عنها ، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فورا ، وبأن يحضر معه لاصقات (لبخات) من الخردل . وقالت : « احضروا بعض الماء البارد ! » . وشرعت بنفسها تبحث عنه ، ولكنها أشباح فجأة ، اذ رأت الطفل الميت مع القابلة العجوز « آنا » . ورأى الجميع كيف أخفت وجهها فى منديلها ، وانفجرت باكية .. ومما يؤسف له أن السيدة لم تر ما كانت الجدة « آنا » تفعل ، فانها كانت قميئة بأن تقدره ، لا سيما وأنه كان من أجل خاطرها هي .. فقد غطت الطفل بقطعة من الكتان ، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدينتين ، وهزت رأسه ، وعبست ، ثم أرخت جفنيه على عينيه ، وتهدت وقد شعرت بأن كل امرئ رأى - فى عملها - مدى طيبة قلبها ! .. ولكن السيدة لم تر شيئا من هذا ، لانها لم تقو على أن ترى أى شئ على الاطلاق . فقد راحت تبكى فى نشيبيج هيسيتيرى !

وأسرعت الايدي تعينها على الوقوف والسير ، واقتيدت الى خارج المكان ، ثم الى دارها . وقال كثيرون لانفسهم : « اهذا كل ما يرى منها ؟ » . ثم عادوا ينفضون ويتفرقون . وظلت « اكولينا » سادرة فى ضحكها وهذيانها . وما لبثت أن نقلت الى حجرة أخرى ، حيث حجمت ليسيل الدم المفسود من رأسها ، ثم كسيت الجراح بلصقات الخردل ، ووضع ثلج على رأسها . ومع ذلك فانها لم تثب الى رشدها ، ولم تبك ، بل ظلت تضحك وتأتئ من الافعال والاقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة - الذين عنوا بها - انفسهم من أن يضحكوا هم الآخرون !



(١٢) ليلة رهيبية في الأضيعة !

• لم يكن العيد بهيجا في (بوكروفسك) . ومع أن اليوم كان جميلا ، إلا أن القوم لم يخرجوا للهو والنزهة ، ولم تردد الفتيات الاغاني في الشارع ، ولم يعزف عمال المصنع - الذين أقبلوا من المدينة ليقضوا ذلك اليوم بين أهلهم - على « الكونسرتينا » ولا على « البلاليكا » (١) ، لا ولم يلعبوا مع الفتيات . وانما جلسوا جميعا في الاركان واجمين ، فاذا تكلموا كان حديثهم خافتا ، وكأنما هناك روح شريرة تتصنت اقوالهم . ولم يكن الامر بالغ السوء أبان النهار ، ولكن .. ما أن هبط الليل ، وشرعت أكلاب نعوى - وقد زاد الامر سوءا أن هبت ريح راحت تولول خلال المداخل - حتى تملك القوم جميعا خوف طاغ ، دفع الذين كانوا يملكون شهوة إلى أن يشعلوها أمام أيقوناتهم . واضطر كل من تصادف أن كان وحيدا في « ركنه » إلى أن يسعى إلى جيرانه يسألهم الاذن ليملك الليل معهم ، ليتخفف من الوحشة . . . وأى امرئ كان عمله يقتضيه أن يذهب إلى الحظائر ، أبى أن يخرج ، وآثر أن يدع الماشية بلا علف - في تلك الليلة - غير مشفق عليها . . . كما أن الماء المقدس - الذي كان كل امرئ يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرد كل سوء ، استهلك عن آخره خلال الليل !

(١) الكونسرتينا والبلاليكا من الآلات الموسيقية الشائعة في روسيا

ومع ذلك فما أكثر من سمعوا شيئاً يسير في الفراغ - الذي يلي السقف مباشرة - بخطي ثقيلة . . وشاهد الحداد ثعبانا يطير نحو هذا المكان مباشرة ! . . اما « ركن » بوليكي فلم يكن يعمره أحد ، فقد نقل الاطفال والمرأة المجنونة الى مكان آخر . ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت راقدا هناك ، وقد جلست عجوزان سساهرتين عليه ، بينما كانت امرأة نالثة . . « حاجة » (١) تتلو المزامير ، مدقوعة بحرارة تقواها ، لا من أجل الطفل ، وانما بشعور مبهم بالنكة التي حاقت بالجميع . . فهكذا ارادت سيدة الضيعة . ولقد سمعت « الحاجة » والمرأتان العجوزان ، كيف أن عارضات السقف الخشبية كانت تهتز ، كما كان ينبعث آنين متوجع ، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب « المزامير » . واذا ذلك كن يهتفن : « ليقيم الرب ! » ، فاذا بكل شيء يهدأ من جديد .

ودعت زوجة النجار صديقة لها ، فلم تناما ليلتهما طولها ، بل شربتا كل الشاي الذي كانت قد أعدته للأسبوع كله . وسمعتا - هما الاخريان - كيف ان العارضات كانت تتر فوق رأسيهما ، كما سمعتا جلبة وكان أكياسا كانت تتساقط تباعا . ولقد امان وجود الحراس انفلاحين على استبقاء شجاعة أهل مساكن الرقيق بعض الشيء ، والا لكانوا قد ماتوا خوفا في ذلك الليل . . وكان الفلاحون ينامون على بعض القش في الردهة ، وقد ذكروا - فيما بعد - أنهم سمعوا هم الآخرون أمورا عجيبة في الفراغ الذي يلي السقف ، وان كانوا - اذ ذلك - يتحداثون في هدوء تام عن التجنيد ، ويهضغون لقما من الخبز ، ويحكون أجسادهم ، و - فوق كل شيء - يملأون الردهة برائحة غثة عرفت عن الفلاحين ، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت - اذ تصادف أن مرت بالقرب

(١) « الحاجة » امرأة تصطنع اللوثة الدينية ، فتعتبر من الاولياء ، وتسمى « حاجة » ، ولو لم تكن قد زارت الاراضي المقدسة

منهم — ونعتتهم بأنهم « فروخ الفلاحين » !
 ومعهما يكن الامر ، فإن الميـت ظل معلقا في الفراغ الذي يلي
 السقف . ولاح كأنما خيمت روح الشر ذاتها على مساكن
 الرقيق ، باسطة جناحيها الهائلتين ، في تلك الليلة ، مبدية
 قوتها وسلطانها ، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط
 من قبل ! .. هكذا شعروا جميعا . ولست أدري ما اذا كانوا
 على صواب ، بل اننى لاراهم كانوا في خطأ مبين . واعتقد انه
 لو كان قد قدر لشخص على شيء من الجرأة أن يأخذ شمعة
 أو مصباحا في تلك الليلة الرهيبة ، وأن يرسم على صدره
 علامة الصليب — بل وبدون أن يرسم الصليب — فصعد الى
 ما تحت السقف ، وبدد رهبة الليل رويدا — خلال تقدمه
 بنلشمة — ملقيا الضوء على العارضات الخشبية ، وعلى
 الرمل ، وعلى أنبوبة المجارى المكسوة بنسيج العنكبوت ، وعلى
 لفافات العنق التى خلفتها زوجة النجار وراءها . ووصل
 الى « بوليكي » ، فغالب مخاوفه ورفع المصباح الى مستوى
 وجهه ، لراى عين الشكل النحيل ، وقد مست القدمان الارض
 لان الجبل ارتخى ، ومال الجسم جانبا وقد خلا من الحياة . .
 ولا صليب تحت القميص ، وقد سقط الرأس على الصدر . .
 ولراى الوجه الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا ابصار ،
 والابتسامة التى تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب ، وهدوا
 ساجيا ، وصمما يسيطر على كل شيء . . والواقع أن زوجة
 النجار كانت أكثر بشاعة وارهبا من بوليكي — رغم أن صليبه
 كان بعيدا عن جسمه ، وملقى على احدى العارضات — لا سيما
 وهى تنكمش في ركن من سريره ، بشعر مشعث ، وعينين
 مغممتين بالذعر ، وقد راحت تروى كيف أنها سمعت ضجيج
 أكياس تتساقط !
 و « فوق » .. أى في دار السيدة ، سيطرت عين الرهبة

التي سادت مساكن الرقيق . وكان مخدع السيدة نفسها معبقا برائحة « الكولونيا » والادوية ، بينما راحت « دنياشا » تصهر شمعا أصفر ، لتعد لاصقة « لبخة » . أما السبب الذي من أجله كانت هذه اللاصقة ، فهذا ما لست أدريه ، وأن كنت أعلم أن اللاصقات كانت تصنع عادة عندما تكون السيدة متوعدة . وقد كانت في تلك الليلة بالغة الاستياء ، حتى لقد حل بها المرض . ولقد أقبلت عمه « دنياشا » لتمكث الليل معها ، حتى تشد أزرها . ومن ثم فقد كانت في غرفة الوصيصة أربع ، رحن يتكلمن بأصوات خافتة : دنياشا ، وعمتها ، والوصيفة الثانية ، وأكسيوتكا .. وما لبثت « دنياشا » أن تسألت : « من منكن تذهب لتحضر بعض الزيت ؟ » . فقالت الوصيصة الثانية في حزم واصرار : « ما من شيء يفرني على الذهاب »

— هراء ! .. اذهبي مع أكسيوتكا !
 فقالت أكسيوتكا : « سأهرع وحدي ، فلست خائفة من شيء ! » . بيد أنها لم تكذ تفرغ من قولها ، حتى شعرت بخوف طارئ ! بينما قالت دنياشا : « حسن .. اذهبي اذن يا عزيزتي الى الجدة آنا ، وسئليها ان تعطيك بعض الزيت في قَدَح ، واحضريه الى هنا ، ولا تسكبي منه شيئا ! »

ورفعت « أكسيوتكا » ذيل ثوبها باحدى يديها . واذ حال هذا دون تارجح ذراعيها معا كالبندولين ، فانها راحت تحرك ذراعا واحدة بعنف مخساعف ، في خط متعامد على خيط سيرها ، وهي تندفع ! وكانت خائفة .. وخيل اليها أنها قمينة بأن تموت ذعرا اذا هي رأت أو سمعت شيئا ، ولو كان هذا الشيء أمها التي كانت على قيد الحياة .. ومرقت في طريقها المألوف ، وهي مغمضة العينين !



(١٣) فلاح يقتحم مخدع السيدة !

♦ وفجأة ، انبعث على مقربة من اكسيوتكا صوت ريفي عميق ، متسائلا : « هل السيدة نائمة أو غير نائمة ؟ » .
 ففتحت الفتاة عينيها - اللتين كانت تغمضهما - ورأت أمامها جسما خيل اليها أنه أكثر ارتفاعا من الدار كلها . فصرخت وارتدت عائدة بسرعة هوجاء ، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها في الهواء . وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل ، وبقفزة أخرى كانت في غرفة الوصيفة ، حيث ارتمت على سرير وهي ترسل صراخا ضاريا . وأوشكت دنياشا وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعبا . وقبل أن يتمالكن حواسهن ، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة مترددة ، في الردهة ، انتهت أخيرا عند بابهن . واندفعت « دنياشا » الى مخدع مولاتها والشهيم المصهور يتناثر من بين يديها ، واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر . أما العمة - وكانت أقوى منهن شخصية - فقد همت بأن تدفع الباب المؤدى الى الردهة ، وتحكم اغلاقه . ولكن الباب فتح - في تلك اللحظة - وولج فلاح الحجرة ! ولم يكن القادم سوى دوتلوف بجدايه الشبيهين بالقارين ! .. وراح يتلفت حوله باحثا عن ايقونة ، دون أن يحفل بما استولى على من كن في حجرة الوصيفة من مخاوف . واذ لم يره الايقونة الصغيرة التي كانت في الركن الايسر من الحجرة ،

وقف امام صوان كانت اوانى الشاي واقداحه تحفظ فيه ، ورسم على صدره علامة الصليب . ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة ، ودس يده فى صدر معطفه ، وراح يدفعها موغلا ، وكأنه يريد أن يحك جلده ، تحت الابط . وما لبث أن أخرج المظروف الذى كان يحمل خمسة أختام بالشمع البنى ، يحمل كل منها رسم مرساة (هلب) !

وضغطت عمة « دنياشا » قلبها بيدها ، ثم راحت تناضل ، حتى انتزعت الكلمات بعناء ، قائلة : « لعمري ! .. لقد أوقعت الذعر فى نفسى حقا ، حتى اننى لا أقوى على أن أنطق بك .. كلمة ! لقد ظننت أن لحظتى الاخيرة قد حانت ! » .. وصاحت الوصيفة الثانية ، وهى تبرز من وراء الستائر : « أفهكذا يتصرف الناس ؟ » .. وقالت « دنياشا » ، وهى تخرج من مخدع مولاتها : « لقد انزعجت السيدة نفسها . فما الذى تقصده اذ تقتحم الدار من مدخل الخادما ، دون ما استئذان ؟ .. يا لك من فلاح جلف ! »

ولم يحاول « دوتلوف » أن يلتبس لنفسه الاعتذار ، بل قال أنه راقب فى أن يقابل السيدة . فقالت دنياشا : « انها متوقعة الزواج ! » . وفى تلك اللحظة ، اطلقت « اكسيوتكا » ضحكا عاليا ، بدا أنها لم تكن تقو على كبجه ، حتى أنها اضطرت الى أن تدفن وجهها فى وسادة السرير . وظلت ساعة لا تقوى — رغم تهديدات دنياشا وعمتها — على أن ترفع وجهها فترة ، دون أن تنفجر فى الضحك ثانية ، وكأنما كان ثمة شيء يفجر الضحك فى صدر ثوبها الوردى المنقوش ، وفى شذقيها المضرجين بالحمرة . فلقد لاح لها أن من المضحك كل الاضحك أن يستولى الخوف على الجميع — الى هذا الحد — وراحت تدس رأسها فى الوسادة ، وتذق الأرض بحذاءيها ، وكل جسمها يهتز بعنف لفرط الضحك !

ووقف « دوتلوف » فى مكانه ، وراح يطيل النظر اليها بامعان،

وكانه يستوثق مما اصابها . ولكنه لم يلبث ان تحول عنها ، دون ان يكتشف سر ما بها ، وعاد يقبول : « الواقع ان .. الامر .. الامر على جانب عظيم من الاهمية . وليس عليك سوى ان تدخل الى السيدة ، فتقولى لها ان فلاحا وجد الخطاب انذى ضم النقود ؟ » . فتساءلت دنياشا : « أية نقود ؟ » . وقرات - قبل ان تحمل النبأ للسيدة - ما كان مكتوبا على المظروف ، وسالت دوتلوف عن المكان والزمان اللذين وجد فيهما النقود التى كان على « بوليكى » ان يحضرها من المدينة . حتى اذا استمعت الى كل شيء ، دفعت عن طريقها الخادم الصغيرة - التى كانت لا تزال تتلوى لفسرت الضحك - واقتصتها الى البهو الخارجى ، ثم دخلت الى سيدتها .

ودهش « دوتلوف » اذ آبت السيدة ان تستقبله ، ولم تقل لدنياشا شيئا معقولا . . فقد كان كل ما قالته : « لست أدري شيئا عن هذا الخطاب ، ولا أريد ان أعرف شيئا ؟ .. أى فلاح ؟ وأية نقود ؟ .. لا أستطيع ، ولا أريد ان أرى أحدا ! .. ليتركنى هذا الفلاح بنسلام ! »

وقال دوتلوف ، وهو يقلب المظروف بين يديه : « ما الذى ينبغى ان أفعل ؟ .. انه ليس بالمبلغ البسيط ! » . ثم سأل دنياشا : « ما الذى كتب عليه ؟ » . فعادت الفتاة تقرأ العنوان . . و « دوتلوف » فى ريب من امره ، وقد بقى فى نفسه شيء من الامل فى أن النقود قد لا تكون نقود السيدة ، وان العنوان لم يقرأ له كما ينبغى ان يقرأ . . ولكن « دنياشا » قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان ، فدس المظروف فى صدره وهو يتنهد ، وهم بالانصراف قائلا : « اعتقد أن على أن أسلمه الى ضابط البوليس » . فاستوقفته دنياشا قائلة : « مهلا ! .. سأحاول مرة أخرى » . . كانت قد عملت فكرها بعد أن اختفى

المظروف في صدر معطف الفلاح ، فلم تشأ أن تفسوت على سيدتها المبلغ ، وقالت : « هات هذا الخطاب ! » . فأخرج « دوتلوف » الخطاب ثانية ، ولكنه تردد برهة قبل أن يضعه في يد « دنياشا » المبسوطة . ثم قال : « قولى أن سمعان دوتلوف قد وجده في الطريق .. »
— حسنا .. هاته !

— لقد خيل الى أنه ليس ذا قيمة .. مجرد خطاب ! ولكن جنديا قرأ لي ما كتب عليه عن وجود نقود بداخله ..
— لا بأس .. اذن ، هاته !

فقال دوتلوف : « اننى لم أجسر على الذهاب الى أى مكان ، ولا الى بيتى قبل أن .. » ، وسكت لحظة ، ثم استطرد دون أن يتخلى عن المظروف الثمين : « قولى هذا للسيدة ! » .. وأخيرا ، أخذت دنياشا الخطاب منه ، ودخلت على مولاتها من جديد . فصاحت السيدة فى لهجة عاتبة : « أواه ، يا الهى ! .. لا تحدثينى يا دنياشا عن هذه النقود ! .. فقط تصورى ذلك الطفل الصغير .. ! » . وارتجفت وهى تتمثل ابن « اكولينا » الميت ، بينما عادت دنياشا تقول : « أن الفلاح لا يدرى لمن تريد أن يعطى هذا المبلغ يامولاتى ! » . وهنا فتحت السيدة المظروف ، فارتجفت لمراى النقود ، ووجمت فترة وهى شاردة البال ، ثم قالت : « يا للنقود البغيضة ! .. ما أكثر ما تحدث من آثام ! » . فقالت دنياشا : « ان دوتلوف هو الذى أحضرها يا مولاتى . فهل تأمرين بأن ينصرف ، أو تتكرمين بالخروج لكى تقابليه ؟ .. وهل النقود كاملة لم تمس ؟ » وفجأة ، قالت السيدة وهى تتلمس يد دنياشا لتتشبث بها . « لا أريد هذه النقود .. انها نقود رهبة ! ما أكثر ما فعلت ! أنبئيه بأن له أن يأخذها اذا شاء ! » . وراحت تردد على مسمع من دنياشا المذهولة : « أجل ، أجل ، أجل ! .. دعيه يأخذها بأكملها ، وليفعل بها ما يشاء ! » . وهتفت

دنياشا ، وهى تبتسم ، وكأنها تحايل طفلة : « ألف وخمسمائة روبل ؟ ! » . فصاحت السيدة بصبر نافذ : « دعيه يأخذها بأكملها ! .. كيف لا تفهمينى ؟ أنها نقود منحوسسة ، فلا تحدثينى عنها بعد الآن ! .. ليأخذها الفلاح الذى عثر عليها ! هيا ! »

وخرجت دنياشا الى حجرة الوصيفة ، فسألها دوتلوف : « هل وجدت المبلغ كاملا ؟ » . فأجابت دنياشا ، وهى تسلمه المظروف : « يحسن بك أن تحصيه بنفسك ، فقد أمرت بأن اسلمك اياه ! » . ودس « دوتلوف » قلنسوته تحت ابطه ، وانحنى الى الامام ، وشرع يحصى المبلغ . ثم تساءل : « هل لديكم عداد ؟ » (١) . فلقد خطر لدوتلوف أن السيدة كانت غبية لا تحسن العد ، وإن هذا هو الذى دعاها الى أن تأمره بعد النقود . ولكن دنياشا قالت بجفاء : « تستطيع أن تعدها فى بيتك .. فالنقود لك ! .. » . لقد قالت السيدة : لا أريد أن أراها ، فدعها للرجل الذى أحضرها ! » . وحمل « دوتلوف » فى دنياشا ، دون أن يقيم ظهره المنحنى ، بينما بسطت عممة الوصيفة راحتها ، وهتفت : « آه ، أيتها الام المقدسة ! اى حظ ساقه الرب لهذا الرجل ! آه ، أيتها الام المقدسة ! .. » . ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها : « ما أراك جادة يا افدوشسيا بافلوفنا .. انك تمزحين ! » . فقالت دنياشا ، دون أن تخفى استيائها : « أمزح ؟ ! حقا ! .. لقد أمرتني بأن أعطى الفلاح النقود .. هاك ، خذ النقود وامض ! .. مصائب قوم عند قوم فوائد ! » . فقالت العممة : « ما هذا مجال المزاح .. انها ألف وخمسمائة روبل » . فعقبت دنياشا قائلة : « بل هى أكثر ! » . ثم أردفت قائلة لدوتلوف فى سخرية : « يجب أن تقدم شمعة بعشرة كوبكات

(١) اطار خشبي تمتد بعرضه اسلاك فيها قطع من الغرز ، يستخدم لتعليم الأطفال العد . وكان استعماله شائعا بين فلاحى روسيا قديما

للقدیس نيقولا .. لماذا لا تثوب الى وعيك ؟ .. لو أن هذه النقود آلت الى رجل فقير .. ! ولكن هذا الرجل أوتى وفرة من المال ! »

وادرک « دوتلوف » أخيراً أن الامر لم يكن مزاحاً ، فشرع يجمع الأوراق المالية التي كان قد نشرها حوله ليحصيلها ، وأخذ يضعها في المظروف . بيد أن يديه كانتا ترتجفان ، وقد ظل ينظر الى الوصيفتين ليطمئن الى أنه لم يكن في الامر كله أى مزاح .. بينما راحت دنياشا تقول ، متظاهرة بأنها تحتقن الفلاح والمال معا : « أنظرن ! انه لا يكاد يعقل لفرط الفرح ! .. » .. دعنى اضع النقود لك في المظروف ! » . وهمت بأن تمسك بالأوراق المالية ، ولكن « دوتلوف » لم يدعها تصل اليها ، بل كور الأوراق معا ، ودفعها الى جوف المظروف ، ثم تسأول قلنسوته . فسألته دنياشا : « أمتهج أنت ؟ » . وأجاب : « لا أكاد أدري من أمرى شيئاً ! .. الواقع .. » . ولم يتم عبارته ، بل لوح بيده ، وابتسم ، وغادر المكان وهو يوشك أن يبكي !

وذقت السيدة الجرس ، ثم تساءلت : « هل أعطيتسه النقود ؟ » . فأجابت دنياشا : « أجل »

— وهل كان شديد الابتهاج ؟

— كان أشبه بمجنون

— آه ! .. أدعه ثانية ، فانى أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب . أدعه الى هنا ، فلست أقوى على مبارحة المخدع ! وهرعت دنياشا الى الخارج ، فوجدت الفلاح عند المدخل ، وهو لا يزال عارى الرأس ، وان كان قد أخرج كيس نقوده ، ووقف منحني القامة يفك رباطه ، بينما كان ممسكاً بمظروف النقود بين أسنانه .. ولعله تصور أن النقود لن تصبح ملكاً له ما لم تكن داخل الكيس . فلما نادته دنياشا ، اشتد به

الجزع ، وهتف : « ماذا جرى يا أفدوشيا .. أفدوشيا بافلوفنا ؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود ؟ .. الاتسطيعين أن تشفعى لى عندها ، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل البديع ؟ » . فقالت ساخرة : « حقا ! .. فما أكثر ما أحضرت ! » وفتح الباب مرة أخرى ، واقتيد الفلاح إلى السيدة ، وهو أبعد ما يكون عن الابتهاج . فقد راح يفكر فى سريره - وهو ماض خلال الحجرات ، رافعا قدميه أكثر مما ينبغى ، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول أن لا يسحقه بحذاءيه المصنوعين من اللحاء : « ويلاه ! لسوء تسترد النقود ! » . ولم يتبين شيئا مما كان حوله .. ومر بجوار مرآة ، فرأى زهورا ، وفلاحا فى حذاءين من اللحاء ، يرفع قدميه عاليا .. ثم رأى سيدا يضع على عينيه عوينتين (نظارة) ، فى رسم على الجدار .. ثم شيئا أخضر كأنه الحوض الخشبى ، وشيئا أبيض .. وفجأة ، بدأ الشيء الأبيض يتكلم ، فهو لم يكن سوى السيدة .. ولم يفقه دوتلوف شيئا ، بل اكتفى بأن راح يحملق أمامه ، دون أن يعرف أين كان ، وقد خيل إليه أن ضبابا يكتنف كل شيء !

— أهذا أنت يا دوتلوف ؟

— أجل يا سيدتى .. تماما كما كان ، لم أمنه .. أننى لم أكن مسرورا ، فليساعدنى الله ! .. لشدما أرهقت جوادى ، لأصل إلى هنا مسرعا !

فقالت السيدة فى ازدراء ، وإن بدت ابتسامتها رقيقة : « حسنا ، انه حظك ! .. خذه ، خذه لنفسك ! » . ودارت عيناه فى محجريهما ، بينما استطردت السيدة : « اننى لمسرورة اذ آل اليك المبلغ ، فليجعله الله ذا نفع لك ! أفسرور أنت الآن ؟ » . فأجاب مرتبكا : « وكيف لا أكون مسرورا ؟ .. اننى مسرور جدا يا مولاتى .. مسرور جدا ! سأصلى دائما من أجلك ، وأدعو لك ! .. انما أنا مسرور بوجودك على قيد

الحياة . والحمد لله ! »
 - وكيف عثرت عليه ؟
 - أعني أن بوسعنا دائما أن نبدل قصارى طاعتنا من أجل
 مولانا ، في شرف وأمانة ، ودون ..
 وهنا قالت دنياشا : « إنه مرتبك يا مولاتي ! »
 - كنت قد صحبت ابن أخي المجند ، وفيما كنت أقبود
 عربتي عائلا ، عثرت على الخطيب في الطريق .. ولا بد أن
 بوليكي قد أسقطه عفوا !
 - لا بأس ، انصرف .. انصرف ايها الرجل الطيب ، ويسرني
 أنك أنت الذي عثرت عليه !

وقال الفلاح : « لكم أنا مسرور يا مولاتي ! » . ثم تذكر
 انه لم يقدم لها الشكر اللازم ، ولم يدر كيف يتصرف .
 وابتسمت السيدة ودنياشا ، وأذ ذاك شرع الرجل يسير
 وكأنه يخطو بين أعشاب عالية ، وهو يكبح نفسه بعناء حتى
 لا يجري ، وقد داخله الخوف من أن يستوقف فتؤذي خدمته النقود !

(١٤) مع جثة « بوليكي » !

• ما أن خرج دوتلوف من الدار ، حتى عرج صوب أشجار
 الزيزفون ، مبتعدا عن الطريق ، ثم فك حزامه ليخرج كيسه
 بسهولة ، وغيب فيه النقود . وكانت شفتاه تختلجان وتنيسان
 وتتقاربان ، دون ما صوت . فلما وضع النقود في الكيس ،
 ثبت حزامه ، ورسم الصليب على صدره ، ثم عاد الى الطريق
 مترنحا - وكأنه ثمل - تحت وطأة الأفكار التي تدافعت على ذهنه .
 وفجأة ، رأى شبح رجل مقبلا عليه فصاح ، فإذا به « إيفيم »
 وقد أمسك بيده هرأوة ، وسهر على الحراسة عند مساكن الرقيق .
 وقال إيفيم بابتهاج ، وهو يقترب منه ، وقد أمضه السهر
 وجدا : « آه ، أهذا أنت يا أبى سمعان ؟ ! .. هل ودعتم



المجندين يا أبت ؟ » . فأجابه : « ودعناهم . . وماذا تفعل ؟ »
 - لقد عينت لحراسة « بوليكي » الذي شبق نفسه !
 - وأين هو ؟

- فوق ، معلق في الفراغ تحت السقف ، كما يقولون !
 وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العبيد ، فتطلع « دوتلوف »
 حيث أشار . ومع أنه لم ير شيئا ، فقد قطب عينيه ، وأرهف
 بصره . ثم هز رأسه . وقال ايقيم : « لقد جاء ضابط البوليس ،
 كما قال الحوذى ، وسينزلون الجثة حالا . اليست هذه ليلة
 رهيبة يا أبت ؟ . . ما من شيء يحملنى على أن أصعد اليه
 بالليل ، ولو أمرت أمرا . . لن أصعد ولو شاء ايجور ميخايلوفيتش
 أن يقتلنى . . » وكان دوتلوف يردد ، دون أن يفقه ما يقول :
 « يا لها من خطيئة ! . . آه ، يا له من - اثم ! » . وهم بأن
 يمضى في طريقه ، فاذا صوت ايجور ميخايلوفيتش يستوقفه ،
 اذ انطلق من مدخل مكتبه قائلا : « اسمع ، أيها الحارس !
 تعال ! » . فلبى « ايقيم » نداءه . واذا ذاك سألته : « من ذلك
 الفلاح الذى كان يقف معك ؟ » . وأجابه ايقيم : « انه
 دوتلوف » . فصاح وكيل الاعمال : « آه ، أهذا أنت ياسمعان !
 تعال معنا ! »

واقترب دوتلوف . . وعلى ضوء مصباح كان الحوذى
 يحمله ، رأى الشيخ ايجور ميخايلوفيتش يقف مع رجل

قصير ، يحيط بقبعته شريط ، وقد ارتدى معطفا رسميا طويلا .. ذلك كان « كونسنبابل » البوليس . وأحسن الشيخ بشيء من عدم الارتياح ، ولكنه لم يجد مفرا من أن يقف أمامهما ، بينما كان ايجور يقول : « وأنت يا ايفيم .. أنك فتى شجاع ، فأصعد الى الفراغ الذى يلى السقف ، حيث شنق نفسه ، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة اليه » . وهرع « ايفيم » - الذى كان منذ لحظة يقول أن شيئا فى الدنيا لن يحمله على الصعود - فيمهم شطر المكان ، وحذاءه الخشبيان يقرقان .

وأشعل ضابط البوليس ثقابا ، أوقد به غليوننا .. كان يقيم على حوالى ميل ونصف الميل . ولما كان قد تلقى من رئيسه تقريرا شديدا - لافراطه فى الشراب - فقد أبدى همة وحمية ، فوصل فى الساعة العاشرة مساء ، ورغب فى أن يرى الجثة لفوره ! .. وتحول « ايجور ميخايلوفيتش » الى « دوتلوف » فسأله عما أتى به . ولكنى يجيبه دوتلوف ، راح يروى له كيف عثر على النقود ، وما فعلته السيدة . وقال انه كان فى طريقه الى « ايجور ميخايلوفيتش » ليسأله رايه . وشد ما جزع حين سأله وكيل الأعمال أن يعطيه المظروف ، ثم أخذ يفحصه .. وتناول « كونسنبابل » البوليس الظرف بدوره ، فأمسك به للحظة وجيزة ، وسأل دوتلوف عن بعض الامور بشيء من الحفاء . وأخذ الشيخ يقول لنفسه : « واحسرتاه ! لقد طارت النقود ! » . ثم مضى يتلمس تبرير امره ، ولكن « الكونسنبابل » لم يلبث أن ناوله النقود ثانية ، وهو يقول : « يا له من حظ ، لغبى ما فون ! » . فقال ايجور ميخايلوفيتش : « لقد واتاه فى الوقت المناسب ، فقد كان عائدا بعد أن رافق ابن أخيه المجنبد . وبوسعه الآن أن يفتديه ! » .. وقال رجل البوليس : « آه ! » . ثم سار نحو مساكن الرقيق وتحول ايجور ميخايلوفيتش لدوتلوف : « هلي ستفتديه .. »

اقصد ايليشا ؟ » . فقال الرجل : « وكيف لى ان أفتديه ؟ . . هل ستكون ثمة نقود كافية ؟ . . ثم ، قد تكون الفرصة فاتت ! » . فقال وكيل الاعمال : « انت أدري بذلك ! » . وتبعنا « كونستابل » البوليس . واقتربوا من مساكن الرقيق ، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون فى الردهة ، ومعهم مصباح . . ولاحوا وكأنهم مذنبون ، ولعل ذلك كان راجعا الى الرائحة الكريهة التى كانوا يبتونها حولهم . . وكانوا جميعا صامتين . فتسأل كونستابل البوليس : « أين هو ؟ » . . فقال ايجور ميخايلوفيتش هامسا : « هنا » . ثم أردف قائلا لايفيم : « انك فتى جسور ، فتقدم الضابط ، ومعك المصباح ! » . وكان لايفيم قد وضع لوحا مستقيما من الخشب ، فوق قمة السلم . وبدا انه فقد كل خوف ، فصعد السلم ، طاويا كل درجتين أو ثلاث معا ، مبتهجا ، ملقيا الضسوء على طريق « كونستابل » البوليس . وعندما غابا فى الفراغ الذى يلى السقف ، تنهد دوتلوف ، ووقف واحدى قدميه على أدنى درجات السلم وتبعهما وكيل الاعمال .

ومرت دقيقتان أو ثلاث . وكان وقسع الاقدام — تحت السقف — قد انقطع ، مما نم عن انهما بلغا الجثة . وما لبث « لايفيم » أن نادى من أعلى : « ابتاه ، انهم يريدونك ! » . فبدأ دوتلوف يصعد السلم . ولم يكن ضوء المصباح يكشف سوى الجزء الأعلى من جسم كل من « كونستابل » البوليس و « ايجور ميخايلوفيتش » ، خلف القوائم الخشبية . وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان . . وكان هذا هو « بوليكى » . وصعد « دوتلوف » ، ثم وقف ، ورسم علامة الصليب على صدره . . وقال « كونستابل » البوليس : « أديروه يا أولاد ! » . فلم يتحرك أحد . واذ ذاك قال ايجور ميخايلوفيتش : « لايفيم . . انك فتى جسور ! » . فتقدم « الفتى الجسور » ، وادار « بوليكى » ، ووقف بجانبه ،

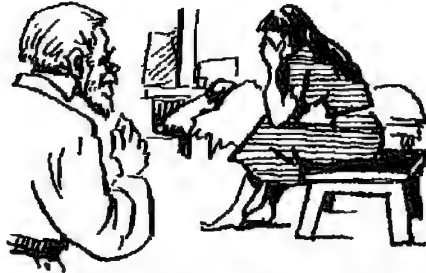
وهو ينقل بصره - وقد تهلل وجهه - بين بوليكي ورجل البوليس ، كرجل يعرض أمهق أو « جوليا باسترانا » (١) ، وينقل بصره بين الناس وما يعرض ، وهو على استعداد لأن يفعل كل ما يبتغيه النظارة .

وقال رجل البوليس : « أدركه مرة أخسرى ! » . فآذير « بوليكي » ، وذراعاه يتأرجحان قليلا ، وقدماه يحتكان بالرمال . وعاد الكونستابل يقول : « أمسكوه ، واهبطوا به » . فتسائل ايجور ميخيلوفيتش : « هل نقطع الجبل كله يا صاحب الفخامة ؟ . . آتونا بفأس يا أولاد ! » . . ولم يكن ثمة بد من تكرار التعليمات على الحراس ودوتلوف ، قبل أن يشرعوا في العمل . على أن « الفتى الجسور » حمل بوليكي كبا يحمل جثة خروف . . وما لبث الجبل أن قطع في النهاية ، وحملت الجثة الى أسفل ، ثم نشر عليها غطاء . وقال « كونستابل » البوليس ان الطبيب سيفد في اليوم التالي . . وصرف الجميع .

(١٥) عودة الجند الى قريته !

• سعى دوتلوف الى داره ، وهو لا يزال يحرك شفتيه . وكان - في البداية - يشعر بتوجس وتشاؤم ، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن زأله ، حين اقترب من البيت ، وتولاه ابتهاج أخذ يسرى في قواده تدريجا . وسمع أغاني وأصوات السكارى تنبعث من القرية . . ولم يكن دوتلوف قد عاقر الخمر اطلاقا ، ومن ثم فقد يمم - في هذه المرة ايضا - شطر بيته مباشرة . وكان الوقت متأخرا ، حين ولج كوخه ، فاذا زوجه العجوز نائمة . وكان ابنه الاكبر وأحفاده نياما على

(١) الامموق هو الشخص الشديد البياض والشفرة ، ويسمى عادة « عدو الشمس » . اما « جوليا باسترانا » فكانت انثى نصف امرأة ونصف حمارة ، عرضت في روسيا منذ قرن تقريبا .



الفرن ، في حين كان ابنه الثاني نائماً في المخزن . ولم يكن من مستيقظ سوى زوجة ايليشا ، فقد جلست تبكي . . عارية الرأس ، على مقعد خشبي ، وفي ثوب العمل اليومي القذر . ولم تنهض لاستقباله ، بل ازدادت نحيباً ، وراحت تترثي حالها عندما دخل . وكانت - كما قالت زوجته العجوز - تجيد النذب والنعيب بطلاقة ، لا سيما وان صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للمران !

واستيقظت العجوز فأعدت عشاء لزوجها . . وأقصى دوتلوف زوجة ايليشا عن المائدة قائلاً لها : « كفى ! كفى ! » . فابتعدت « اكسينيا » عن المائدة ، واستلقت على أريكة خشبية ، وواصلت النذب والنعيب . ووضعت العجوز العشاء على المائدة ، ثم رفعته - فيما بعد - في صمت . . ولم يتكلم الشيخ كذلك . وبعد أن صلى لله شكراً - عقب العشاء - تحشأ ، وغسل يديه ، ثم رفع العداد عن مسمار في الجدار ، وذهب الى المخزن . وهناك ، راح والعجوز يتكلمان همساً لبرهة ، ثم شرع - بعد انصرافها - يعد على العداد ، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز . . وأخيراً ، رفع غطاء صندوق كبير - هناك - وهبط الى فراغ تحت الارض . وقضى وقتاً طويلاً في الحجرة والفراغ الذي كان تحتها . وعندما عاد الى غرفة الجلوس ، كان الظلام يسود الكوخ ، اذ أن شظية الخشب - التي كانت تستخدم كشمعة - انطفت ، فأشعلها .

من جديد . وكانت زوجته - الهادئة ، الصامته أثناء النهار - قد تكورت على السرير الخشبي وملأت الكوخ غطيظا . أما زوجة ايليشا الصاخبة فكانت تتنفس بهدوء ، وقد نامت هي الاخرى .. كانت ترقد على الاركة الخشبية في عين الثياب التي كانت فيها طيلة يومها ، وليس من شيء تحت رأسها يعوضها عن الوسادة !

وشرع دوتلوف يصلى ، ثم نظر الى زوجة ايليشا وهز رأسه ، وأطفا النور .. وتجنبا ثم صعد الى قمة الفرن ، حيث ينال الى جوار حفيده الصغير . وألقى بحذاءيه المكسوين بلحاء الشجر الى الارض في الظلام ، واستلقى على ظهره متطلعا الى الواح السقف الخشبية التي كانت فوق رأسه مباشرة ، والتي كانت لا تبين تقريبا .. وأخذ ينصت الى أصوات الصراصر وهي تطير مرتطمة بالجدران ، والى التنهدات ، والزفرات ، والفطيط ، وحفيف قدم تحتك بأخرى ، وجلبة الماشية في الخارج . وانقضى وقت طويل قبل أن ينام ، بزغ خلاله القمر ، فأضاءت أشعته الكوخ ، واستطاع الشيخ أن يرى « اكسينيا » في ركنها ، وشيئا لم يستطع أن يتبين ما اذا كان سترة نسيها ابنه ، أو وعاء غسيل وضعته النسوة هناك ، أو رجلا قابعا ! .. ولعله كان قد بدأ ينعس - اذ ذاك - وربما لم يكن قد بدأ ، ولكنه - على أية حال - شرع يتفرس في الظلام .. والظاهر أن الروح الشريرة التي قادت بوليكي الى ارتكاب فعلته الشنيعة ، والتي كان كل من في مساكن العبيد يشعرون بوجودها - في تلك الليلة - قد بسطت جناحها عبر القرية الى الكوخ الذي كانت فيه النقود التي استخدمتها في القضاء على بوليكي ! .. ومهما يكن الامر، فقد أحس دوتلوف بوجود الروح الخبيثة ، فاضطرب ، ولم يعد في وسعه أن ينام ، ولا أن ينهض . وبعد ان لاحظ الشيء الذي لم يستطع أن يتبينه ، تمثل ايليشا وقد أوثق كتافه ،

ووجه « اكسينيا » ورائها الطلق ، وتذكر بوليكي وبديه اللتين تآرجحتا !

وفجأة ، خيل للشيخ أن شخصا مر بجوار النافذة ، فقال لنفسه : « من عساه يكون ؟ .. أياكون شيخ القرية وقد أقبل مبكرا يحمل مذكرة لى ؟ » . وسمع خطوة فى الردهة ، فسأل نفسه : « كيف فتح الباب ؟ .. أو لم تضع العجوز المزلاج ، عندما عادت من الردهة ؟ » . وبدأ الكلب يعوى فى فناء الدار ، والروح الشريرة - كما حدس الشيخ فيما بعد - تخطو فى الردهة ، وكأنها تبحث عن الباب . ثم مرت ، وبدأت تتحسس الجدار ، وتعثرت فى وعاء فوق ع على الارض محدثا ضوتا . ثم عادت تتحسس ، وكأنها تبحث عن اللسان الذى يفلق الباب . وأمسكت باللسان ورفعته .. وسرت فى جسد الشيخ قشعريرة . ورفعت الروح الخبيثة اللسان ودخلت متخذة شكل رجل .. وأدرك دوتلوف أنها الروح الشريرة ، فحاول أن يرسم الصليب على صدره ، ولكنه لم يقو .. وسار الشيخ الى المنضدة التى كانت مكسوة بغطاء ، فجذبه وألقاه على الارض ، وشرع يصعد الى قمة الفرن ! .. وأدرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل « بوليكي » وقد كثر عن أنيابه ، وراحت يذاه تتآرجحان حوله .. وصعد ، ثم ارتدى على صدر الشيخ ، وبدأ يخنقه !

وقال بوليكي : « إن النقود لى » ، فحاول سدهان أن يقول : « دعنى .. لن أمسها ! » ، ولكنه لم يقو .. وأخذ بوليكي ينقل عليه ، وكأنه جبل صلد . وكان دوتلوف يعرف أنه لو استطاع أن يردد أدعية ، لخلت الروح الخبيثة عنه ، وكان يعرف اية أدعية يجب أن يتلو ، ولكنه لم يستطع أن ينطق .. وأرسل حفيده - الذى كان ينام الى جواره - صرخة عالية ، وشرع يبكي ، فقد دفعه جده الى الحائط ، وراح يضغفه فيه . وفكت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ ، فانطلق : « لينهض

الرب ! .. » ، فبدأ ثقل الشبح يخف .. « وليتفرق شمل أعدائه ! .. » . وهبط الشبح عن القرن ، وسمع «دوتلوف» صوت ارتطام قدميه بالأرض ، فمضى يردد تباعا كل ما كان يعرف من صلوات .. وسار الشبح الى الباب ، مارا بالمائدة . وصفق الباب خلفه فهز الكوخ بأسره . ومع ذلك فقد ظل الجميع نياما ، عدا الجد والحفيد . فقد كان الجد يتمتم بالصلوات وهو يرتجف ، بينما كان الحفيد يرهق نفسه بالبكاء ، والنوم يغالبه ، وقد ازداد التصاقا بجدّه .

وعاد الهدوء يسيطر على الكوخ ، فظل الشيخ راقدا في مكانه . وصاح ديك من خلف الجدار ، بجانب أذن دوتلوف .. وسمع تقنقة الدجاج ، وصوت دويك يحاول أن يرد على الديك الكبير ، دون أن يوفق . وتحرك شيء على ساق الشيخ .. وإذا به قطة ما لبثت أن قفزت الى الأرض دون أن تحدث صوتا ، وراحت تموء بجوار الباب . ونهض الشيخ ففتح النافذة ، وإذا الطريق مظلمة موحلة . وكان مقدم العربية قريبا من النافذة . ورسم الرجل الصليب على صدره ، ثم خرج حافيا الى فناء الدار ، حيث كانت الخيل . وكان من السهل أن يتبين المرء أن الشبح قد مر بالمكان ، فإن الفرس التي وضعت من عهد قريب ، كانت تقف الى جوار وعاء به علف ، وقد لفت الحبل الذي ربطت به حول ساقها ، وراحت تنتظر أن يأتي صاحبها فيخلصها .. أما رضيعها ، فقد تعثر وسقط على كوم من الروث . فانفضه الشيخ وأقامه على أقدامه . وخلص الفرسة وقدم لها غداء ، ثم عاد الى الكوخ . واستيقظت العجوز وأشعلت فتिला ، فقال لها : « ايقظي الولدين ، فاني ذاهب الى المدينة ! » . ثم تناول شيمعة رفيعة كانت أمام أيقونة ، فأشعلها ، وهبط بها في الفراغ الذي

كان أسفل المخزن . وعندما صعد ثائية ، كانت الاضواء تلوح في نوافذ جميع الدور المجاورة ، اذ استيقظ الشباب متأهبين للعمل ، وأخذت النسوة يرحن ويجنثن بدلاء اللبن . وكان « اجنات » يربط الجواد الى احدى العربات ، بينما كان الابن الثاني يعنى بتشجيع عجلات عربية أخرى . ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها ، بل نظفت نفسها ، ولبست ثوبا نظيفا ، وربطت شالا حول رأسها ، وجلست تنتظر ريثما يحين الوقت للذهاب الى المدينة كي تودع زوجها .

وبدا الشيخ متجهما ، رصينا ، فلم ينبس ببنت شفة لاحد ، بل ارتدى خير سترة لديه ، وشد حزامه ، وتهايا للذهاب الى ايجور ميخايلوفيتش ونقود « بوليكي » في صدر معطفه . وقال لابنه الذي كان يدير العجلات حول محورها بعد ان كساهما بالشحم : « لا تتلکا ، فلسوف أعود بعد دقيقة .. وتأكد من أن كل امرئ على أتم استعداد ! » .. ووجد وكيل أعمال السيدة قد استيقظ لتوه ، وأخذ يحتسى الشاي ، ويتخذ استعداداه ليذهب — هو الآخر — الى المدينة ليسلم السلطات مجنذى الضيقة .. وبادره قائلا

— فني أريد أن أفندي فتاي من الخدمة العسكرية يا ايجور ميخايلوفيتش . فكن كريما ! لقد قلت منذ أيام أنك تعرف شخصا في المدينة يرغب في التطوع ، فالذكر لى كيف أبرم الامر — ولماذا انتهيت الى هذا القرار ؟

— لم يكن بد من ذلك يا ايجور ميخايلوفيتش ، فاني آسف على الفتى . انه ابن أخي ، على أية حال ، ومهمه ما يكن من امره . اننى آسف عليه ! .. إن المال سبب كثير من الخطايا . وانحنى حتى ساوى رأسه وسبطه . ووقف ايجور ميخايلوفيتش مفكرا ، وهو يمص شفثيه محدثا صوتا ، كما كان يحلو له في مثل هذه المناسبات .. حتى اذا تدبر الامر ، كتب ورقتين ، وأجبر الشيخ بما ينبغي أن يفعل في المدينة ،

وكيف يفعله .. وعندما عاد دوتلوف الى داره ، كانت زوجة « ايليشا » الشابة قد انطلقت مع « اجنات » ، وكانت الفرسة السمينة القوية تقف مشدودة الى عربة بجوار الباب الخارجى . فاقتطع فرعا من شجرة ، واحكم سترته حول جسده ، وارتقى العربة ، ثم ساط الفرسة بفرع الشجرة ، فجعلها تجرى مسرعة ، حتى ان جنبيها لم يلبثا أن هبطا ، فقد كان التفكير فى أن الفرصة قد تضيع ، وأن « ايليشا » قد يصبح جنديا ، وتظل تقود الشيطان فى حوزته .. كان التفكير فى هذا يضيئه !

ولن أسهب فى وصف كافة ما فعل دوتلوف فى ذلك الصباح ، وانما اكتفى بأن أقول أنه كان سعيد الحظ الى درجة عجيبة . فقد كان لدى الرجل - الذى أسلمه ايجور ميخيلوفيتش رسالة اليه - متطوع على اتم الالهة ، وكان مدينا بثلاثة وعشرين روبل فضيا ، وقد أقر مجلس التحنيد صلاحيته . وكان سيده يطلب أربعمائة روبل فضى فى مقابل تطوعه للخدمة العسكرية بدلا منه ، وقد ظل شخص من المدينة يحاول اقناعه - طيلة الاسابيع الثلاثة الاخيرة - بأن يقبل ثلاثمائة روبل . وحسم دوتلوف الامر بكلمتين : « هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين ؟ » . وبسط يده . ولكن مظهره كان ينم عن أنه مستعد لان يدفع مزيدا ، فلم يمد السيد يده ، وأصر على الأربعمائة روبل . فقال دوتلوف : « أو لن تقبل ثلاثمائة وربع المائة ؟ » . وتمسك بيسره اليمنى الرجل ، يعدها كي يطبق عليها يميناه مصافحا ، اشارة الى الاتفاق . ولكنه ما لبث أن طوح بيد الرجل بأقصى قوته ، قائلا وهو يدير عنه : « أو لست تقبل ؟ .. حسنا ، ليكن الله معك ! » . وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا : « يبدو أن لا بد من هذا .. خذ ثلاثمائة ونصف المائة ! .. هيا ، احضر أذن التسريح ، وهات الشاب . وهاك ورقتين من فئة العشرة روبلات كعربون .. أيكفيك هذا ؟ »

وفك دوتلوف حزامه ، وأخرج النقود . ومع أن الرجل لم يسحب يده ، إلا أنه لم يبد قبولاً تاماً ، متوقفاً أن يزيد دوتلوف من المبلغ . ولكن هذا راح يردد ، وهو ممسكاً بالنقود : « لا ترتكب اثماً ! .. كلنا إلى الموت يوماً ! » . وراح يخفف من لهجته ، ليفرى الرجل ويطمئنه ، فما لبث هذا أن قال : « ليكن ! » . وصافح يد دوتلوف ، وشرع يدعو الله كي يبارك الصفقة ، قائلاً : « ليهيك الله الحظ ! »

وسرعان ما ايقظا المتطوع ، وفحصناه ، ثم رافقاه إلى إدارة التجنيد . وكان المتطوع مرحاً ، وقد طلب قدراً من « الروم » لينتعش ، فمنحه دوتلوف بعض النقود لذلك . ولم يخنه جلده إلا عندما بلغوا ساحة مجلس التجنيد . وتقدم السيد والمتطوع ، فوقفاً طويلاً في بهو المجلس . . وكان السيد في عباءة شديدة الزرقة ، والمتطوع في سترة قصيرة من جلد الغنم ، وقد ارتفع حاجباه ، وراحت عيناه تحمقان في القضاء . . وظلاً طويلاً يتهاوسان ، ويحاولان الوصول إلى مكان معين ، ويبحثان عن شخص معين . . ولامر ما ، كانا يخلعان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما ، ثم انصتا باهتمام إلى قرار حمله إليهما أحد الكتبة ، من معارف السيد . وبدأ كل اهل في انجاز المهمة في ذلك اليوم يتبدد ، وعاد المتطوع يزداد مرحاً وطرباً . وفجأة ، رأى دوتلوف أمماً « (ايجور ميخايلوفيتش) » ، فتشبث به لفوره ، وشرع يتوسل إليه ، وينحنى أمامه . وساعده « (ايجور ميخايلوفيتش) » بهمة ، فلم تكن الساعة الثالثة حتى كان المتطوع قد اقتيد - لدهشته واستيائه - إلى قاعة الفحص . . وفي غمرة المرح العام - الذي استولى على الجميع ، من العسس حتى الرئيس ، دون أن يدرى له داعياً - خلعت عنه ثيابه ، والبس ثياب المجندين ، وحلق شعره ، وسبق إلى الباب . . وبعد خمس دقائق ، أحصى دوتلوف النقود للسيد ، وتسلم أمر تسريح ابن أخيه ، فودع

المتطوع وسيده ، وأسرع الى حيث كان مجندو (بوكروفسك) وكان « ايليشا » وزوجته الشابة يجلسان في ركن المطبخ ، فما أن أقبل الشيخ حتى أمسكا عن الكلام ، وتطلعا اليه في توجس ، وان بدا أنهما كانا يكبحان مشاعرهما . وأدى الشيخ صلاة - ارضاء للعادة التي شغف بها - ثم فك حزامه ، وأخرج منه ورقة ، ونادى الى الحجرة كلا من ابنه الاكبر « أجناث » ، وأم ايليشا ، اللذين كانا في فناء الدار . ونقدم بعد ذلك من ابن اخيه ، فقال له : « لا تأثم يا ايليشا ! .. لقد آذيتني - ليلة الامس - بكلمة .. أفلمست أشفق عليك ؟ .. اننى لاذكر كيف أن اخى تركك لى ، فهل كنت أدعك تأتى الى هنا لو كان فى مقدورى أن أحول دون ذلك ؟ .. لقد أرسل الله لى حظا ، ولن أضن به عليك . هاك .. خذ هذه الورقة ! » . ووضع على المنضدة أمر التسريح ، وسوى اطراف الورقة بأصابع متصلبة ، متوترة .. وأقبل من الفناء فلاحو (بوكروفسك) ، واتباع صاحب الخان ، بل والاغراب ، وقد حدسوا جميعا ما كان يجرى . ولكن أحدا لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور ، فمضى يقول : « هاك الورقة ! .. لقد دفعت من أجلها أربعمائة روبل فضى ، فلا تلم عموك مرة أخرى ! »

ونهبز « ايليشا » من مجلسه ، ولكنه ظل صامتا ، لا يدرى ماذا يقول ، وقد راحت شفتاه ترتجفان انفعالا . وأقبلت أمه العجوز ، فكادت ترتدى على صدره باكية ، لولا أن أشار لها الشيخ كي تبعد ، وواصل حديثه قائلا : « لقد آذيتني - ليلة الامس - بكلمة .. ولقد طغنت فؤادى بتلك الكلمة ، وكأنها سكين ! .. لقد تركك أبوك المتوفى فى رعايتى ، فكنت لى بمثابة ابن ، وإذا كنت قد غبتك فى كل شيء ، فكل حى يائى ! .. اليس كذلك أيها المسيحيون الاتقياء ؟ » . وتلفت الى الفلاحين الذين احاطوا بالمكان . ثم استطرد : « ها هى ذى أمك ، وزوجتك ، وأمر تسريحك .. ولست بنادم على النقود ،

وانما .. اغفر لى ، من اجل المسيح ! » .. وجثا على ركبتيه ،
رافعا اطراف معطفه ، وركع على الارض امام « ايليشا »
وزوجته . وحاول الشابين جهدهما أن يمنعا ، فلم يمتنع
حتى هست جباهته الارض . واذ ذاك نهض قائما ..

وبكت ام ايليشا وزوجته فرحا ، وانسابت من الجمع كلمات
الاعجاب والتقدير ، فقال شخص : « هكذا الانصاف .. هذه
هى الطريقة التى ترضى الله ! » . وقال آخر : « ما المال ؟ ..
انك لا تملك ان تبتاع امرءا بالمال ! » . وقال ثالث : « وما
السعادة ! .. ما من خلاف فى ان الرجل منصف عادل ! » .
ولم يسكت عن التحنيد سوى الفلاحين اللذين كانا منسوقين
الى اداء الخدمة العسكرية ، فقد انسجبا الى فناء النزل .

بعد ساعتين ، انطلقت عربتا دوتلوف ، محتازتين اطراف
المدينة ، وقد جلس الشيخ و « اجنات » فى الاولى ، وراحت
تجرها الفرسة السمينة السمراء ، التى تهدل جنبها ، وتفصد
العرق من عنقها .. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض
الخبز الذى صيغ فى اشكال طريفة ، والذى كان الفلاح يعتز
به كهدية لاسرته ، فى عودته من المدينة .. اما العربية الاخرى
- التى لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها - فقد جلست
الزوجة الشابة ، وحماها ، وقد لفتا راسيهما فى شالين ،
وبدا عليهما الفرح والهناء . وكانت الاولى تمسك - تحت
مرولتها - بزجاجة من « الفودكا » . وجلس « ايليشا »
القرفصاء ، موليا الحصان ظهره - وقد اشتد احمرار وجهه ،
وراح يقضم لقما من رغيف ، وهو لا يكف عن الكلام .
واندمجت الاصوات ، وقرقعة المجلات على ارض الطريق
الحجرية ، وضمهيل الجوادين ، فى لحن مرح منسجم .. واخذ
الجوادان يضاعتقان من سرعتهما ، وهما يذبان الهواء بذيليوما .

وقد لج بهما الحنين الى البيت .. بينما كان السارة - من مشاة وركوب - يلتفتون ، ليتأملوا الاسرة السعيدة !
وما ان بارح آل دوتلوف المدينة ، حتى صادفوا جماعة من المجندين ، وقف فريق من أفرادها في حلقة أمام حانة . وكان أحد المجندين يعزف على « البلايكا » بشدة ، وقد بدا وجهه غير عادي ، كما هى وجوه المجندين عندما يحلق شعر مقدم رؤوسهم ! .. بينما راح آخر يرقص في وسط الحلقة ، وهو عارى الرأس ، وقد أمسك بزجاجة من « الفودكا » في يده . واستوقف « اجنات » فرسه ، وهبط ليحكم ربط أجزاء سرجها . واخذ آل « دوتلوف » جميعا يتأملون الراقص في فضول ، واهجاب ، وطرب . ولم يلح على المجند انه رأى احدا ، ولكنه أحس بالاعجاب العام ، فزاده هذا أقبالا وخفة . وراح يرقص بشدة ، وقد عقد حاجبيه ، وتضرج وجهه ، وانفجرت شفاته عن ابتسامة فقدت كل معنى . وكان يقفز بعينه الى عازف « البلايكا » الذى شرع يعزف بحرارة أشد ، ويداعب كل الاوتار ، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة . وكان المجند يقف لحظات ، ولكنه يبدو - رغم وقوفه - كما لو كان مستمرا فى الرقص . ثم شرع يهز كتفيه فى بطء . وفجأة ، دار حول نفسه ، وقفز فى الهواء ، مطلقا صرخة عالية ، ثم هبط ، فأقمى ، وبسط إحدى ساقيه ، واتبعها بالآخرى . وضحك الصبية ، وهزت النسوة رؤوسهن ، بينما ابتسم الرجال اعجابا . وكان ثمة « جاويش » مسن وقف ساكنا ، وكأنما كانت نظراته تقول : « أو تظنون انه رائع .. لقد الفنا هذه الرقصة وحذقناها ! » .

وصاح العازف وهو يشير الى دوتلوف : « اسمع يا اليخا .. هاء كفيلاك ! » .. فهتف « اليخا » : « أين ؟ .. أهلا بك يا أعز صديق ! » .. كان هو عين المجند الذى كان دوتلوف قد دفع المال ليحل محل ابن أخيه فى الجندية . وتقدم مترنحا

على ساقيه الكليلتين ، وقد رفع زجاجة « الفودكا » فوق رأسه ، وتحرك نحو العربية ، وهو يصيح في العازف : « هات كوب يا ميشكا ! .. أيها السيد ! أيها الصديق الاعز ! يا له من سرور ! » . وأسند رأسه الكليل الى حافة العربية ، وشرع يدعو الرجال والنساء الى « الفودكا » . فشرب الرجال ، وأبت النسوة .. وكانت ثمة امرأة تبيع بعض الماكولات - واقفة بين الحشد - فلمحها « اليخا » ، وأمسك بصحفتها ، فأفرغ كل محتوياتها في العربية ، وصاح في صوت خنقته العبرات ، وهو يخرج كيس نقوده ، ويطوح به الى ميشكا : « سادفع ، فلا تخافى إيتها اللعينة ! »

ووقف مسندا مرفقيه الى العربية ، متأملا الجالسين فيها من خلف دموعه ، ثم قال : « أين الام .. أهذه انت ؟ يجب ان أكرمك ! » . ووقف يفكر لحظة ، ثم دس يده في جيبه ، وأخرج منديلا جديدا ، وأسرع فخلع منديلا آخر كان قد لفته حول وسطه - تحت سترته - وشاحا أحمر كان يلفه حول عنقه ، وكورها جميعا ، ثم القى بها في حجر العجوز ، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجا : « أليك ! .. انتى أقدمها جميعا لك ! » . فقالت العجوز لدوتلوف ، الذى أقبل من عربته : « لماذا كل هذا ؟ .. انظر طيبة هذا الفتى ! » . وكان « اليخا » قد سكن تماما ، وبدأ مسلوب الجوارى ، ولاح كأنه يوشك أن ينام . وأخذ ينكس رأسه رويدا ، وهو يتمتم : « إنما أنا ذاهب للجندية من أجلك .. من أجلك أنا ذاهب للهلاك ! هذا هو السبب فى اننى أعطيك هذه الهدايا ! » . وصاح واحد من وسط الجمع : « اعتقد أن له هو الآخر إما ! يا له من ساذج ! واأسفاه عليه ! » . فرفع « اليخا » رأسه ، وقال : « ان لى أما .. ولى أب كذلك ، وقد تخطى عنى الجميع » . ثم تحول الى أم ايليشا قائلا : « اسمعى إيتها العجوز ، لقد منحتك هدايا . انصتى لى بحق المسيح ! ..

اذهبي الى قرية (فودنو) ، وسلى عن العجوز « نيكونوفنا »
 .. انها امى ! .. سلى عن العجوز نيكونوفنا ، فى الكوخ الثالث ،
 من آخر الصف ، بالقرب من البئر الجديدة . وقولى لها ان
 اينها « أليخا » .. هل فهمت ! .. اعزف ايها الموسيقى !
 وتمتم بشئ غير مسموع ، ثم عاد يرقص لتوه ، وهو يطوح
 بالزجاجة وما تبقى فيها من « فودكا » الى الأرض . وصعد
 « أجئات » الى عربته ، وهم بان يستأنف السير ، فقالت
 العجوز للمجنند ، وهى تلف عباءتها حولها : « وداعا ! ليباركك
 الرب ! » . فتوقف « أليخا » فجأة ، وصاح وهو يهزقبضتيه
 فى وعيد : « اذهبي الى الشيطان ! .. لملك امك .. » .
 ورسمت ام ايليشا الصليب متعوذة . وانطلقت العربتان .
 ووقف « أليخا » فى وسط الطريق بقبضتين مشدودتين ،
 ونظرة مهتاجة ، وراح يسبب الفلاحين بكل ما اوتى من سباب .
 وتهدج صوته ، ثم ارتمى على الأرض ، حيث كان يقف !
 وسرعان ما بلغ آل « دوتلوف » . الحقل ، ولم يعودوا
 يبصرون جماعة المجندين . وبعد أن قطعوا أربعة أميال ، هبط
 « أجئات » من عربته - التى كان أبوه قد نام فيها - وسار
 الى بجواز بحرية « ايليشا » .. واقتسم مع الشاب زجاجة
 « فودكا » كانا قد اشترياها من المدينة .. وان هى الابرهة ،
 حتى شرع « ايليشا » يفنى ، فانضمت اليه المرأتان ، بينهما
 راح « أجئات » يصيح طريا . ومرت بهم عربة انيقة ، كانت
 تنطلق فى خفة ، فصاح الحوذى فى جياده منتشيا ، والتفت
 مساعدة الى الرجال والمرأتين - الذين كانوا فى العربتين -
 وغمز بعينه ، بينما كانوا يهتزون مع ارتجاج العربتين ، وقد
 احمرت وجوههم ، وهم ماضون فى اغنيتهم الطروب !

فارسان... وعذراء!



تقديم

• في اوائل القرن التاسع عشر ، عندما لم تكن ثمة بعد سلك حديدية ، وولا طرق مرصوفة ، ولا اضاءة بالغاز ، ولا شموع من « الستيرين » (١) ، ولا مركبات منخفضة ذات وسائل مجهزة بزئبركات ، ولا اثاث بدون طلاء لامع ، ولا شباب مغرور ذو عوينات (نظارات) ، ولا فيلسوفات من دعاة التحرر ، ولا أى من « غادات الكاميليا » الفاتنات اللاتي يوجدن في ايامنا بكثرة .. في تلك الايام الساذجة ، عندما كان المرء - اذا سافر من موسكو الى بطرسبورج في مركبة مغلقة ، أو عربة مجهزة بملء مطبخ من المؤن المعدة - يقضي ثمانية ايام في طريق لينة الارض ، أو متربة ، أو موحلة ، معتمدا على شرائح اللحم المقلوة ، وعلى الكعك العادى ، وعلى اجراس الزحافات .. وعندما كان من الضرورى اصلاح فتائل الشموع المصنوعة من الشحم ، والتي كانت تلتف حولها الجماعات العائلية ، مؤلفة من عشرين وثلاثين شخصا ، في ليالى الخريف الطويلة .. وعندما كانت قاعات الرقص تضاء بشرىات الشمع الشحمى او الشمع المصنوع من عنبر الحوت .. وعندما كانت قطع الاثاث ترتب في نظام هندسى دقيق .. وعندما كان آباؤنا لا يزالون شبابا ، لا يكتفون باثبات ذلك بمجرد غياب التفصينات والشعر الاشيب ، وانما بخوض المبارزات من أجل امرأة ، وبالاندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل ضئيل الحجم اسقط عمدا او عفوا .. وعندما كانت امهاتنا يرتدين اثوابا مرتفعة خط

الوسط ، وأكماما هائلة منتفخة ، ويتخذن القرارات في الشؤون العائلية عن طريق سحب القرعة (الاقتراع بالورق الطوى) ! . . .
وعندما كانت « غادات الكاميليا » الفاتنات يختبئن من ضوء النهار في مساكن الماسونية ، و« المارتانية » ، و« التوجينبوند » (٢) ، في تلك الأيام الطيبة . . أيام الميلوردوفيتشيين (٣) ، والدافيدوفيين (٤) ، والبوشكينيين (٥)
في تلك الأيام ، عقد اجتماع في مدينة (ك . . .) التابعة للحكومة ، حضره أصحاب الأراضي ، وأجريت فيه انتخابات الاعيان (٦)

.

إيضاحات وتعليقات على ما ورد في التمهيد

- (١) الستيرين مادة كيميائية استخدمت في صناعة الشموع بدلا من الشحم .
- (٢) كانت الماسونية الحرة جماعية سرية في روسيا ، غرضها العمل الاصلاح الخلقي على أسس من المساواة والاخوة العامة . وقد بدأت كحركة دينية ، ثم انقلبت الى حركة سرية ، واضطهدت في أوائل القرن التاسع عشر . وكانت « المارتانية » جماعة من الماسونيين الروس ، انتسبوا الى الفيلسوف الصوفي الفرنسي « لوى كلود سسان مارتان » . أما « التوجينبوند » فكانت جمعية وطنية ألمانية ، انضمت مثلا في روسيا للشباب المتحمس ، ولعبت دورا رئيسيا في التهيئة لحرب سنة ١٨١٣
- (٣) نسبة الى « د . م . هـ . ميلورادوفيتش » الذي ابلى بلاء حسنا في الحرب ضد نابليون . وصار حاكما عاما لبطرسبورج ، واغتيل عندما حاول قمع « فتنة ديسمبر » سنة ١٨٢٥
- (٤) نسبة الى « د . ف . دافيلوف » ، وكان شاعرا ذا شهرة شعبية ، وزعيما لفرق العصابات في حرب سنة ١٨١٢
- (٥) نسبة الى « ا . س . بوشكين » اعظم شاعر روسي اذ ذاك .
- (٦) انتخابات كانت تجري بين الاعيان ، من اصحاب الالقاب ، والاغنيا ، واصحاب الأراضي .



« ١ »

• - لا بأس .. فان قاعة الجلوس (الصالون) تغنى !
قال هذه الكلمات ضابط شاب في معطف من الفراء ،
وقلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة ، وقد غادر لغوره زحافة
خط البريد ، وهم بأن يدخل احسن فندق في مدينة (ك...) .
وقال خادم الفندق ، الذى استطاع ان يعلم من تابع الضابط
ان اسمه « الكونت تورين » ، ومن ثم فقد راح يخاطبه
بـ « صاحب السعادة » : « لقد حضر الاجتماع عدد هائل
يا صاحب السعادة . على أن مالكة أراضى (افريموفو)
قالت انها راحلة الليلة ، ومعها بناتها ، ومن ثم فان الحجرة
رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن ! » . وراح
يخطو بخفة أمام « الكونت » وهو لا يكف عن التلفت حوله .
وفي قاعة الجلوس العامة ، والى منضدة صغيرة - تحت
صورة مقبرة بالحجم الطبيعى للامبراطور الكساندر الاول -
جلس عدد من الرجال ، يشربون « الشمبانيا » ، ولعلمهم كانوا
من اعيان المنطقة .. بينما جلس فى الطرف الآخر من القاعة ،
بعض الرخالة .. تجار فى معاطف زرقاء ، مبطنة بالفراء ! .
ودخل الفارس القاعة مناديا « بلوخر » .. وهو كلب مقبر
اللون ، هائل الحجم ، أحضره معه . وخلع « الكونت » معطفه
الذى كانت ياقته لا تزال مكسوة بالصقيع الابيض ، وصاح
بطلب « فودكا » ، وجلس الي المائدة فى سترته القوزاقية

انحريرية الزرقاء ، واندمج في حديث مع السادة الموجودين .
وسرعان ما اجتنبتهم اليه طلبة القادم المليحة الصريحة ،
فقدوا اليه قدحا من « الشهبانيا » . واحتسى الكونت
قدحا من « الفودكا » - يادى ذى بدء - ثم طلب زجاجة
أخرى من « الشهبانيا » ، ليكرم معارفه الجدد . وأقبل
سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة (بقشيشا) ، فصاح
الكونت : « ساشكا ! اعطه شيئا ! »

وخرج السائق مع « ساشكا » ، ولكنه عاد ثانية والنقود
في راحته ، وهو يقول : « انظر يا صاحب السعادة .. ألم
أبذل قصارى جهدى من أجل فخامتكم ؟ .. ألم تعدنى
بنصف روبل ؟ .. ولكنه لم يعطنى سوى ربع روبل ! »
- اعطه « روبل » يا ساشكا !

فغض « ساشكا » بصره ، ونظر الى قدمى السائق ، ثم قال
بصوت منخفض : « يكفي ما أخذ ! .. ثم انه لم تعد معى
نقود ! » . وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين مائتين
من فئة الخمسة روبلات ، كانتا كل ما احتوته الحافظة ،
فأعطى احدهما للسائق الذى قبل يده وانصرف .

وقال الكونت : « لقد استنزفت كل ما كان معى ! .. هذه
الروبلات الخمسة هى آخر ما معى ! » . فقال أحد النبلاء :
« هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت ! » .
وكان يبدو من شاربييه ، وصوته ، وبعض الحركات المتحررة
من ساقيه ، انه كان من الفرسان المتقاعدين . وما لبث أن
تساءل : « أترأى ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت ؟ »

- لا بد لى من الحصول على بعض المال . وما كنت لانزل
هنا اطلاقا ، لولا هذا .. ومع ذلك ، فلا غرف يمكن الحصول
عليها فى هذا النزول اللعين .. الا فليخطفهم الشيطان !

فقال الضابط الفارس المتقاعد : « ألا اسمح لى يا كونت ..
هلا شاطرتنى غرفتى ؟ .. ان غرفتى هى رقم ٧ ، فإذا لم

يسؤك هذا ، فلك ان تشاطرنها الليلة . . ثم ، إلا تمكث معنا يومين ؟ . . ومن المصادفات أن « ماريشال طبقة النبلاء » يقيم الليلة حفلة راقصة . . ولسوف تزيد سعادة اذا أنت ذهبت ؟ »

وقال آخر . وكان شابا وسيما : « أجل يا كونت ، الا امكث معنا ! . . من المؤكد ان ليس هناك من داع لتعجل الرحيل ! انك لتعلم انها لا تحدث الا مرة كل ثلاث سنوات . . اعنى الانتخابات . . وجدير بك ان تلقى نظرة على سيداتنا الشابات . . — على الاقل — يا كونت ! » . فنهض الكونت قائلا : « ساشكا . اعد ثيابا داخلية نظيفة ، فانتى ذاهب الى الحمام (١) . وربما اقيمت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك »

ثم نادى الساقى وهمس اليه بكلمات ، اجاب عنها هذا ، وهو يتسم : « ان هذا أمر يمكن تدبيره ! » (٢) . وخرج الساقى . . وخرج الكونت . وما لبث ان صاح من الردهة : « اذن فسامر بنقل حقيقتى الى حجرتك ايها الزميل العزيز ! » . فصاح ضابط الفرسان المتقاعد : « أرجو ان تفعل ، فلسوف يسعدنى هذا كل الاسعاد ! » . وهرع الى الباب مردفا : « النحجرة رقم ٧ . . لا تنس ! »

وعندها لم يعد وقع خطى الكونت مسموعا ، عاد الضابط الفارس المتقاعد الى مكانه ، فجلس بجوار موظف حكومى كان بين الخضور ، وحملق فى وجهه مباشرة ، وقال وعيناه

(١) كانت الحمامات فى روسيا ، على نمط ما نعرفه اليوم بـ « الحمام التركى » . . مؤسسات عامة يذهب اليها المرء ، حيث يتعرض للبخاخ لطرده انعرق .

(٢) كان من المألوف ان يقترن الحمام بامرأة . وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقى الفندق

تبسمان : « انه نفس الرجل ، كما ترى ! »
— كلا !

— أوكد لك انه هو ! .. نفس ضابط كتيسة الفرسان الخفيفة ، البارع في المبارزة .. توربين الشهير ! .. ولا بد انه عرفني .. اراهنك — على اى مبلغ شئت — انه عرفني . وكيف لا ؟ .. لقد قضينا في اللهو معا ثلاثة اسابيع متواصلة ، عندما كنت في (ليبديانى) ، حيث نعمنا بالاعاب الفروسية (١) . وكان ثمة شيء واحد ، وفق فيه كل منا .. هو وأنا .. انه لشاب بديع . اليس كذلك ؟

— انه لشاب رائع .. وان اخلاقه لتشرح الصدر ! فهو لا يبدى ذرة من .. ماذا يسمونه ؟
وقال الشاب الوسيم : « ما أسرع ما توثق الود بيننا ، وزالت الكلفة .. انه لم يتجاوز الخامسة والعشرين .. اتراه تجاوزها ؟ »

— آه ، كلا .. انه يبدو هكذا ، ولكنه فوق هذه السن . ان على المرء ان يعرفه عن كثب ، ليدرك هذا الامر ، كما تعلم .. من الذى سلب « ميجونوفا » مجده ؟ .. انه هو ! وهو الذى قتل « سايلين » . وهو كذلك الذى امسك بساقي « ماتئيف » وطوح به من النافذة .. وهو الذى ربح ثلاثمائة الفروبل من الامير نيستوروف .. انه لشيطان مريد ، جسور في كل شيء : مقامر ، ومبارز ، وفاتن يغوى الحسنان .. انه لدرة في كتيسة الفرسان الخفيفة .. لأولوة حقيقية ! .. ان الشائعات التى تحوم حولنا لاتفاس بالحقيقية في شيء .. اذا قدر للمرء ان يعرف فرسان الكتيسة الخفيفة على حقيقتهم ! .. آه ، تلك كانت اوقات وانقضت !

(١) ليبديانى بلدة في مقاطعة (تامبوف) ، اشتهرت بأسواق الخيل ومهرجانات الفروسية

وراح الفارس المتقاعد يروى لمحدثه عن فترة للهو قضاها مع الكونت في (لبيدياني) ، لم يحظ بمثلها ، بل وما كان يوسعه ان يحظى بمثلها قط .

ومع ذلك فما كان من الممكن ان تكون قد حدثت .. أولا ، لانه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم ، وقد ترك الجيش قبل ان يلتحق به الكونت بعامين .. وثانيا ، لان الفارس المتقاعد لم يخدم في فرقة الفرسان اطلاقا ، وانما ظل اربع سنوات في أدنى مراتب الناشئين في كتيبة (بليفسكي) ، وقد تقاعد بمجرد ان قدر له ان يحظى برتبة الضابط .. بيد انه ورث - منذ عشر سنوات - بعض المال ، وزار (لبيدياني) فعلا ، حيث بدد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قد ذهبوا الى هناك لشراء خيل .. بل انه ذهب الى أبعد من هذا ، فأمر بان تصنع له بزة رسمية على نمط الزى الخاص بفرسان « الاوغلان » ، ذات وشى برتقالي في صدرها ، معتزما ان يلتحق بكتيبة من كتائب « الاوغلان » . وقد ظلت هذه الرغبة في الالتحاق بالفرسان ، والاسباع الثلاثة التي قضاها مع الضباط الفرسان في لبيدياني من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تالقا . ومن ثم فقد حول الرغبة - في بادئ الامر - الى حقيقة ، ثم الى ذكرى واقعية ، وتعود ان يعتقدا وطيدا بماضيه كضابط من الفرسان .. وكلها أشياء لم تحل دون ان يكون من أكثر الرجال مكانة ، من حيث اللطف والامانة !

وقال : « أجل ، ان أولئك الذين لم يقدر لهم أن يخدموا في سلاح الفرسان ، لا يستطيعون أن يفهمونا اطلاقا ! »

وجلس في مقعده منفرج الساقين ، وكأنه على صهوة جواد ، ودفع فكه السفلى في زهو ، وشرع يقول بصوت منخفض وقور : « انك لتركب على رأس فصيلتك ، لا جوادا من الجياد العادية ، وانما شيطانا يتجسد خصانا يقفز متوثبا تحتك ، فلا تملك سوى أن تجلس مستهترا ، مستخفا .. ويركب

قائد الفصيلة مستعرضا فرسانه ، فيقول : « اننا لا نستطيع أن نستغنى عنك ايها الملازم .. تفضل بقيادة الفصيلة في طاوور استعراضي » .. فتقول : « حسنا ! » .. وهكذا تروح تلف وتدور ، وتصيح في زملائك ذوى الشوارب .. آه ، ليتخطفها الشيطان .. تلك الايام ! »

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة ، مبتل الشعر ، فمضى مباشرة الى الحجرة رقم ٧ ، حيث كان الفارس المتقاعد جالسا في ثوب الغرفة (الروب دى شامبر) ، وهو يدخل غليونه ، يفكر في سرور - وان لم يدخل من التوجس - في السعادة التي حلت به ، اذ شاطر « توريين » الشهر غرفة .. وكان يقول لنفسه : « ولكن ، هب انه يمسك بي فجأة ، ويجردني من ثيابي ، ويسوقني الى ابواب المدينة ، ويلقى بي في الجليد .. او يجليني بالقار .. او يكتفى بأن .. » . ثم يستدرك ليسرى عن نفسه : « ولكن ، لا .. انه لا يرتضى نفسه ان يفعل هذا بزميل »

وفي تلك اللحظة ، صاح الكونت ، وهو يلج الغرفة : « ساشكا .. اطعم بلوخر ! »

واقبل « ساشكا » الذي كان قد تناول زجاجة من « الفودكا » لينعش نفسه من عناء الرحلة ، فراح يترنج بما لا يدع شكاً في انه قد ثمل . وصاح الكونت : « عجباً ، أشمل منذ الآن ؟ ! .. اكننت تشرب ايها الوغد ! .. هيا اطعم بلوخر ! » . فأجاب ساشكا وهو يربت ظهر الكلب : « انه لن يموت جوعاً على أية حال .. الا انظر كيف انه ناعم ! »

- اخرس ! .. اخرج واطعمه !

- انك تهتم بان يتغذى الكلب .. اما حين يشرب الرجل

فهباً ، فانك تؤنبه وتزجره !

فصرخ الكونت بصوت ارتجله زجاج النوافذ .. بل وداخل الخوف - من جرائه - قلب الفارس المتقاعد ، بعض الشيء : « هاى ! .. لسوف أسوطك ! » . فدمدم ساشكا : « كان خليفك ان تسال عما اذا كان ساشكا قد ظفر بلقمسة في يومه ! .. اجل ، اضربني ما دمت تفكر في الكلب أكثر مما تفكر في رجل ! » . ولكنه - عند هذا الحد من دمدته - تلقى لكمة فظيعة أصابت وجهه ، من قبضة الكونت ، فوقع ، وارتطم رأسه بحافة الجدار .. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة ، ريرتمى على مقعد في الردهة .

وأخذ ساشكا يزمجرويشن ، مرددا : « لقد حطم أسناني ! » .. وبأحدى يديه راح يمسح أنفه الذى تفصد الدم منه ، بينما كان يحك - بيده الأخرى - ظهر « بلوخر » الذى كان يلحق جسده بلسانه . واستطرد ساشكا يحدث الكلب : « لقد حطم أسناني يا بلوخى ، ولكنه - رغم ذلك - سيبنى الكونت ، وانى لاخوض النار من أجله .. اجل ! فهو .. هو كونتى .. أنفهم يا بلوخى ؟ .. أتريد عشاءك ؟ هه ؟ »

وبعد أن ظل مستلقيا ساكنا لبرهة ، نهض فأطعم الكلب ، ثم سعى الى خدمة سيده الكونت ، وقد أفاق تقريبا من تأثير الشراب ، فتهيا ليقدّم له الشاي .

وكان الفارس المتقاعد يقول في تल्प وتल्प ، وهو يقف أمام الكونت الذى استلقى في سرير الرجل ، ومد ساقيه الى الجدار : « الحق اننى سأشعر بجرح لكرامتى . فانت ترى اننى عسكري قديم ، و .. زميل ، اذا جاز لى أن أقول ذلك . فلماذا تقترض من اى امرى آخر ، اذا كان يسرنى أن أقرضك مائتى روبل ؟ .. ان المبلغ ليس معى بأكمله الآن ، وانما معى منه مائة روبل .. على اننى سأحضر الباقى اليوم .. لسوف تعرج شعورى حقا يا كونت ، اذا انت أبيت ! »

وقال الكونت ، وقد أدرك لغوره نوع العلاقات التى كان

لا بد من أن تقوم بينهما ، فدى بيده كتف الفارس : « شكرا ، ايها الصديق الحميم ! شكرا ! .. ليسكن لك ما شئت اذن ، وسنذهب الى حفلة الرقص ، اذا لم يكن من ذلك بد .. ولكن ، ماذا نفعل الآن ؟ .. حدثنى عما اوتيتم في بلدتكم هذه .. اى نوع من الفرسان ؟ واى رجال اهل لان يكونوا زملاء فى اللهو ؟ واية مقامرات تعقد ؟ »

فأخذ ضابط الفرسان يبين له أن الحفل سيكون غاصا بكثيرات من المخلوقات البديعة ، وأن « كولوف » - الذى أعيد انتخابه قائدا للبوليس - كان خير زميل فى اللهو ، وأن كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقبة .. كان رجلا رائعا ، فيما عدا ذلك ، حقا .. كذلك كانت فرقة الموسيقى الفجرى « ايلوشين » فى المدينة تقيم حفلاتها الغنائية - منذ بدأت الانتخابات - بقيادة « ستيشكا » ، وأن كل امرئ كان يعتزم الذهاب لسماع اغانيها ، بعد الانصراف من دار المارشال ، فى تلك الليلة .. ومضى قائلا : « وهناك كثير من العاب المقامرة كذلك .. لسوف يلعب « لوخنوف » الورق ، وقسد اوتى نقودا كثيرة . وهو يقيم هنا خلال رحلته .. وقد خسر « ايلين » - وهو حامل العلم فى سرية من فرسان « الاوغلان » ، ويشغل الحجرة رقم ٨ - مبلغا كبيرا اثناء اللعب معه . ولقد شرعا فى اللعب فى هذه الحجرة بالذات ، واصنحها يلعبان كل ليلة . وبالايلين هذا من شاب بديع ! .. اوكد لك يا كونت انه ليس مقترا او بخيلا ، بل انه ليتخلى عن آخر قميص على جسده ، راضيا ! » . فقال الكونت : « حسنا ، اذن فلنذهب الى حجرته ، ولنرى نوع من القوم اولئك الذين يلعبون هناك ! » . وقال الآخر : « اجل ، هيا .. لسوف تتملكهم فرحة الشيطان نفسه ! »



« ٢ »

• لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ « ايلين » ، حامل العلم في كتيبة فرسان « الاوغلان » . فقد جلس - في الليلة السابقة - الى أوراق اللعب في الساعة الثامنة مساء ، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها . : اى الى الساعة الحادية عشرة من الصباح التالي . ولقد خسر مبلغا كبيرا ، ولكنه لم يعرف مدى ضخامته تماما . فقد كان معه حوالي ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة ، وخمسة عشر الفا من الروبلات ، من اموال التاج التي امتزجت بأمواله الخاصة منذ مدة طويلة ، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه ، حتى لا تتأكد مخاوفه من أن قسطا من اموال التاج قد تمدد !

وكان النهار قد انتصف تقريبا ، عندما استسلم للنعاس ، فحظى بذلك النوم العميق ، الخالي من الاحلام ، الذي لا ينعم به سوى الشبان النصفار في السن ، عقب أن يمتنوا بخسارة فادحة . وما أن استيقظ في الساعة السادسة من المساء - في عين الوقت الذي وصل فيه الكونت توربين الى الفندق - وأبصر الارض حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب ، وبقايا أقلام الطباشير ، ورأى الموائد في وسط الحجرة مجللة بعلامات الطباشير ، حتى تذكر - في جزع - لعب الليلة الماضية ؛

والورقة الأخيرة - وكانت « فاليه » - التي خسر عليها خمسمائة روبل .. على أنه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا ، فأخرج نقوده من تحت الوسادة ، وشرع يعدها .. وتبين بينهما بعض أوراق مالية تنقلت من يد إلى أخرى ، فتذكر كل تطورات اللعب .. ولم يكن قد تبقى معه شيء من الثلاثة آلاف روبل التي كانت من ماله الخاص ، كما أن حوالي ألفين وخمسمائة روبل من أموال الحكومة كانت قد ولت .. فلقد قضى « إيلين » أربع ليال متوالية ، في اللعب ! كان قد أقبل من موسكو ، حيث عهد إليه بذلك المبلغ من أموال التاج ، فلما بلغ (ك ...) عطله المشرف على مركز البريد (١) بحجة أنه لم تكن هناك جياد . ولكن السبب الحقيقي تمثل في أن المشرف كان على اتفاق مع صاحب الفندق على أن يعطل المسافرين يوما عن مواصلة أسفارهم ! .. ولقد سر فارس « الاوغلان » ، الذي كان شابا في غضارة الصبا ، تلقى من والديه - في موسكو - ثلاثة آلاف روبل ليجهز نفسه للالتحاق بكتيبته .. سر بقضاء بضعة أيام في بلدة (ك ...) ابان الانتخابات ، أملا في أن يتمتع نفسه إلى أقصى حد . وكان يعرف سيذا من أصحاب الأرض ، ذا أسرة ، فراح يفكر في زيارته ، وفي مغازلة بناته .. وإذا بالفارس المتقاعد يتعرف إليه ، في تلك الأثناء ، ثم يقدمه - دون ما سوء نية - إلى معارفه في قاعة الجاوس العامة ، أو القاعة العامة في الفندق ، في المساء ذاته .. وكان هؤلاء المعارف هم « لوخنوف » وغيره من المقامرين . ومنذ ذلك الحين ، عكف ضابط « الاوغلان » على لعب الورق ، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جياد .. وأصبح أقل رغبة في الذهاب لزيارة صاحب الأرض الذي كان

(١) كان البريد ينقل إذ ذاك في عربات وزحافات خاصة ، يسمح للمسافرين بأن يسافروا فيها ، أو بأن يستأجروا الجياد من مركز إلى آخر

يعرفه .. بل أنه لم يبرح حجرته أربعة أيام بطولها !

والذ ارتدى ثيابه واحتسى الشاي ، سار الى انفاذة . وشعر
بميل الى أن يخرج ويتمشى ويتخلص من الافكار التي راحت
تطارده ، فارتدى معطفه وخرج الى الطريق . وكانت الشمس
قد توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء ، واخذت
الظلمة تزحف .. وكان الجو دافئا بالنسبة لما هو مألوف في
الشتاء ، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط
في بطء الى الطريق الموحلة .. وفجأة ، غشى الشاب اسي
لايطاق ، اذ تذكر أنه نام طيلة النهار الذي اشرف على نهايته .
وقال لنفسه : « ان هذا اليوم ، الذي يحتضر الآن ، لا يمكن
ان يسترد ثانيه » .. ثم قال لنفسه فجأة : « لقد دمرت
شبابي ! » .. لم يقلها لانه فكر حقا في أنه قد دمر شبابه — فالواقع
ان هذا لم يخطر بباله اطلاقا — وانما قالها لانها عرضت لذهنه
مصادفة ! .. وعاد يسائل نفسه : « ما الذي ينبغي أن افعله
الآن ؟ .. اقترض من شخص ما ، وابادر الى الرحيل ؟ » ..
ومرت به في تلك الاثناء سيدة كانت تسير على الرصيف ، فقال
لنفسه لسبب لم يدره : « ها هي ذى امرأة غبية ! » . ثم عاد
يقول : « ما من أحد هنا اقترض منه .. لقد دمرت شبابي ! »
وبلغ السوق ، فاذا بتاجر يقف لدى باب حانوته — في معطف
من فراء الثعلب — يجتذب العملاء .. ومضى الشاب يقول
لنفسه : « لو لم اسحب تلك الثمانية ، تكن قد استطعت أن
أن أعوض خسائري ! » .. وتبعته متسولة عجوز ، لا تكف عن
الغمظة .. وظل هو يردد : « ما من أحد اقترض منه ! » ..
ومر به رجل في معطف من جلد الدب ، يسوق عربة .. وكان
ثمة شرطى يقف في المركز المعين له .. وراح الشاب يقول
لنفسه : « أى عمل غير عادى أستطيع أن آتيه ؟ اطلق أثار

عليهم لا ، ان هذا غباء .. لقد دمرت شبابي ! .. آه .
ها هي بعض سروج بديعة لاعناق الخيل ، وركابات ، معلقة
هناك ! آه ، لو كان بوسمى ان انطلق في عربة تجرها ثلاثة
جياد .. واما للحسان هناك ! .. لسوف أعود . وسياتي
« لوخنوف » عما قليل : ونلعب ! »

وعاد الى الفندق ، فأخذ يحصى نقوده من جديد .. لا ،
لم يكن قد أخطأ في شيء - في المرة الاولى - فلا يزال ينقص
نقود التاج ألفان وخمسمائة روبل .. وقال لنفسه : « سأرمي
خمسة وعشرين روبل ، ثم أطلب كشف الورق .. سأضاعفها
الى سبعة أمثالها ، ثم الى خمسة عشر مثلاً ، ثم ثلاثين ، ثم
ستين .. ثلاثة آلاف روبل . وإذا ذاك سابتاع أطواق الجياد ،
وارحل .. لن يدعني الوغد أفلت ! .. لقد دمرت شبابي ! »
وهذا ما كان يدور في رأس فارس « الاوغلان » عندما دخل
عليه « لوخنوف » الحجرة ، وسأله وهو يرفع - في تباطؤ -
العوينتين الذهبيتين عن أنفه النحيل ، ويمسحهما بمنديل
حريرى أحمر ، في منية : « هل استيقظت منذ أمد طويل
يا ميخائيل فاسيليتش ؟ »

- لا ، بل اننى لم استيقظ الا من أمد قصير .. لقد نمت
نوما عميقا ، على غير عادتي !

- لقد وصل أحد ضباط كتية الفرسان الخفيفة ، على
ما أعتقد .. وقد نزل على حجرة زافالشيفسكى . هل سمعته؟
- لا ، لم اسمع .. ولكن ، كيف تعلل عدم وصول أحد الى
هنا حتى الآن ؟

- لا بد انهم ذهبوا الى دار برياخين .. ولن يلبثوا ان
ياتوا الى هنا فوراً .

وهذا ما حدث فعلاً ، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد
ضباط الحامية - وكان قد اعتاد أن يلزم «لوخنوف» دائماً -
وتاجر يوناني له أنف ضخمة أسمر معقوف وعينان سوداوان

غائرتان ، ورجل سمين منتفخ من اصحاب الارض ، وصاحب مصنع للتقطير العتاد أن يلعب في كل الامسيات ، وأن يراهن بمبالغ رهزية ، تتمثل دائما في نصف روبل في كل مرة .. ورغب الجميع في أن يبدأوا اللعب بأسرع ما يمكن ، ولكن المقامرين الرئيسيين لم يسيروا الى الموضوع بشيء ، لا سيما لوخنوف الذي راح يروى - في صوت هادئ للغاية - قصة سرقة وقعت في (موسكو) . واخذ يقول : « تصوروا .. مدينة منل مرسكو ، العاصمة التاريخية ، والمركز الرئيسى للدولة .. فيها رجال يتكرون في زى شياطين ، وينطلقون في أرجائها مع قطاع الطرق ، يرهبون الاغبياء ويسرقون المارة .. هذه هى النهاية ! .. فيم اذن وجود الشرطة ؟ .. هذا هو السؤال ! »

وانصت فارس « الاوغلان » الى قصة اللصوص بانتباه . ولكنه ما لبث - عندما ساد الصمت برهة - أن نهض وأمر بهدوء بشراء ورق للعب . وكان صاحب الارض البدين هو أول المتكلمين ، اذ تساءل : « وبعد يا سادة .. فيم تبديد الوقت الثمين ؟ اذا كنا نريد العمل ، فلنبدا ! » .. وقال انيونانى : « أجل ، فأنت قد أنصرفت بكومة من انصاف الروبلات ليلة أمس ، ولهذا فقد أجبت العملية ! » .. وقال ضابط الحامية : « أعتقد أننا يجب أن نبدأ ! »

ونظر « ايلين » الى « لوخنوف » ، ففسد لوخنوف بصره اليه في هدوء - وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزوا بزى الشياطين ، واصطنعوا لانفسهم مخالب .. وسأل فارس الاوغلان صاحبه : « هل تتولى (البنك) ؟ » - الا ترى ان الوقت جد مبكر ؟

فسمح فارس الاوغلان ، وقد تضرع وجهه لسبب غير معروف : « مرحى ! .. آتونى بشيء للعشاء ، فما تناولت بعد شيئا ، أبها السادة ! .. زجاجة من الشمبانيا ، وبعض مجموعات من اوراق اللعب ! »

وفي تلك اللحظة ، ولج الكونت وزافالشيفسكى الحجرة .
 وظهر أن « توريين » و « ايلين » كانا يتبعان قرقة واحدة ،
 فمال كل منهما الى الآخر فوراً ، وتقارعا الكؤوس ، واحسبوا
 الشمبانيا معا ، وتوثقت بينهما الالفة والمودة في خمس دقائق !
 .. ولاح أن الكونت قد أحب « ايلين » كثيراً ، فقد راح ينظر
 اليه مبتسماً ، ويداعبه مازحاً بشأن صغر سنه . فقد قال :
 « هاكم أوغلاني من الصنف الصحيح ! .. يا لشاربيه ! ..
 عجباً ، أى شاربين هذان ! »

وكان ما لدى ايلين من شاربين ، لا يتجاوز خطأ خفيفاً ،
 من زغب أبيض ! .. وعاد الكونت يقول : « أحسبك ستأبى ؟
 .. حسناً ، أتمنى لك حظاً يا ايلين ! » ثم أردف وهو يتسهم :
 « ما أخالك إلا أستاذاً في اللعب ! » . فقال لوخنوف ، وهو
 يمزق غلاف علبة ضمت اثنتى عشرة مجموعة من ورق اللعب :
 « أجل .. ولسوف يبلطون اللعب ، وستنضم أنت الآخر يا
 كونت .. اليس كذلك ؟ »

— لا ، ليس اليوم ، فانى قهين بأن أجردكم جميعاً من
 نقودكم إذا لعبت .. اننى حين أبدأ فى « الاهتمام » الصادق
 باللعب ، فإن (البنك) يشرع فى التداعى ! .. لقد نظفوا جيوبى
 فى إحدى المحطات القريبة من (فولوتشوك) ، فقد التقيت
 هناك شباب من فرقة المشاة ، يزين أصابعه بنخواتهم ..
 وأحسب أنه غشاش .. وقد استطاع أن يعجردنى تماماً من
 نقودى !

فسأله ايلين : « ولماذا أظلت المكث فى تلك المحطة ؟ »

— انما جلست هناك أربعاً وعشرين ساعة . ولن أنسى قط
 تلك المحطة العينة ! .. ولن ينسانى المشرف عليها ، هو الآخر ..
 — وكيف ذلك ؟

— لقد وصلت فى مركبتى الى هناك ، كما هو معروف .
 وإذا بالمشرف على المحطة يندفع لاستقبالى — وقد بدا كقطاع

الطريق - وبادرنى قائلا : « لا جياذ ! » . ونجديزينى ان اتخبركم - عند هذه النقطة - ان من عادتى اذا لم أجذ جياذا ، ان لا اخلع معطفى المصنوع من الفراء ، وان اذهب الى غرفة المشرف . . أجل ، الى غرفته الخاصة ، وليس الى الغرفة العامة . . وأمرت بأن تفتح جميع النوافذ والابواب ، متعللا بأن جو الغرفة كان مشبعاً بالدخان . . أجل ، هذا ما فعلته هناك . وأنتم تذكرون أى صقيع نزل علينا فى الشهر الماضى . . كانت درجة الحرارة حوالى العشرين درجة ! (١) . . وشرع المشرف يجادلنى ، فلكنت رأسه . وكانت ثمة امرأة عجوز ، وبنت ، ونسوة أخريات ، اشتركن جميعاً فى إثارة الشغب والتبظن أو عيتهن وأوانيتهن وقد عولن على أن يندفعن صوب القرية . فسرت الى الباب ، وقلت : « آتونى بجياذ ، أرحل لفورى . فان لم تمكنونى ، فلن يخرج منكم أحد ، وسأدع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم فى عروقكم ! »

وصاح مالك الارض البدين ، وهو يتقلب فى مقعده لفرط الضحك : « انها لخطئة جهنمية رائعة ! . . انها الطريقة التى يقضون بها على الصراصر بالتجمد . . . »

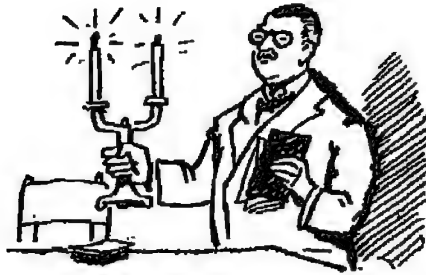
- ولكننى لم اكن حذرا فى انتباهى ، فاستطاع المشرف ان يخرج من المبنى مع النسوة ، ولم تبق سوى امرأة عجوز ، جلست على الفرن رهينة . . وأخذت تعطس وتتلو صلواتها . وما لبثنا أن شرعنا نتفاوض بعد ذلك ، فاقبل المشرف وأخذ يفربنى - عن بعد - بأن أخلى سبيل المرأة العجوز . ولكننى أطلقت عليه « بلوخر » قليلا . . و « بلوخر » رائع فى مداعبة المشرفين على محطات البريد ! . . ومع ذلك ، فان الوغد ظل يأبى أن يمكننى من الحصول على الجياذ قبل صباح اليوم

(١) ٢٠ درجة بمقياس ريامور ، وهى تعادل ٢٥ درجة مئوية . ويلاحظ ان درجة الحرارة العادية للانسان حوالى ٣٠ درجة ريامور ، أى ٢٧ مئوية .

التالى .. وفى تلك الاثناء ، اقبل ذلك الشاب التابع للمشاة ، فانضممت اليه فى خجرة اخرى ، وشرعنا نلعب ... هل رايتم بلوخر ؟

ورفع عقيرته بالنداء : « بلوخر ! » ، واردفه بصغير . فاقبل « بلوخر » مهرعا .. وتلطف اللاعبون فابدوا نحوه بعض الاهتمام ، وان كان من الجلى انهم كانوا راغبين فى الانصراف الى مسائل اخرى غير هذه .. وما لبث توربين ان قال : « ولكن ، لماذا لا تلعبون يا سادة ؟ .. ارجو ان لاتدعوني احول بينكم وبين اللعب ، فانا ثرثار ، كما ترون .. ان اللعب لعب ، سواء شاء المرء أو لم يشأ ! »

« ٣ »



• قرب « لوخنوف » شمعتين من مجلسه ، وأخرج حافظة نقود كبيرة ، بنية اللون ، مليئة بالاوراق المالية ، ففتحها على المنضدة بتؤدة .. وكأنه يؤدى بعض الطقوس .. وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل ، فوضعهما تحت اوراق اللعب . وقال وهو يسوي من وضع عوينتيه ، ويفتح مجموعة من اوراق اللعب : « مائتان للبنك .. تماما كأمس ! » . فقال ايلين وهو ماض فى حديثه مع توربين ، دون أن ينظر الى لوخنوف : « حسنا جدا ! »

وبدا اللعب (١) . واخذ لوخنوف يؤذع الأوراق في دقة الآلهة ، متوقفاً من أن لآخر عن تعمد ، ليكتب رقما ، أوليوجه من فوق حافتي عوينتيه نظرة صارخة ، وهو يقول في صوت منخفض ، ملء بالنبرات : « ناول ! » . وكان صاحب الأرض البدين هو أعلى الجميع صوتا في كلامه ، وهو يجادل نفسه جهارا ، ثم يرطب أصابعه المثلثة الطرية ، عندما يثنى ركن ورقة . وكان ضابط الحامية يسجل في صمت ودقة المبالغ التي يراهن بها على ورقته ، ويثنى أطرافا صغيرة من الأركان، تحت المنضدة . أما اليوناني فكان يجلس بجوار المشرف على (البنك) ، يراقب اللعب بانتباه - بعينيه الغائرتين - وهو يبدو كمن يترب شيئا ، وكان « زافالشيفسكى » يقف بجوار المائدة ، ثم لا يلبث أن يتململ في وقفته فجأة ، ويتناول من جيب سرواله (بنطلونه) ورقة مالية حمراء أو زرقاء (٢) ، فيضعها على ورقة اللعب التي تكون أمامه ، ثم يدق عليها بكفه ، قائلا : « سبعة متواضعة . . وزع لي ! » . ويروح بعض طرفي شاربيه ، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم إلى

(١) اللعبة المقصودة هنا هي « الشتوس » ، وقد كانت رائجة في روسيا . وعلى عليها الزمن ، فانقرضت . . وفيها يختار اللاعبون لأنفسهم أوراقا من مجموعات على المائدة ، ويضعون المبالغ التي يراهنون بها على أوراقهم أو تحتها . ويحفظ المشرف على « البنك » مجموعة كاملة من الأوراق ، يوزع منها على الجالسين إلى اليمين والجالسين إلى اليسار ، على التوالي . فالأوراق التي توزع إلى اليمين يكون كسبها له ، والتي توزع إلى اليسار ، يكون كسبها اللاعب . ومن مصطلحاتها « ناول ! » ، لتذكير اللاعبين بتسليم المبالغ التي يكونون مدينين بها للبنك ، و « مفردات » أي مراهات فردية . ويضاعف اللاعب رهانه مرتين أو ثلاثا بأن يثنى أركان البورقة التي في يده ليكشفها ، إذ تكون موضوعة وظهرها إلى أعلى . . و « التمرير » يضاعف الرهان ستة أمثاله .

(٢) كانت الأوراق ذات الخمسة روبلات زرقاء . . وذات العشرة حمراء .

قدم ، ولا يكف عن التملل الى أن توزع عليه ورقة أخرى ..
 وراح « ايلين » يأكل شرائح من لحم البقر والخيار المملح ،
 وضعت على أريكة من شعر الخيل ، ثم أسرع فمسح يديه في
 سترته ، وأخذ يلقي ورقة بعد أخرى . أما « توريين » التي
 كان جالسا - في بادئ الامر - على الأريكة ، فالتفت سرعان ما
 ادرك تطورات الموقف . ولم يكن « لوخنوف » ينظر الى
 « ايلين » أو يخاطبه ، بيد أن عوينتيه كانتا تتحولان نحو
 يدي الشاب من أن الى آخر ، وتستقر نظراته عليهما اذلة
 .. ولكن معظم أوراق « ايلين » كانت خاسرة !

وما لبث « لوخنوف » أن قال ، مشمرا الى ورقة القاها
 صاحب الأرض البدين ، الذي كان يقامر بأنصاف الروبلات :
 « آه ، اننى أود أن أضرب هذه الورقة » . فقال المالك :
 « لك أن تضرب ورقة ايلين ، ودعك منى ! » .. وفعلا كانت
 أوراق ايلين أكثر خسارة من أوراق الآخرين ، حتى أنه كان
 يمزق كل ورقة خاسرة - تحت المائدة - وهو منفعل ، ثم
 يختار ورقة أخرى بأصابع مرتجفة . ونهض « توريين » عن
 الأريكة ، وسأل اليونانى أن يدعه يجلس مكانه الى جوار
 المشرف على (البنك) . فانتقل اليونانى الى مكان آخر ،
 وشغل الكونت مقعده ، وبدأ يراقب يدي « لوخنوف » بامعان ،
 لا يحرك عينيه عنهما .

وفجأة ، قال الكونت بصوته العادى ، الذي طمى على جميع
 الاصوات دون قصد منه : « ايلين ! .. لماذا تلزم طريقة جامدة
 في اللعب ؟ .. انك لا تعرف كيف تلعب »

- كل الطرق سواء في اللعب

- ولكنك تخسر بهذه الطريقة . دعنى اللعب بدلا منك !

- لا ، أرجو أن تسمح لى .. اننى دائما ما ألعب لنفسى ،
 فألعب لنفسك اذا شئت .

- قلت من قبل اننى لن ألعب لخصائى ، ولكنى أود أن ألعب

لحسابك ، فأنى مستاء لانك تخسر !
— أرى ان هذا حظى . . قدر مكتوب على !

وصمت الكونت ، ولكنه مال على المائدة معتمدا على مرقيقه ،
وعاد يتأمل يدي المشرف على (البنك) بامعان . وفجأة ، قال
بصوت عال ، وهو يطيل الكلمة : « فطيع ! » . فتطلع اليه
(لوخنوف) ، وإذا به يردد بصوت أكثر ارتفاعا ، وهو يصدق
في عينى (لوخنوف) مباشرة : « فطيع ! . . فطيع جدا ! »
واستمر اللعب . . ومرة أخرى ، صاح توربين ، وقد ضرب
« لوخنوف » ورقة كان « ايلين » قد قامر عليها بمبلغ كبير :
« ليس هذا من الصواب فى شيء ! » . . فتساءل المشرف على
(البنك) فى عدم اكتراث مهذب : « ما الذى لا يروق لك
يا كونت ؟ »

— هنا ! . . انك تدع ايلين يكسب مراهناته المفردة ، ثم
تقلبه فى المراهنات المضاعفة . . هذا هو موطن السوء فى الامر !
وحرك « لوخنوف » حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة ، ايماء
الى انه كان ينصح بالتسليم للحظ والقدر فى كل شيء ، وواصل
اللعب . فصاح الكونت : « بلوخر ! » . ونهض مرسلا صفيرا
استدعى به الكلب ، ثم اردف بسرعة : « عليك به ! »
وارتطم ظهر « بلوخر » بالاريغة وهو يشب من تحتها ، فكاد
يقطب ضابط الحامية ، وهرع نحو مولاه مزجرا ، ثم راح يتلفت
ناظرا الى كل امرئ ، وهو يهز ذيله ، وكأنه يتساءل : « من ذا
الذى يسىء التصرف هنا ! . . هه ؟ »

والقى « لوخنوف » بالاوراق التى كانت فى يده ، وازاح
مقعده جانبا ، وقال : « ليس يوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل
اننى أكره الكلاب . . أى نوع من اللعب يصيح ، اذا ما احضرت
الى هنا فرقة من كلاب الصيد ؟ » . فغمغم ضابط الحامية :

« لا سيما اذا كانت كهذا الكلب » .. والتفت لوخنوف الى مضيفهم قائلا : « وبعد .. هل سنلعب يا ميخائيل فاسيليتش او ترانا لن نلعب ؟ » . فانتفت ايلين الى توربين قائلا : « أرجو ان لا تتدخل بيننا يا كونت ! » . فقال توربين وهو يمسك بدارع ايلين ويذهب به الى وراء حاجز خشبي في الحجرة : « تعال معي لدقيقة ! »

وكانت كلمات الكونت - التي قاتها بصوته المهود - مسموعة بجلاء من خلف الحاجز ، فقد كانت طبقة صوته تسرى عبر ثلاث حجرات دائما :

- أنت مغفل ، هه ؟ ألا ترى ان ذلك السيد ذا العوينتين غشاش من الدرجة الاولى ؟

- دعك من هذا ، كفى ! .. ما هذا الذي تقول ؟

- لا مجال لـ ((كفى)) في هذا الامر ! .. اننى اناشدك ان تكف عن اللعب . ان الامر لا يهمنى في شيء ، ولو أننا كنا في ظروف أخرى ، لاستنزفت أموالك بنفسى ، ولكننى - لسبب لا أدريه - أسف اذ أراك تجرد من ريشك . ولعلك تحمل شيئا من أموال التاج كذلك ؟

- لا ... لماذا تتوهم أمورا كهذه ؟

- آه ، يا فتاى ! .. لقد كنت أنا الآخر مثلك ، ومن ثم فأننى أعرف كل حيل أولئك الغشاشين . اننى أؤكد لك ان الرجل ذا العوينتين غشاش ، فكف عن اللعب ! اننى اناشدك كزميل فى السلاح !

- ليكن ذلك اذن ، فقط سأفرغ من هذا الدور وحده .

- اننى أدري ما وراء ((دور واحد)) . حسنا ، لسوف نرى!

وعادا .. وفى هذا الدور الواحد ،لقى ايلين بكثير من الاوراق ، راهن عليها بكثير من النقود ، حتى أنه عندما خسر فقد مبلغا باهظا . واذا ذاك ، وضع توربين يديه فى وسط المائدة ، وصاح : « الآن ، كف عن اللعب ، وتعال ! » .. فقال

ايلين فى انفعال ، وهو يعث ببعض اوراق مطوية ، دون ان ينظر الى توربين : « لا ، لست استطيع . دعنى وشائى ! »
 - حسنا ، اذهب الى الشيطان ، اذن ! استمر فى الخسارة المؤكدة ، اذا كان هذا يروق لك . لقد حان لى ان أنصرف .
 فلنذهب الى حفلة « المارشال » يا زالفالشيفسكى !
 وانصرفا . وظل الذين مكثوا صامتين ، ولم يعد لoxنوف يوزع اوراقا الى ان غاب . وقع اقدامهما ، وخفت وقع مخالب « بلوخر » على ارض اللدهة . واذا ذاك قال مالك الارض ، وهو يضحك : « يا له من رجل ، كانه الشيطان ! »
 فقعب ضابط الحامية ، وهو لا يزال يهمس وينطق الكلمات فى عجلة : « حسنا . . انه لن يتدخل فى اللعب ثانية ! »
 وعادوا يستأنفون اللعب .

« ع » -

• وما ان صدرت اشارة معينة ، حتى عزفت الفرقة الموسيقية ، المؤلفة من بعض عبيد المارشال - وقد وقفوا فى مخزن المؤن (الكرار) بعد ان اخلى مما كان به ، لهذه المناسبة ، وشمروا عن اكمامهم استعدادا - للحن البولندى القديم « الكسندر وليزابيث » . . وتحت الاضواء المشرقة الناعمة - الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم - تقدم حاكم عام من عهد « كاترين » ، تزين صدره نجمة ، وقد تأبط ذراع زوجة المارشال النحيلة الهزيلة . . فشرع الباقون من علية القوم ينسابون رويدا - مع زميلاتهم - على الارض الخشبية المضقولة ، فى قاعة الرقص الكبيرة ، فى تجمعات عديدة ومتباينة . . وهنا دخل « زالفالشيفسكى » مرتديا جوربين طويلين ، وحذاءين طويلين كذلك ، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع وياقة واسعة من اللباد ، وقد تصاعد منه عبير قوى . . عبير



عطر الياسمين الهندي الذي نثر بغزارة على صدر سترته ،
ومندبله ، وشاربيه .

أما الضابط المليح ، المنتفى الى كتيبة الفرسان الخفيفة ،
والذي اقبل معه ، فكان يرتدى سروالا (بنطلون) ذا لون
أزرق خفيف ، من سراويل ركوب الخيل ، وقد أجكم حول
جسمه احكاما تاما ، وسترة قرمزية موشاة بالذهب ، ثبت
الى صدرها صليب فلاديمير ، فوسام سنة ١٨١٢ (١) . وما
كان الكونت بالرجل الطويل ، ولكن جسمه كان بديع البنيان
بدرجة تلفت الانظار . وكانت عيناه - اللتان امتازتا بزرقة
صافية وبريق شديد - وشعره البنى القاتم الشديد التجعد ،
تصفى طابعا رائعا على جماله . وكان مقدمه الى الحفلة الراقصة
متوقعا ، اذ أن الشاب المليح الذي رآه في الفندق ، كان قد هيا
« المارشال » لذلك . وكان النبأ قد احدث آثارا عذبة ، لم
تكن - في اغلبها - سارة !.. فقد كان رأى الرجال ، والسيدات
المسنات ، يتمثل في : « ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا
الشاب للسخرية ! » .. أما السيدات اللاتي لم يتجاوزن
الشباب - متزوجات او غير متزوجات - فنن ما جنال
بخواطرن ، لم يخرج عن : « ماذا يكون لو انه هرب بي ؟ » !
وما ان انتهى لحن الرقصة البولندية ، وانحنى كل راقص

(١) ميدالية كانت تمنح لمن ابل في الدفاع عن روسيا ضد نابليون .

لمن راقصته فبادلته بدورها الانحناء ، حتى افترقوا فبتقاربت
 انفساء في فريق ، والتم الرجال في فريق آخر .. واذ
 ذاك ، قدم « زافالشيفسكى » الكونت الى ربة القصر ، وهو
 فخور ، مفتبط .. وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسرى
 في اعماقها ، خشية أن يوليها هذا الفارس الشساب معاملة
 قاضحة امام الجميع ، فأشاحت في ترفع وازورار ، وهي تقول :
 « يسرنى كل السرور أن أراك ، وأمل أن تنعم بالرقص ! » .
 ثم رمقته بنظرة متريية ، وكأنها تقول : « تذكر أنك اذا جرحت
 شعور امرأة ، فسيثبت لى هذا أنك شقى زنيم ! »
 على ان الكونت سرعان ما هزم مخاوفها ورأيها السيء عنه
 بلطفه ، ومسلكه الذى نم عن فطنة ورعاية ، ومظهره الوسيم
 انطروب ، ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس ، حتى كان التعبير
 الذى ارتسم على وجه زوجة المارشال بنىء القوم : « اننى
 خيرة بترويض السادة الذين من هذا القبيل ، فقد أدرك
 لغوره من التتى يعاملها ، ومن ثم فسوف يظل يبدى لى مسلكا
 رائعا طيلة السهرة ! » . وفوق ذلك ، فان حاكم البلدة - الذى
 كان على معرفة بوالد الكونت - سعى اليه ، فى تلك اللحظة ،
 وانتحى به جانبا ، وهو فى بشاشة بالغة ، وراح يتحدث معه ،
 مما زاد من طمأنينة المجتمع الريفى الموجود ، ورفع من تقدير
 القوم للكونت .

★ ★ ★

وما لبث زافالشيفسكى ان قدم الكونت - بعد ذلك - الى
 أخته .. وكانت أرملة شابة سمينة فى التفاف ، لم تفارق
 حينهاها السوداء وان الواسعتان الكونت منذ اللحظة التى ولج
 فيها القاعة . وسألها الكونت ان تراقصه « الفالس » الذى
 كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه ، واذ ذاك تبذدت
 البقية الباقية من الآراء التى كانت قد خامرت القوم ، حين

راوا طريقته البارة في الرقص !
وقالت سيدة بدينة ، من صاحبات الأرض ، وهي ترقب
ساقيه في سروال الركوب الأزرق ، وقد راحتا تنتقلان على
أرض الحجر في رشاقة ونخفة : « يانه من راقص بديع ! » .
واخذت تحسب حركات قدميه في سريرتها : « واحدة ، اثنان ،
ثلاث .. واحدة ، اثنان ، ثلاث .. رائع ! » .. وقال آخر ،
وكان زائرا للمدينة لا يعده مجتمعها المحلي من عليه القوم :
« انظر كيف يمضي .. جيغ ، جيغ ، جيغ ! .. كيف يتفادي
أن يرتطم مهمازاه معا ؟ .. انه لرائع ، حاذق ! »

وبهر رقص الكونت أغني الانظار ، حتى طغى على تالق خير
ثلاثة راقصين في الاقليم ، وهم : ياور الحاكم ، الطويل الاشقر
الشعر ، الذي امتاز بسرعته في الرقص ، وبانه كان يشد
زميلته الى صدره .. والفارس المتقاعد ، الذي اشتهر بحركاته
المتزنة الرشيقة في رقصة « الفالس » ، وبالذقات المتوالية
الخفيفة التي كان يوقعها على الأرض بكعبيه .. وشخص من
المدنيين ، كان كل امرئ يقول انه لم يكن نبيا جدا . ولكنه
كان راقصا من الدرجة الاولى ، وكان زوج كل حفلة راقصة ..
واتوقع أن هذا الشخص كان يسأل كل السيدات ان يراقصنه ،
كلا بدورها ، بترتيب مجلسها (١) ، ولم يكن يتوقف قط ،
اللهم الا في فترات عابرة ، ليجفف العرق عن وجهه - الذي
كأن يحتفظ ببشاشته رغم علامات الارهاق - بمنديل مندي
من الكتان الناعم .

لقد طغى الكونت على تالقه جميعا ، ورقص مع ارقى ثلاث
سيدات : السيدة الطويلة ، الغنية ، المليحة ، الغبية ! ..
والسيدة المتوسطة الطول ، النحيلة ، التي لم تكن بارة الحسن

(١) كانت العادة ان لا يراقص الرجل سيدة رقصة باكملها . بل يدور بها
بضع جولات ، ثم يقودها الى مقعدها ، وينحني لها .. ثم ينشد سواها

ولكنها كانت بديعة الملبس .. والسيدة التي كانت قلة في الجسم ، خالية من الحسن ، ولكنها كانت حاذقة في الرقص .. ورقص توربين مع اخريات كذلك .. مع جميع الحسان ، وقد كن كثيرات هناك .. ولكن اخت زافالشييفسكى - الارملة الشابة - كانت خير من رقص له من النساء . فرقص معها رقصة من نوع « الكدريل » ، واخرى ايقوسية ، وثالثة من رقصات « مازوركا » .. وعندما جلسا معا - خلال « الكدريل » - شرع يفدق عليها مجاملاته ، فشبهها بفينوس وديانا ، وبالأوردة ، وبنوع آخر من الزهور . ولكن كل هذه المجاملات لم تؤد الا الى ان كانت الارملة تحنى عنقها البض ، وتنكس عينيها فتنظر الى ثوبها « الموسلين » الابيض ، او تنقل مروحتها من يد الى يد ، ولكنها عندما كانت تقول : « لا تفرق يا كونت ، فما اراك الا تمزح ! » - وما الى ذلك من كلمات - كانت تقولها في بساطة ساذجة ، وخفر مثير ، بصوتها اللذي كان ينبعث من اعماق الحلق قليلا ، حتى لقد كان الناظر اليها يراها زهرة - في الواقع - وليست امرأة .. وزهرة ليست من النوع المألوف ، وانما من تلك الزهور البرية الفخمة ، القديمة العبر ، ذات اللون الابيض المشرب بعمرة وردية .. زهرة من هذا النوع ، نمت وحيدة ، وسط سيل من الجليد في مكان قاء سهيق !

هذه المزيج من السذاجة وعدم مشابهة النسوة المألوفات ، مع نصارة جمالها ، احدث في نفس الكونت اثرا غريبا ، حتى لقد تملكته الرغبة مرارا - اثناء فترات الصمت ، وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البديع وذراعيها الجميلتين - في ان يحتويها بين ذراعيه ، ويفرقها بقبلاته .. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة ، حتى لقد اضطر الى ان يبذل مجهودا جديا في مقاومتها ! .. ولاحظت الارملة - في اغتباط - الاثر الذي أحدثته في نفسه ، بيد ان شيئا في سلوك الكونت بدا يوقع

الرهبة في نفسها ويشيرها - في آن واحد - مع ان الضابط
 الفارسي الشاب كان ، بالرغم من لطفه الفتان ، يبسدي لها من
 الاحترام ما قد يعتبر - في ايماننا هذه - ممجوجا ! .. فقد
 هرع ليحتلب لها شرابا من عصير اللوز ، والتقط منديلها ،
 واختطف لها مقعدا من يد شاب من الايمان - مصاب بالدرن
 الغنزي - كان يتراقص حولها ليظهر بها سريعا .. وهكذا .
 وعندما لاحظ ان المجاملات التي اصطلح عليها مجتمع
 زمنهما كانت قليلة التأثير على السيدة ، حاول ان يطربها بان
 راج يروي لها قصصا مضحكة ، ويؤكد لها انه كان على استعداد
 لان يقف على راسه ، او ان يصيح كالديك ، او ان يقفز من
 النافذة ، او ان يغوص في الماء خلال ثغرة في الجليد ، اذا هي
 امرته بان يفعل شيئا من ذلك . واسفرت هذه الطريقة عن
 نجاح ، فقد اشرق مجيا الارملة ، وانطلقت في سيل من الضحكات
 ذات الرنين العذب ، كاشفة عن اسنان بيضاء جميلة ..
 ورضيت كل الرضى عن فارسها . واخذ الكونت يزداد حبا
 لها دقيقة بعد أخرى ، فلم تنته رقصة « الكندريل » حتى كان
 مدلهلها يهواها حقا ! .. وعندما تقدم اليها المعجب المفتون - ابن
 الثمانية عشر عاما - الذي طال به الوقوف في انتظارها (وهو
 عين الشاب المدرن الذي اختطف منه توربين المقعد . وقد كان
 ابن افنى مائك للارض في المنطقة) تلقتة الارملة في فتور بالغ ،
 ولم تبد عشر ما كانت قد خبرته من انفعال في صحبة الكونت ! ..
 وقالت له ، وهي لا تنفك تنظر الى « توربين » ، وتقدر - دون
 ان تفطن - عدد الاياردات من الخيط الذهبي المجدول ، الذي
 تطلبه وشى سترته : « انك كريم ! ألم تكن قد وعدتني بان تأتي
 لتصطحبني الى الحفلة ، وان تحضر لي بعض الحلوى » .
 فأجاب الفتى الذي كان ذا صوت رفيع حاد ، رغم طول قامته :
 « لقد ذهبت اليك يا آنا فيدوروفنا ، ولكنك كنت قد خرجت .
 وقد تركت قسطا من افخر الحلوى لك ! »

— انك تجيد انتحال المعاذير دائما ! .. لست اريد حلواك ..
فقال : « ارى انك قد تغيرت نحوي يا آنا فيدوروفنا ، واتى
 لاعرفك السبب . ولكنك لست على صواب » ، ولم يقو على
 أن يتم حديثه ، إذ أن الانفعال الذي جاش في أعواقه ، جعل
 شفقيه تختلجان بسرعة ودرجة عجيبتين . ولم تنصت اليه
 « آنا فيدوروفنا » ، بل راحت تتبع توربين بعينيها .
 وأقبل رب البيت — المارشال الكهل البدين ، الفخم المنظر ،
 العديم الاسنان — فتقدم من الكونت ، وتأبط ذراعه ، ودعاه
 الى حجرة مكتبه ليدخنا ويشربا كأسا . وما أن بارح توربين
 القاعة ، حتى أحسست « آنا فيدوروفنا » أنه لم يعد لها ما تفعله
 هناك ، فابرجت القاعة الى غرفة الزينة ، متأبطة ذراع صديقة
 لها .. عذراء مسنة ، بارزة العظام ! .. وسألتها العذراء :
 « أظريف هو ؟ » . فأجابتها آنا فيدوروفنا ، وهي تسير الى
 المرأة فتتأمل صورتها : « إنما يضايقنى ظرفه ! » .. وأشرق
 وجهها ، وضحكت عيناها ، بل وتضرج وجوها . ثم راحت
 تطوف بالحجرة — فجأة — على قدم واحدة ، مقامة راقصات
 « الباليه » اللاتي رأتهن أثناء الانتخابات .. ثم اطلقت ضحكها
 الذي كان ينبعث من أعماق حلقها ، ولكنه كان طربوا عذبا ،
 واثنت ركبتيها ، ثم وثبتت وهي تقول : « تصورى أى رجل
 هو ! .. لقد ذهب به الأمر الى درجة أن سألتنى تذكارا .
 ولكنه لن يظفر بـ .. شيء .. ما ! » . وكأنما كانت تتغنى
 بالعامتين الأخيرتين !



وكثفت في غرفة المكتب — حيث اصطحب المارشال توربين
 — زجاجات من مختلف أنواع الفودكا ، والمشروبات الروحية
 الحلوة المذاق ، والشمبانيا ، فضلا عن الشطائر والمشهيات .
 وكان الاعيان الذين راخوا يتمشون في الحجرة ، أو جلسوا

وسط سحب من دخان انتبغ ، يتحدثون عن الانتخابات . فكان قائد الشرطة الذي انتخب حديثا يقول : « أما وقد شرفه مجتمع اعياننا المبجل بانتخابه ، فما كان له - بأى حال من الاحوال - أن يتجاوز حده ، متحديا المجتمع بأسره . . . » . على أن دخول الكونت قطع الحديث ، اذ رغب كل امرئ في أن يتعرف اليه ، وظل قائد الشرطة - بوجه خاص - يضغط يد الكونت طويلا ، ويسأله ملحفا أن لا يرفض أن يرافقه الى المطعم الجديد الذى كان قد دعا السادة اليه عقب الرقص ، وحيث كان الفجر يقنن . فوعده الكونت بأن يلبي العسوة ، وشرب معه بضع كؤوس من الشهبانيا !

وقال الكونت وهو يهم بمبارحة الحجرة : « ولكن ، لم لا رقصون يا سادة ؟ » . فرد قائد الشرطة ضاحكا : « لسنا راقصين ، بل الخمر أحب الينا يا كونت . ثم اننى رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حدثتھن يا كونت ! . . على اننى أستطيع أن أودى خطوات الرقصة الايقوسية من آن الى آخر ! » . فقال توربين : « اذن فتعال وارقص دورا ، فان هذا كفيل بأن يهجننا قبل أن نذهب ونسمع الفجر ! » .

وهم ثلاثة اواربعة من النبلاء انذين كانوا يشربون الخمر في حجرة المكتب - منذ بداية الحفلة - أن يتبعوا الكونت الى قاعة الرقص ، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه المدرن . وتعرض للكونت وقد غاض اونه ، وراح يحبس دمه بعناء ، وهسيو يقول : « انظن أن بوسحك أن ترتطم بالناس المحيطين بك ، وكأنك في سوق عامة ، لمجرد أنك كونت ؟ » . واخذ يتنفس بعناء ، وهو يردف : « هذه قلة أدب . . » . ومن حينئذ ، حست شفتاه أن ترتجفتان الكاهات ، بالرغم مما كان يبذل من جهد . فصاح توربين ، وهو يعبس فجأة : « ماذا ؟ . . ماذا أيها الوالد المدبل ؟ ! » . وأمسك بذراعيه ، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم الى رأس الشاب من الخوف ، أكثر مما كان

من الاستياء .. وعاد الكونت يصيح : « اتريد النزال ؟ ..
 اننى رهن امرك ! »
 وما أن أفلت توربين ذراعى الشاب ، حتى تلقفه اثنان من
 النبلاء ، وراحا يجرانه الى الباب الخلفى ، وهما يقولان له :
 « أفقدت رشذك ؟ .. لا بد أنك ثمل ! .. ماذا يحدث لو
 قلنا لايبك ! » . فصاح الشاب بصوته الرفيع : « لا ، لست
 ثملا ، ولكنه ارتطم بى ولم يعتذر ! .. انه خنزير ! » .
 ولكنهما لم يصفيا اليه ، وسرعان ما حمل الى دلاله ، بينما كان
 قائد الشرطة وزافالشيفسكى يعتذران الى الكونت قائلين :
 « لا تستأية كونت ، فهو ليس سوى صبي صغير . انه لايزال
 يضرب من أبيه ، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة .. ما الذى
 أصابه ؟ .. وكيف يفعل هذا ، وبوه رجل محترم ؟ » ..
 فقال الكونت : « لا بأس ، ليذهب الى الشيطان ! » .. وعاد
 الى قاعة الرقص حيث راقص الارملة الحسنة وهو فى مرحة
 السابق ، ثم دوت ضحكته فى أرجاء الحجرة ، عندما زلق قائد
 الشرطة - وهو يحاول الرقص - فهوى بكل طوله على الارض ،
 وسط الراقصين !

« ه »

• وفى أثناء وجود الكونت فى حجرة المكتب ، كانت « أنا
 فيدوروفنا » قد سعت الى أخيها ، وسألته وهى تتظاهر بعدم
 الافراط فى الاهتمام : « من كان ذلك الضابط - من الفرسان -
 الذى راقصنى ، يا أخى ؟ » . فبين الفارس المتقاعد لاخته -
 بكل ما أوتى من بيان - عظمة ذلك الضابط التابع لكتيبة
 الفرسان الخفيفة ، وأنبأها - فى الوقت ذاته - بأن الكونت مامكت فى
 انبلدة الا لان نقوده سرقت منه فى الطريق ، وأنه قد أقرضه
 مائة روبل ، بيد أن هذا المبلغ لم يكن كافيا .. فهل لاخته أن



تقرض الكونت مائتي روبل أخرى ؟ .. على ان زافالشيفسكي
سألها ان لا تروي ذلك لاحد ما ، مهما يكن الامر ، لا سيما
للكونت نفسه . فوعدت « آنا فيدوروفنا » بأن ترسل المبلغ
لاخيها في اليوم ذاته ، ليبقى الامر سرا . بيد انها شعرت
- اثناء الرقصة الايقوسية - بشوق جارف الي ان تعرض
بنفسها على الكونت اى مبلغ يشاء . وفكرت طويلا ، وقد
تضرج وجهها ، ولكنها نبشت الموضوع في النهاية - ويجهد
بانغ - على هذا النحو : « انبأني اخي بأن سوء الطالع حل بك
في الطريق يا كونت ، وانك لا تحمل الآن نقودا . فانذا كنت
بحاجة الى شيء منها ، فهلا تقبله مني ؟ .. ان هذا كفيل بأن
يسرنى ! »

على أنها لم تكذ تقبول هذا ، حتى تولاهها خوف مبهم ،
وتضرج وجهها . وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج في الحال ،
وقال في جفاء : « ان أخاك احمق ! .. انك لتعرفين ان الرجال
يتبارزون ، اذا اهان احدهم الآخر ، اما عندما تهين امرأة رجلا ،
فماذا تريه يفعل ؟ » . واشتد احمرار وجه « آنا فيدوروفنا »
المسكينة وعنقها ، لفرط ارتباكها . وغضت بصرها ، ولم
تنبس بيت شقة . فقال الكونت في صوت خفيض ، وهو
يميل على أذنها : « انه يقبلها امام الملا ! » . وارتد هامسا ،
بعد صمت طويل ، وهو يشفق على زميلته من الارتباك

« فاسمحي لي بأن أقبل يدك .. على الأقل ! »
 وأرسلت أنا فيدوروفنا زفرة طويلة ، وقالت : « ولكن ،
 ليس الآن ! »
 — متى إذن ؟ انتهى بأحل في بكور انعقد ، وأنت مدينة لي
 بقبلة !

فقلت أنا فيدوروفنا ، وهي تبتسم : « إذن ، فالامر
 مستحيل ! »

— إن أطعك بأكثر من أن تتسحي لي لقاءك الليلة لأقبل يدك .
 ولن يعينيني أنتونز فرصة للقاء !

فتساءلت : « وكيف ؟ » . فأجاب : « ليس هذا شأنك ،
 فكل شيء ممكن ، في سبيل أن أراك .. فهل نحن على اتفاق ؟ »
 . وأجابت : « على اتفاق ! » . وهنا كانت الرقصة قد
 انتهت ، فرقصا بعدها « المازوركا » ، وأبدى الكونت براعة
 فائقة في اختطاف المناديل ، والركوع على ركة ، وصك مهمازيه
 — الواحد بالآخر — على طريقة لا يجيدها الراقصون في غير
 (وارسو) ، حتى أن المسنين من القوم ، تركوا جميعا العابهم ،
 وتقاطروا على قاعة الرقص ليشهدوا الكونت .. واعترف
 الفارس المتقاعد — وهو أحسن راقصهم — بأن نجمه أفل
 إلى جانب تالق الكونت ! .. وما لبثوا أن تناولوا العشاء ، ثم
 رقصوا رقصة « الجد » ، وأخذ الحفل ينفض بعد ذلك .

ولم يكن الكونت قد حول عينيه عن الارملة الصغيرة ، فما
 كان قوله عن استعداده لان يغوص خلال ثغرة بين الجليد من
 أجلها ، محض مجاملة او تظاهر ! .. وسواء كان الامر نزوة ،
 أو غرائم ، أو عنادا ، فإن كل قوى الكونت العقلية ، تركزت
 — في تلك الامسية — على رغبة واحدة .. أن يلتقي بالسيدة ،
 وأن يطارحها الغرام ! .. وما أن لاحظ أن « أنا فيدوروفنا »

كانت تستأذن مضيفتها في الانصراف ، حتى هرع الى غرفة رئيس الخدم ، ثم جرى - بدون معطفه المصنوع من الفراء - الى فناء القصر ، فاتجه صوب المكان الذي وقفت فيه العربات ، وصاح : « مركبة آنا فيدوروفنا زايئسييفا ! » .. واذا بهربة عالية ، مغلقة ، ذات اربعة مقاعد ، تتحرك مقبلة صوب الداخل ، ومصايبها متقدة . فصاح بالجوذي : « قف ! » . واسرع صوب المركبة ، وهو يخوض في الثلج حتى ركبتيه !

وسأله الجوزي : « ماذا تريد ؟ » . فأجاب الكونت وهو يفتح باب المركبة ، ويحاول الصعود اليها وعلى سائرة : « تريد أن اجلس بداخل المركبة . قف ! .. اننى آمرك ، أيها الاحمق ! » . فصاح الجوزي في مساعده : « قف يا فاسكا ! » .. رجدب اعنة الجوزي ، ثم قال للكونت : « ماذا تبغى من انصعود الي مركبات اسير ؟ .. ان هذه مركبة مولاتي « آنا فيدوروفنا » ، وليست مركبة فخامتك ! » . فقال الكونت : « صه ، أيها الغبي ! » .. هالك رويبل وانزل فاعلق الباب ! » . ولما لم يحر الجوزي حراكا ، رفع الكونت سلام العربة بنفسه - وخفض زجاج النافذة ، وتحايل على اغلاق الباب . وكانت العربة ككل العربات القديمة - لا سيما تلك التي تسعمل فيها أشرطة من القصب الاصفر - معبقة برائحة فجاء ، كرائحة الوبر المحترق ، وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الركبتين ، فشعر بأنه مفرور ، اذ كان نعلاه خفيفين ، وشروال الركوب منمنمخا ، ومن ثم فقد نفذ برد الشتاء الى جسمه كله . وكان الجوزي يزمر ، وقد بدا أنه يتهيأ للهروب من مكانه ، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشيء .. كان وجهه يتأجج ، وقلبه يخفق سريعا .. وفي غمرة انفعائه العذبي ، أمسك بشريط النافذة الاصفر ، ومال الى الداخل - حتى لا يري خلالها - وقد انصرف بكل كيانه الى الترقب ! .. ولم يطل هذا الترقب ،

فقد اتبعت نداء من المدخل : « مركبة زائتسيفا ! » ، فهز الحوذى أئنة الجياد ، وتمايل هيكل العربية على زبركاته المرتفعة ، وتتابعت نوافذ اندار المضيئة ، والمركبة تمر بها .

وهمس الكونت للحوذى ، وهو يطل عليه من النافذة الامامية : « تذكر أنني سأسوطك اذا قلت لرئيس الخدم أنني هنا . أما اذا عقلت لسانك ، فستظفر بعشرة روبلات اخرى ! » . وما ان أغلق النافذة ، حتى ارتج هيكل العربية بشدة ، ثم وقفت . وانكمش الكونت وازداد التصاقا بالركن ، وقد أمسك أنفاسه ، وأغمض عينيه ، وقد اشتد به الخوف من ان يبدد شيء ما ذلك الترقب الذي كان يوجب عواطفه .. وما لبث باب العربية أن فتح ، فانخفض السلم درجة بعد أخرى ، في جلبة . وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة ، ثم شسم عير الياسهون يهلا جو المركبة فيطفئ على الرائحة المموجة التي كانت تشيع فيه .. وصعدت الدرج قدمان خفيفتان ، سريعتان ، ثم ارتمت « آنا فيدوروفنا » في صمت الى جواره ، وقد احتك ذيل معطفها بساقه .. وكانت أنفاسها متهدجة ! وليس بوسع امرئ .. حتى هي - ان يجزم بما اذا كانت قد رآته ، أو أنها لم تره .. ولكنها أبدت ارتياحا ضئيلا عندما تناول يدها ، وقال : « الآن يوسعى أن أقبل يدك الصغيرة ! » .. ولم تحر جوابا ، ولكنها أسلمته ذراعها ، فراح يفمر الذراع بقبلائته ، الى ما فوق قفازها .

وتحركت العربية ، فقال : « قولى شيئا ! .. اغاضية انت ؟ » فازدادت انكماشا في ركنها ، وهى صامته ، على أن شيئا ما لم يلبث أن حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة ، وتركت رأسها يهوي على صدره ، من تلقاء نفسها ! !



« ٦ »

• كان قائد الشرطة المنتخب حديثا ، وضيقه - الفارس المتقاعد وغيره من علية القوم - قد قضا وقتا طويلا في الاصغاء الى أغاني الفجر ، وفي معاقرة الشراب ، في المطعم الجديد ، عندما لحق بهم الكونت ، وقد ارتدى معطفا مبطنا بفراء الدب ، كان يوما لزوج « آنا فيدوروفنا » المتوفى . وقال له نوري (غجري) ذو عينين شديديتي السواد ، وحولوين ، وقد سارع الى استقباله لدى المدخل ، والى معاونته على خلع المعطف ، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء : « الحق اننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ، يا صاحب السعادة ، فنحن لم نرك منذ سوق (لبيدياني) .. ان ستيشكا لشديدة التلهف الى رؤيتك ! »

رأيت « ستيشكا » نورية شابة ، رشيقة ، هياسسية القوام ، يتالق وجهها بلون كلون الطوب الاحمر ، وقد أوتيت عينين عميقتين ، براقتين ، تظللها أهداب طويلة . وقد هرعت هي الأخرى لاستقباله ، متممة ، وهي تبسم في طرب : « آه ، يا كونتي الصغير ! .. يا حبيبى ! يا جوهرة ! .. يا اللبطة ! »

.. وجري يلبوشكا نفسه - زعيم الفرقة - لتحيته ، وفغزت المعانز والزوجات والعذارى فاحطن بالضيف ، بعضهن يزعمن أنه « اشين » لهن ، والبعض يزعمن أنه قد عقد وشاح الاخوة معهن .

وقبل «توربين» شفاه الشابات ، بينما قبلت العجائز والرجال كتفه أو يده . وابتهج عليه القوم بوصول ضيفهم ، لا سيما وأن أشرباب كان قد بلغ ذروته ، وبدأت بهجته تخبر ، كما بدأ كل امرئ يشغر بالاكثفاء .. فنقدت الخمر مفعولها المثير للاعصاب ، وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة : وكان كل امرئ قد أفرغ كل ما في جعبته من تهريج ، وشرع يسأم صحبة الآخرين .. وكانت الأغاني قد أقيت جميعا ، واختلطت في راس كل فرد ، مخلقة ضجة وانحلالا .. ولم يعد كل امرئ غريب أو متهور يأتيه أى امرئ بذى قيمة ، بل بدأ يلوح بكل امرئ أن ليس ثمة شيء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر .. وشرع قائد الشرطة ، الذى استلقى على الأرض عند قدمي امرأة عجوز - في حال مثيرة للدهشة - يحرك ساقيه في الهواء ، صارخا : « شامبانيا ! .. لقد أقبل الكونت ! .. شامبانيا ! .. لقد جاء ! .. هيا ، شامبانيا ! .. ساملا حوض الاستحمام بالشامبانيا واستحم بها ! .. أهها للسادة النبلاء ! اننى أحب مجتمع طبقتنا الأرستقراطية العريقة .. غنايا يستيشكا ! » وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر ، ولكن .. بشكل آخر . فقد جلس على أريكة في ركن من المكان ، ملتصقا بنورية حسناء طويلة ، تدعى « ليوباشا » . وقد راح يطرف بأهدابه - وهو يشعر بفشاوة على عينيه - ويهز رأسه ، ويهمس مكررا كلامه مرارا ، متوسلا اليها أن تهرب معه إلى أى مكان . وكانت « ليوباشا » تنصت اليه مبتسمة ، وكان ما كان يقوله قد راق لها . ومع ذلك فقد بدا عليها شيء من الاسى ، وهى تنظر - من آن إلى آخر - نحو زوجها « ساشكا » الاحول ، الذى كان يقف خلف المقعد المواجه لها .. ثم مالت على الفارس المتقاعد ، وهمسست في أذنه تسأله - ردا على اعلانه الحب - أن يبتاع لها شيئا من العطر والاشربة .. في الخفاء ! وصاح الفارس المتقاعد ، عندما دخل الكونت : « مرحى ! »

.. وكان الشاب انوسيم يذرع القاعة ذهابا وايابا بخطوات كان يعانى جهدا لكى تكون ثابتة ، وعلى سيماؤه آثار الضيق والهم ، وهو يترنم بلحن من أوبرا « السيراجليو » . وكان نمة جد كهل - استدرجه الحاح عليه انقوم عليه كى يأتى لسماع الفجر ، مؤكداين له ان الحفل بدونه يفقد قيمته - فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم ، دون أن يحفل به أحد . وكان ثمة موظف بين التجمع ، خلع ستروته ذات الذيل الطويل ، وجلس فوق المائدة - رافعا قدميه إليها - وقد نشر شعره ، وأظهر بذلك أنه قد ثمل تماما . وما أن دخل الكونت المكان ، حتى فتح الموظف صدر قميصه ، وترجّح الى وسط المائدة ! وقصارى القول أن وصول توريين أنهى مجلس الشراب ، وتجمعت الخوريات ثانية ، بعد أن كن يجسن خلال الحجرة ، وجلسن فى دائرة .. واجلس الكونت الأغنية الأولى «ستيشكا» على ركبتيه ، وأمر بهزيم من الشيمانية . وجاء « ايلينوشكا » فوقف أمام ستيشكا حاملا جيتاره ، وبدأ الرقص على أغاني النور : « عندما تنطلق فى الطريق ، أيها الضابط الفارس ، أترك تسمع .. أترك تعلم ؟ » ، وما لبث ذلك .. وكان غناء ستيشكا رائعا .. كان الصوت المرن الرنان - الذى انساب من أعماق صدرها - وابتساماتها المرافقة للغناء ، وعيناها الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشبوبة ، وقدمها التى كانت تتحرك - دون وعى - حركات رقيقة يتسقة مع الايقاع ، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المرددون (الكورس) يرددون مقاطع الغناء .. كل هذه كانت تمل وترا قويا فى القلب ، ولكنه نادرا ما يمس ! .. كان من اللجلى أن النورية لم تكن تعيش إلا فى جو أغنيته .. وكان ليلينوشكا يهزها لها على الجيتار ، وظهوره ، وسأواه ، وبتسماته ، وكل كيانه يهز عن انسجام مع الاغنية .. وقد راح يرقب الفتاة فى شغف ، ويرفع رأسه ويخضعها وقد استغرق فى الاغنية بكل انتباهه ، وكأنه

يستمتع اليها لأول مرة . وما لبث - عندما بلغ آخر الانغام المشجية - أن اجتدل فجأة ، وكأنه يشعر بأنه أسمى من كل امرئ في الدنيا ، وألقى نجيتاره عند قدميه في زهو واعتداد ، وركلها ، ودق الأرض بقدمه ، وطوح شعره إلى الوراء ، وتلفت إلى الفرقة الموسيقية وهو عابس . وبدأ كل جسمه - من العنق حتى الكعبين - يرقص بكل عضل فيه . . وانطلق في الجو عشرون صوتا عاليا ، قويا ، حاول كل منها أن يبعث هتافا أشد وأعجب من الأصوات الأخرى . وأخذت أصواتهم يقمن ويهبطن على مقاعدهن ، ملوحات بمناديلهن ، تاشفات عن أسنانهن ، تنافس كل منهن الأخريات في صيحاتهن المنقومة ، ذات الإيقاع . وأخذ أصحاب الأصوات المنخفضة المليئة بمدون اعناقهم ، وقد مالوا برؤوسهم جانبا ، وهم يهتفون ، بينما كانوا وقوا وراء المقاعد !

وعندما عادت « ستيشكا » ترفع عقيرتها بالفناء ، حمل ايليوشكا جيتاره إلى قربها ، وكأنه كان يرغب في مساعدتها ، وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلا انهم بدأوا « البيمول » (١) . وعندما حمى وطيس الرقص ، وتقدمت « دنياشا » تلتوى أمام الكونت ، وتنساب مقتربة منه ، وكتفاها وصدرها تهتز ، وثب « توربين » ، فخلع سترته ، وراح - في قميصه الأحمر - يخطو معها بخفة ، خطوات دقيقة ، متزنة ، محدثا بساقيه حركات أخذ الفجر يبتسمون لها باعجاب ، وهم يتبادلون أنظرات ! . . وجلس قائد الشرطة منتفخا كالديك الرومي ، يلق صدره بقبضته ، ويصيح : « فيفا ! » . ثم لمح سساقى الكونت ، فشرع يعبر عن اعجابه قائلا انه لم يتبق له من ألفي روبل سوى خمسمائة ، وأنه لعل استعداد لان يفعل بها ما يشاء الكونت ! . . واستيقظ رب الأسرة الكهل ، ورغب في

(١) طبقة من طبقات النغم الموسيقي .

الانصراف ، ولكن أحدا لم يسمح له .. وبدأ الشاب الوسيم يفرى إحدى النوريات بأن تراقصه « الفالس » . أما الفارس المتقاعد ، فقد شاء أن يبين مدى مودته للكونت ، فنهض واحتضنه ، قائلا : « آه ، يا صديقي العزيز .. لماذا تركتنا ، هه ؟ » . وصمت أنكونت ، وقد بدا أنه كان يفكر في ناحية أخرى ، بينما استطرد الرجل : « ترى أين ذهبت ؟ .. آه ، أيها الكونت الخبيث ، اننى لا عرف أين ذهبت ! »

ولامر ما ، ساءت هذه الألفة توربين ، فنظر الى وجه الفارس المتقاعد في صمت ، دون أن يتنسم ، ثم رماه فجأة بسببة قذيمة ، جافية ، تالم لها الفارس ، وظل برهة عاجزا عن أن يقرر ما إذا كان يعتبر الإهانة مزاحا أو جدا ! .. وما لبث أن قرر أن يحملها على محمل المزاح ، فابتسم ، وعاد الى غجريته ، مؤكدا لها أنه لن يلبث أن يتزوج منها ، بعد عيد الفصح ! .. وردد الفجر أغنية بعد أغنية ، ورقصوا ثانية ، ثم هتفوا للضيوف ، وكل واحد من هؤلاء سادس في إيهام نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع . ولم يكن للشمباتيا خد أونهاية . وقد شرب الكونت كثيرا ، فأخذت غشاوة الخمر تتكاثف أمام عينيه ، ولكنه لم يفقد اتزانه قط ، بل أنه راح يرقص أحسن من ذى قبل ، ويتكلم بصوت ثابت النبرات ، بل وانضم الى (الكورس) فراح يردد مقاطع الغناء باتقان ، عندما غنت ستيشكا أغنية « أرق عواطف الصداقة » . وفي خلال الرقصة ، أقبل صاحب المطعم فسأل الضيوف أن يعودوا الى دورهم اذ كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحا . واذا « توربين » يمسك به من قفاه ، ويأمره بأن يرقص الرقصة الروسية . وأبى الرجل ، فاختطف زجاجة شمباتيا هديه بها ، حتى اضطره الى أن يقف على رأسه ، وأمره بأن يظل في هذا الوضع بين ضحكات الجميع ، ثم راح يفرغ الشمباتيا فوقه !

وبدا الفجر يتسلل ، فإذا الجميع شاحبو الوجه ، منهوكو

القوى ، ما عدا الكونت ، الذى لم يلبث أن قال وهو ينهض
فجأة : « حسنا ، لا بد لى من الرحيل الى موسكو ... هيا ،
جميعا ، تعالوا فشيّعونى .. وسنتناول معا بعض الشاي ! » ..
ووافق الجميع اللهم الا رب الاسيرة الكهل ، الذى بقى مستغرقا
فى نعاسه ، بينما تراحم البكل فى ثلاث زحافات كانت تقف
بالباب ، وانطلقوا صوب الفندق

— (٧) —



♦ صاحب الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس فى فندقه ،
متنبوعا بضيوفه والفجر : « أعدوا الجياد ! .. ساشكا ! ..
ليس ساشكا الفجرى ، وانما ساشكا تابعى .. قل لـمشرف
على مركز البريد اننى سأسوطه اذا أعطاني جيادا سيئة !
وهات شايانا .. تول تقديم الشاي يا زافالشيفسكى ،
فاننى ذاهب لالقي نظرة على آيلين ، وارى كيف حاته » ..
ومضى فى الردهة ، نحو غرفة الفارس الاوغلانى . وكان
(آيلين) قد قرع لتوه من اللعب ، وخسر آخر « كوبيك » فى
جيبه ، فانكفا على الاركة ، وراح يجذب شعرة اثر شعرة
من غطاءها الصنوع من شعر الخيل — فيردها الى فمه ،
ويقهها حتى يشطرها ، ثم يعضها ! .. وعلى المائدة — التى
تناثرت فوقها أوراق اللعب — كانت تمة شمعتان تناضسلان

ضوء النهار ، الذي بدا يتسلل خلال النافذة ، وقد احترقت احدهما حتى الورق الذي كن في التجويف الذي اقيمت فيه . ونم تكن في رأس « ايلين » فكرة واحدة ، فقد لفت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة .. حتى الندم ، لم يكن يشعر به . وبذل محاولة واحدة ليفكر فيما ينبغي ان يفعل ، وكيف يرحل وهو مفلس ، وكيف يسدد الخمسة عشر ألفا من روبلات التاج ، وما الذي يحتمل أن يقوله قائد كتيسته ، وما الذي قد نقوله أمه وزملاؤه .. وشعر بجزع واشمئزاز من نفسه ، حتى انه — رغبة في نسيان نفسه — نهض ، وراح يذرع الحجر ، محاولا أن لا تهبط قدمه في خطواته ، الا حيث تلتحم أخشاب الارض ، وبدا — من جديد — يتذكر بجلاء كل دقيقة من دقائق اللعب . تمثل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد ، وكيف سحب « تسعة » ووضع « الروا انسياتي » على ألفي روبل . ووزع المشرف على (البنك) الورق ، فقال اليدين « دام » ، ونال اليسار « آيس » .. ثم « روا كبه » الى اليمين ، فإذا كل شيء يضيع . ولو قدر اليمين أن ينال « ستة » — مثلا — وان ينال اليسار « الروا الكبة » ، لقد له أن يكسب ، وللعبة مرة أخرى على أن يكسب انضعف أو ينسحب من اللعب ، ولربح خمسة عشر الفروبل ، ولاستطاع أن يتناع من قائد كتيسته جوادا « رهوانا » ، وزوجا آخر من الجياد ، ومركبة خفيفة « فاي تون » . ثم ، ماذا بعد ؟ .. كأن كل شيء يصبح بديعا ، رائعا ! .. وعاد الشاب ينطح على الاربكة ، يمزغ شعر الخيل ! .. وراح يسائل نفسه : « لماذا تراهم يغشون في الحجر رقم ٧ ؟ لا بد أن ثمة شرابا عند توربين . أذهب وأسكر ؟ »

وفي تلك اللحظة دخل الكونت ، فصاح : « ماذا ايها

الزميل ؟ هل جردت من كل مالك ؟ » فقال ايلين لنفسه : « سأتظاهر بالنوم ، والا فسيؤا اضطر الى أن أتحدث اليه ، مع أنني أريد أن أنام ! » . بيد أن توربين تقدم منه ، وربت رأسه قائلا : « حسنا يا صديقي العزيز ، هل جردت من كل مالك ؟ .. هل خسرت كل شيء ؟ .. انبشني ! »

ولم يجر « ايلين » جوابا ، فجذب الكونت ذراعه . واذ ذاك تمت « ايلين » - في صوت ناعس ، غير مكترث ، مثقل بالهم - دون أن يبدل من وضعه : « خسرت .. ولكن ، ما شأنك أنت ؟ » . فصاح الكونت : « كل شيء ؟ » . وكان الجواب : « أجل .. وما في ذلك ؟ .. كل شيء ، فقيم يهملك الامر ؟ » . فقال الكونت وهو يميل الى الترفق ، تحت تأثير الخمر التي شربها ، وقد ظل يربت شعر ايلين : « اسمع ، صارحني بالحقيقة كرميل لك .. لقد تملكني ميل اليك ، فقص لي الحق . اذًا كنت قد خسرت نقودا تمت للتساج ، فسأنتفك من مازقك ، فلن أفرصة سرعان ما تفلت .. أكان معك نقود للتساج ؟ » . فقفز ايلين ناهضا ، وقال : « حسنا ، اذن .. اذاشئت أن أخبرك ، فلا تتحدث الى ، لأنني .. أرجوك ، لا تكلمني .. إن الحل للوحيد هو أن اطلق الرصاص على نفسي ! »

وكان يأسه صادقا .. وهوى رأسه على راحتيه ، وانفجر باكيا ، رغم أنه كان - قبل لحظة - يفكر في الخيل بهدوء .. وقال الكونت : « يا له من مسلك بديع ، كمسلك البنات ! .. ابن الرجل الذي لم يفعل ما فعلته أنت ؟ .. انها ليست تكة بالغة ، ولعلنا نستطيع اصلاح الامر : انتظرنى هنا ! » وغادر الكونت الحجرة ، فسأل خدم الفندق : « أين حجرة السيد لوخنوف ؟ » . وتطوع خادم بمرافقته اليها . ودخلها الكونت ، رغم أن تابع لوخنوف الخاص أخبره بأن مولاه قد عاد لتوه ، وكان يخلع ثيابه .. ووجه الكونت جالسا الي

منضدة - وهو في ثوب الفرفة (الروب دى شامبر) - وقد راح يحصى عدة حزم من الأوراق المالية كانت ملقاة امامه . وكانت على المنضدة زجاجة من « روم » الراين ، الذى كان جد مولع به ، فكان يسمح به لنفسه - بعد الكسب - على سبيل المتعة ! .. وتطلع « لوخنوف » فى فتور وعيوس - خلال عوينتيه - الى الكونت ، وكأنه لم يعرفه . فقال هذا ، وهو يخطو الى المنضدة فى اصرار : « احسبك لاتعرفنى ! » . فأبدى « لوخنوف » ما ينم عن معرفة ، وسأله : « وما الذى تبتغيه ؟ » . فأجاب توربين وهو يجلس على الارىكة : « أحب ان ألعب معك » . فهتف الرجل : « الآن ؟ » . واجاب زائرہ : « اجل »

- يسرنى ان ألعب معك فى وقت آخر يا كونت : اما الآن ، فأننى متعب ، وسأوى الى فراشى . هل لك فى قبح من الخمر ؟ .. انه نبيذ مشهور !

- ولكننى أريد أن ألعب قليلا .. الآن !

- لست اعتزم للعب الليلة .. ربما رغب بعض السادة الآخرين ، أما أنا ، فلست أريد .. أرجو أن تعذرنى يا كونت ! - اذن ، فانت تأبى ؟

وهز « لوخنوف » كتفيه ، ليصبر عن اسفه لعجزه عن انتصرف بما يرضى رغبة الكونت . بينما عاد هذا يتساءل : « أتأبى ، مهما تكن الاحوال ؟ » . ولم يتلق جواباً ، سوى الهزة نفسها . فقال : « ولكننى أرجو هذا ، بوجه خاص .. فهل تلعب ؟ » .. وكان الجواب صمتا . فعاد يتساءل : « هل تلعب ؟ .. فكر ! » . ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة - من فوق حافتى عوينتيه - الى وجه الكونت ، الذى بدأ يتجهم . فصاح هذا بصوت عال ، وهو يدق المنضدة بقبضته ، فيقلب الزجاجاة ، ويريق الخمر : « هل تلعب ؟ .. أنت تعرف أنك لم تكسب عن حق .. هل تلعب ؟ اننى

اسالك للمرة الثالثة ! » . فأجاب لوخنوف ، دون ان يتطلع اليه : « قلت اننى لن لعب .. انه لامر عجيب حقا ، ياكونت . ثم انه ليس من انلائق اطلاقا ان تأتى ، فتسلط سكيننا على حلق رجل ! »

واعقب ذلك صمت اشدد فيه شحوب الكونت . وفجأة ، هوت على رأس « لوخنوف » ضربة ، اذهلت حواسه ، فوقع على الارىكة محاولا ان يمسك بالنقود ، واطلق صرخة مرتاعة مدوية ، ما كان أحد ليتوقعها من رجل فى مثل هدوئه وورصاته . وجمع توربين ما كان على المنضدة من نقود ، ودفع الخادم - الذى جرى لمعونة سيده - عن طريقه ، وبارج الحجرة فى خطوات سريعة . حتى اذا بلغ الباب ، التفت الى لوخنوف قائلا : « اذا شئت ترضية ، فانا فى خدمتك ! » .. وكان كل ما سمع فى الحجرة هو : « لص ! .. سارق ! .. سأستعدي القانون عليك ! »

ولم يكن « ايلين » قد حفل بوعد الكونت بأن يسبأعه ، فظل راقدا على الارىكة فى حجرته - كما كان من قبل - وهو يجهش ببكاء يائس .. ولم يبارحه ادراك حقيقة ما حدث له .. الادراك الذى استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه ان تكشف عنه من بين المشاعر والافكار والذكريات المتشابكة ، التى كانت تملأ رأسه ونفسه .. لقد ضاع كل شيء تماما - شبابه الفنى بالامل ، وشرفه ، واحترام المجتمع ، واخلام الحب والصدقة ! .. وبدأ نبع دموعه يفيض ويفسد باطراد ، واخذت فكرة الانتحار تزداد الحاحا عليه ، ولم تعد تملأ نفسه اشمئزا وجزعا .

واذ ذاك ، سمع خطوات الكونت الثابتة .. وكانت آثار انفضب لا تزال بادية على وجه توربين ، كما كانت يداه تهزان قليلا ، ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم ، وبرضى عن النفس .. وقال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من

الأوراق المايية : «هاك .. لقد اكتسبناها ثمانية ! .. تأكد من ان جميع نقودك هنا ، نم أسرع وتعال الى قاعة الجلوس !» ..
 نم اردف : « فائتي راحل نتوى »
 وكأنما لم يلمح الفرخ ، والعرفان ، والانفعال البالغ ، على وجه ايلين ، فبسارح الحجرة وهو يردد بانصفير لجنا من الحان الفجر !



♦ أقبل ساشكا - وقد أحاط خصره بحزام عريض - فاعلن ان الجياد معدة ، ولكنه أصر على وجوب استرداد معطف الكونت - الذي قال ان ياقته الفرائية كانت تساوى ثلاثمائة روبل - وعلى إعادة المعطف الازرق الباهت ، انذى كان الكونت يرتديه ، الى الشقى الذى تركه وأخذ معطف الكونت بدلا منه ، فى قصر المارشال .. وما درى حقيقة الامر ، ولكن الكونت قال له ان لا حاجة هناك الى البحث عن المعطف ، ثم سار الى حجراته ليستقبل ثيابه . بينما استولى الفواق (الزغطة) على الفارس المتقاعد ، وهو يجلس الى جوار فتاته النورية .. وصاح قائد الشرطة يطلب « فودكا » ، ودعا الجميع الى أن يرافقوه ليتناولوا الفطور معه ، ممنىيا أياهم بأن زوجته

سترقص ولا بد مع الفجر . وكان الشاب النسيل الوسيم ، مستغرقا في حديث جاد مع « ايليوشكا » ، ليسين له ان ثمة روحا حقة في انغام البيانو ، وأنه من غير المستحب توقيع الانغام المنخفضة العميقة على الجيتار . أما الموظف ، فقد جلس واجما في أحد الاركان ، يشرب الشاي ، وقد بدا - في ضوء النهار - مستحييا من سكره وتأثير الخمر عليه . وكان الفجر يتناقشون فيما بينهم - بلغتهم القومية - بصسدد انتهاف ثانية لضيقهم - على ما اعتادوا اذا ارادوا ان يختتموا غناءهم ورقصهم - فكانت ستيشكا تعارض ، قائلة ان « انباروردي » - وهي في اللغة النورية ترادف « كونت » او « أمرا » ، او على الادق : سيدا عظيما - خليق بأن يفضب للملك . وكانت آخر جهرات « هبث تخمد في نفوس الجميع ، بوجه عظيم !

وقال الكونت وهو يلج قاعة الجلوس - في ثياب السفر - وقد تجدد نشاطه ومرجه ، وبدا أجمل من ذي قبل : « حسنا ، لتسمع اغنية وداع ، ثم ينطلق كل منا في طريقه ! » . فكون الفجر حلقته من جديد ، وكانوا على وشك ان يبدأوا انغناء ، حين دخل « ايلين » ، وفي يده حزمة من الاوراق المالية ، فانتحي بالكونت جانبا ، وقال : « لم يكن معي من نقود التاج سوى خمسة عشر ألف روبل ، ولكنك أعطيتني ستة عشر ألفا وثلاثمائة .. فهالك المبلغ الزائد ! » - هذا بديع ، هاته !

واعطاه « ايلين » النقود ، ونظر اليه في استحياء ، ثم فتح شفتيه ليقول شيئا ، ولكنه لم يتكلم ، بل تضرع وجهه ، وتبادرت الدموع الى عينيه ، وامسك بيد الكونت وأخذ يشد عليها . فقال هذا : « عليك بالرحيل ! .. اسمع يا ايليوشكا ! هالك بعض المال لكم ، على أن تراقفوني بالاغاني الى خارج البلدة ! » .. وطوح بالالف وثلاثمائة روبل - التي أحضرها اليه

ايلين - فاستقرت على الجيتار . ومع ذلك ، فقد نسي الكونت ان يرد المائة روبل التي كان قد اقترضها من الفارس المتقاعد ، في اليوم السابق !

وكنت الساعة قد بلغت العاشرة ، وقد اشرقت الشمس فوق سطوح المنازل ، وبدأ الناس يروحون ويغدون في الطرقات ، وقد فتح أصحاب الحوانيت ابوابهم منذ فترة ، وانطلقت عربات وجهاء القوم وكبار الموظفين تجوس خلال انطربات ، واقبلت السيارات على السوق .. وقصارى القول ، كان النشاط قد دب في المدينة ، حين خرج الفجر - بكامل فرقته - وقائد الشرطة ، والفارس المتقاعد ، والنيسل الوسيم ، وايلين ، والكونت - في المعطف الازرق المبطن بفراء الدب - الى باب الفندق .. وكان النهار مشمساً ، وقد اخذ الجليد في الذوبان . واقبلت على الباب ثلاث زحافات كبيرة - من زحافات البريد - تجر كلا منها ثلاثة من الخيل عقدت ذيولها .. وصعد الى الزحافة الاولى : الكونت وايلين ، وستيشكا ، وايليوشكا ، وساشكا تابع الكونت . وكان «بلوخر» يهز ذيله ، وينبج في الجياد . وصعد بقية السادة الى الزحافات الاخرى ، ومعهم سائر الفجر نساء ورجالا . وما أن انطلقت الزحافات ، حتى بدأ الفجر يعزفون ويفنون .. واختلط غناؤهم بأجراس الزحافات ، فكانت المركبات الاخرى تندفع نحو الارصفة ، مفسحة الطريق للموكب ، الذى اندفع خلال البلدة ، ميمما شطر ابوابها الخارجية .. ولم تبد الدهشة على أصحاب الحوانيت والمارة الذين لم يكونوا يعرفون القوم - فما بالك بمن كانوا يعرفونهم ! - اذ راوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات في وضوح النهار ، مع النوريات ، ومع انسكارى من رجال الفجر ، وهم يقنون .

وعندما اجتازوا ابواب المدينة ، توقفت الزحافات ، وشرع كل امرئ يودع الكونت . واستولى حزن مفاجيء شديد على

« ايلين » — الذي كان قد أسرف في الشراب ، وقاد الزحافة بنفسه — فراح يلحف على الكونت أن يبقى ليوم آخر . حنى اذا وجد أن الامر غير ممكن ، اندفع فجأة الى صديقه الجديد ، فقبله ، ووعدته — ودموعه تجري — بأن ينتقل الى كتيبة الفرسان الخفيفة ، التي كان الكونت فيها ، بمجرد عودته الى قيادته . ولكن الكونت شديد المرح فوق عادته ، فدفع الفارس المتقاعد — الذي ازدادت ألقته في الصباح — وألقى به في بركة من الجليد الدائب . . وأطاع « بلوخر » على قائد الشرطة ، واحتوى « ستيشكا » بين ذراعيه ، وود أن يحملها معه الى (موسكو) . ثم قفز اخيرا الى الزحافة ، وأجلس بلوخر الى جواره . وقفز « ساشكا » الى جانب السائق ، بعد أن كرر رجاءه للفارس المتقاعد كي يستعيد معطف الكونت ويرسله اليه . . وصاح الكونت : « انطلق ! » ، ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه ، وأرسل صغيرا يستحث به الجياد ، كما يفعل حوزبة محفات البريد ، فانطلقت الزحافات .

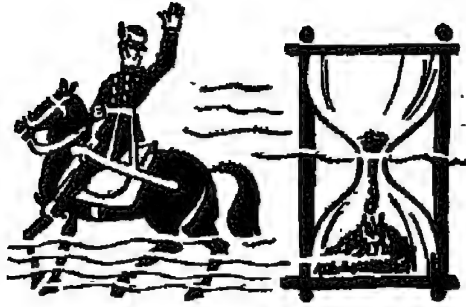
وكان السهول مغطى بالجليد ، وليس فيه من المناظر ما يدفع السأم ، وقد تعرجت خلاله طريق قدرة يميل لون أديمها الى الصفرة . وكانت أشعة الشمس المشرقة — التي راحت تنعكس على الجليد الدائب ، في بريق يعاثر العيون في دلال — ذات دفء مستعذب ، يسرى في وجه المرء وظهره . وأخذ البخار يتصاعد كثيفا من انجيات التي بعث الجهد في أجسادها دفءا . . وراحت أجراس المحفة تصلصل في مرج . وكان ثمة قلاح يقود محفة مثقلة بالأحمال ، فأسرع يدفعها بعيدا عن الطريق ، وهويشر الماء أثناء خوضه برك الجليد الدائب بجذائه المصنوعين من لحاء الشجر . . وفي محفة أخرى — مثقلة بالأحمال — تجلست فلاحه سمينة ، ذات وجه أحمر ، وقد دست طفلا رضيعا في صدر معطفها المصنوع من جلد الظنم ، وراحت تستحث جوادا أبيض ، هزيل الذيل ، مكدودا . .

وخطرت « آنا فيدوروفنا » فيجأة بذهن الكونت ، فصاح :
 « ارجع ثانية ! » . ولم يفقه لأخوذى غرضه ، فعاد يصيح :
 « عد ثانية .. إلى المدينة ! أسرع ! » . واجتازت الزحافة
 أبواب المدينة من جديد ، واندفعت مسرعة إلى الأبواب
 الخشبية لدار « آنا فيدوروفنا » . وطوى الكونت سلم الدار ،
 واجتاز البهو ، ومرق خلال حجرة الجلوس ، حتى إذا وجد
 الأرملة لا تزال نائمة ، احتواها بين ذراعيه ، ورفعها عن السرير ،
 وقبل عينيها الناعستين ، ثم هرع عائدا . ولعلقت « آنا
 فيدوروفنا » شفتيها ، وهي وسنانه ، وتمتمت : « ما الذي
 جرى ؟ » .. وكان الكونت قد قفز إلى محفته ، وصاح في
 السائق ، فانطلقت به المحفة .. وغادر بلدة (ك ...) إلى
 الابد ، وقد خلا فكره من كل شيء عن « لوخوف » ، والأرملة ،
 و « ستيشكا » ، ولم يعد يشغله سوى .. ارتقاب ما كان
 ينتظره في (موسكو)



« ٩ »

• وانقضى أكثر من عشرين عاما ، سالت خلالها ميساه
 كثيرة ، ومات خلالها أناس كثيرون ، كما ولد خلق أكثر ..
 وشب كثيرون واكتهل كثيرون .. وولد مزيد من الآراء
 الجديدة ، ثم ذوى ومات .. وفنى الكثير من القديم الذي
 كان جميلا ، والكثير من القديم الذي كان رديئا .. ونمسا
 كثير مما كان جميلا وحديثا ، كما ظهر في دنيا الله أكثر منه
 مما كان فجا ، وفظيحا ، وجديدا .. وكان « الكونت فيدور
 توربين » قد قتل منذ أمد طويل ، في مبارزة مع رجل
 أجنبي كان الكونت قد جلدته بسوط الخيل في عرض الطريق



وصار ابنه - الذى كان يشبهه فى تركيبه البدنى ، كما تشبهه قطرة الماء اختها - شابا مليحا فى الثالثة والعشرين من عمره ، يخدم فى فرقة « الحرس الفرسان » . على أن « تورين » الصغير لم يحرز أقل شبه بأبيه ، فى الناحية الخلقية ، فلم يكن به ظل من النزوات الوقحة ، المشبوبة ، بل المنحطة - أن شئت الصراحة - التى امتاز بها الجيل المنقرض . ولكنه ورث - الى جانب الذكاء ، والثقافة ، والفطرة الموهوبة - حبا للثراء والرفاهية ، ونظرة عملية الى الرجال والاعمال .. وكان للتعقل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة . وقد مضى تكونت الشاب قدما فى السلك العسكرى ، فكان « ملازما أول » وهو فى الثالثة والعشرين . حتى اذا بدأت الحرب ، هداه فكره الى أن ترقبته تصبح أكثر احتمالا ، اذا هو انتقل الى الجيش العامل ، ومن ثم فقد التحق برتبة « كابتن » باحدى كتائب الفرسان الخفيفة ، وسرعان ما أصبح قائداً فصيلة . وفى مايو سنة ١٨٤٨ ، كانت كتيبة الفرسان « ... » تتحرك خلال اقليم (ك ...) فى حملة ، وقد صدرت الاوامر للفصيلة التى كان يقودها الكونت تورين الشاب - بالذات - بأن تقضى ليلتها فى قرية (مويوزوفكا) ، التى كانت من أملاك « آنا فيدوروفنا » .. وكانت « آنا فيدوروفنا »

لاتزال على قيد الحياة ، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيرا ، حتى انها لم تعد ترى نفسها شابة ، وهو امر يصعب على اية امرأة ان تعترف به ! .. وكانت قد اصبحت مفردة السمينة ، مما يقال انه يجعل المرأة تبدو اصغر سنا . ومع ذلك فقد تخللت سميتها البضة تفضينات عميقة ، ناعمة ! .. ولم تعد تذهب الى البلدة قط ، فقد أصبح الصعود الى عربتها جهدا مضنيا لها .. بيد انها ظلت رقيقة القلب ، غبية كفهدا من قبل .. افقدت من تكمن للمرء أن يقول الحق ، بعد اذ لم يعد جمالها يستهوي المرء !

وكانت انتهت « ليزا » .. التي بلغت الثالثة والعشرين من عمرها - تعيش معها ، وهي حسناء رقيقة روسية .. كما كان اخوها - صاحبنا الفارس المتقاعد - يقيم معهم بعد اذ بدد ثروته الصغيرة ، عن طيب خاطر ، فوجد في دار آنا فيدوروفنا « مقاما في كهولته . وكان شعره قد أصبح اشيب ، وقد غاصت شفته العليا وتجمعت ، وان ظل الشاربان اللذان كانا يعلاوانها يلقيان عناية ، ويصبغان باللون الاسود .. ولقد انحني ظهره ، ولم تقتصر التفضينات والتجاعيد على جبينه وخديه ، وانما شملت انفه وعنقه كذلك .. غير أن مسلك الفرسان ظل باديا في حركات ساقيه الكليتين الموجهتين ! وجلست الاسرة وأهل البيت - في ذلك اليوم - في حجرة الجلوس الصغيرة ، ذات الباب المفضي الى الشرفة ، وذات النوافذ المطلة على الحديقة العتيقة - المنسقة على شكل نجمة - واشجار الموالح فيها . وكانت « آنا فيدوروفنا » الشيباء ، تجلس على الاركة في سترة بنفسجية اللون ، وقد اخذت ترتب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب « الموجنى » .. اما اخوها المسن ، فقد استقر - في سروال (بنطلون) ابيض نظيف ، وسترة زرقاء - الى جوار النافذة ، وقد راح يجدل حبلا من القطن الابيض بمسونة شموكة

خشبية .. وهى ملهاة علمته اياها الهنة اخته ، فاحبها كثيرا ،
لانه لم يعد يقوى على شيء آخر ، كما ان عينيه كانت قد
ضعفتا فلم تعودا توكنانه من قراءة الصحف ، وهى هوايته
المفضلة . وكانت « ييموشكا » - وصيفة آنا فيدوروفنا -
تجلس الى جواره تستذكر درسا ، و « ليزا » تساعدنا ،
وتنسخ - ن الوقت ذاته - جريين من صوف الماعز لخالها ،
بابرتين من الخشب . وكانت أشعة الشمس الجائحة للمغيب ،
تشعل - كمادتها فى مثل هذه الساعة - خلال أشجار
الارالح ، وتلقى أضواء خفيفة على النافذة القصورى وما الى
جوارها . وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة ، حتى
لقد كان بوسع المرء أن يسمع خفيف جناحى عصفور خارج
النافذة ، وزفرات آنا فيدوروفنا ، وائين الرجل المسن وهى
يرفع ساقا ليسندها الى الساق الاخرى .

وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تستريح من ترتيب أوراق
اللعب : « كيف يسير النسيج ؟ .. أرينى يا ليزا ، فانى أنسى
دائما ! » .. وسارت اليها « ليزا » - دون أن تكف عن حيك
الصوف - واقت نظرة على أوراق اللعب ، وقالت : « لقد
أفسدت نظامها يا أماء ! » . وعكفت على ترتيبها وهى تقول :
« هكذا يجب أن تكون ، وان يعرقل هذا استطلاعك الحظ
خلالها ! » . فقامت الام : « لا بأس ، لا بأس ، أيتها الهرة
الماكرة ! ولكن ، اليس هذا وقت الشاى ؟ » . فقامت الفتاة :
« لقد امرت بايقاد نار الغلاية (الساموار) ، وسأرى ماذا
تم . أتريدن أن تتناولى الشاى هنا ؟ .. هيا يا ييموشكا ،
أسرعى وافرغى من درساك ! » . وأسربت « ليزا » الى
الباب ، فصاح خالها ، وهى ينعم النظر فى شوكة الخشبية
« ليزا .. ليزى ! اعتقد اننى أفلت غرزة ، فالتقطيها لى
با عزيزتى ! »

— سأتى حالا .. يجب أولا أن اعطيهم قمعا من السكر ليكسروه !

وصدقت في وعدھا ، فما لبثت أن عادت مہرعة بعد ثلاث دقائق ، وقرصت أذن خالھا ، قائلة وهى تضحك : « هذا جزاء افلات الغرز ! » . فقال خالھا : « حسنا ، حسنا ، بأس .. أصلحيھا .. هناك عقدة صغيرة ! » . فتناولت « ليزا » الشوكة ، وسحبت دبوسا من شعرھا ، الذى عبث به النسييم قليلا ، اذ انسحب خلال النافذة — والتقطت به الغرزة ، وأصلحت الخيط ، ثم ردت الشوكة الى خالھا ، تالة له ، وهى تقدم له خدھا الوردى ، بينما كانت تصيد دبوسا الى شعرھا : « الآن ، اعطنى قبلة مقابل ما فعلت . » . منتظرة بعض « الروم » مع الشاى اليوم ، فهو يوم الجمعة « تعال ! » . وسارت الى حجرة الشاى ، ثم صاحت من هناك بصوتھا الصافى : « تعال وانظر يا خالى ، ان الفرسان زادمون ! » .. فخفت « آنا فيدوروفنا » مع أخيھا الى حجرة الشاى — التى كانت نوافذھا تطل على القرية — ترى الفرسان . ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيرا ، بل تمثل كله فى حشد يسير وسط غلالة من الغبار . فقال الرجل المسن لاخته : « من المؤسف أن تكون حجراتنا صغيرة يا اختاه ، أن الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه ، والا لاستطعنا أن ندعو الضباط . فان ضباط الفرسان الخفيفة من أبدع الشيايب وأبهجم ، وكانت رؤيتهم كقيلة بأن تشرح الصدر ! » . فقالت آنا فيدوروفنا : « كم كنت أسر بهذا يا شقيقى ، ولكنك تعرف اننا لم نؤت غرضا كافية . فهناك مخدعى ، وحجرة ليزا ، وحجرة الجلوس ، وهذه الحجرة ، وحجرتك .. وهذا كل ما هناك ! .. فاين ترانا كنا ننزلهم ؟ .. لقد نظف كوخ شيخ القرية لايوائهم ، ويقول ميخائيل ماتفييف انه اصبح تام النظافة ! »

— كان انزالهم هنا كفيلا بأن يمكننا من ان نختار زوجا منهم لك ياليزى .. فارس بديع من الكتيبة الخفيفة !
— لست أريد فارسا من الكتيبة الخفيفة ، وأفضل عليه فارسا من « الاوغلان » .. ألم تسكن أنت من « الاوغلان » ياخالى ؟ .. لاشأن لى بفارسان الفرقة الخفيفة ، اذ يقال أنهم جميعا مفسودون !

واحمر وجهها قليلا ، واطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى .
ثم أردفت : « هاهى ذى اوستيوشكا تقبل مهرعة ، فلنسألها عما رأت » . وسألتها أنا فيدوروفنا أن تدعو اوستيوشكا ، فلما أقبلت هذه ، بادرتها قائلة : « لاقبل لك بأن تنصرف الى عملك ، فليس بوسعك ان تستغنى عن الجرى لثرى الجنود ..
اين نزل الضباط ؟ » . فأجابت الخادم : « فى بيت ايرومكين يا مولاتى ، أنهما ضابطان .. ما أملحهما ! .. يقال أن أحدهما كونت ! » . فسألتهما أنا فيدوروفنا : « وما اسمه ؟ » .
وأجابت الفتاة : « كازاروف ، او توربينوف .. يؤسفنى ان نسيت ! »

— ها أغباك ! .. اليس بوسعك ان تنبئينا بشيء ذى قيمة . كأن خليفك بك أن تعرفى الاسم على الأقل !
— حسنا سأجرى الى هناك ثانية .

— اعرف أنك ماهرة فى هذا .. لا ، دعى دانييل يذهب ..
قل له يا أخى ان يسأل عما اذا كان الضابطان فى حاجة الى شيء ، فمن الواجب اظهار بعض المجاملة لهما ، على أية حال .
دعه يقول ان سيدة الضيعة أوفدته للسؤال عنهما !

وجلس الشقيقان المسنان فى حجرة الشاي ، بينما ذهبت « ليزا » الى غرفة الخدم لتضع السكر الذى تم تكسيره فى الصندوق . وكانت اوستيوشكا هناك تحدث

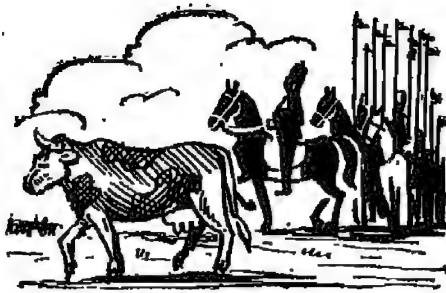
الخدم عن الفرسان ، فما ان رأتها حتى همست : « يا هذا الكونت من رجل مليح يمولاني الحبيبة ! .. ملاك ذو حاجبين أسودين . ولو قدر لك زوج مثله ، لكنتما زوجين متلائمين » وابتسمت الخادومات الاخريات محبسات ، بينما تنهدت المريية المعجوز ، وهي تقوم ببعض التطريز الى جوار النافذة ، وراحت تدعو الله هامة ، بينما قالت ليزا لاوستيوشكا : « اذن فقد أحببت الفرسان ! .. ماأبرعك في رواية مارابت ! .. اذهبي واحضري شيئا من عصير « الآسى البرى » ، لنعد للفرسان شيئا يشربونه ! » . وانصرفت حاملة صندوق السكر ، وهي تضحك . ولكنها راحت تقول لنفسها : « ليتنى ارى حقا ذلك الضابط الفارس .. أهو أسمر أم أشقر ؟ وما أحسبه الا كان يسر بالتعرف اليها .. ولو أنه رحل ، فلن يفقد له أبدا أن يعرف أنني كنت هنا ، ولأنى فسكت فيه . وكم من أمثاله مروا على مقربة منى ؟ .. منذ الذى يرانى هنا سوى خالى ؟ .. مامن أحد يقتبط اذا مارأى الطريقة التى أعقض بها شعري ، أو الثياب التى ارتديها ! » . وتنهدت وهي تتأمل ذراعها البضة المثلثة ، ثم عادت تفكر : « أحسبه طويلا ، واسع العينين ، ذا شاربين صغيرين ! .. وها انبى هنا ، قد جاوزت الثانية والعشرين ، دون أن يقع أحد فى حبي ، اللهم الا ايفان آيباتيشى الذى شوه الجدرى شكله .. بل لئن كنت منذ أربع سنين أجمال مما أنا اليوم .. وهكذا تمر أيام شبابى . لكن أن أشرح صدر احد . فواه ، يالى من فتاة قروية مسكينة .. مسكينة ! »

وايقظ القروية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديها لتصب الشاي فى الاقداح ، فرفعت رأسها مجفلة ، وأسرعت الى حجرة الشاي .. وكثيرا ما تأتى خير النتائج عفوا ، بينما تأتى أبدا النتائج كلما ازداد المرء جدا . وفى الريف قل أن

يعنى الناس بتعليم أولادهم ، ومن ثم فهم يتيحون لهم -
دون أن يفتنوا - تعليما بديعا . وقد كانت هذه حال «إيزا» .
اذ أن « آنا فيدوروفنا » - بذكاؤها المحدود ، واهمالها
الفطرى - لم تتح لها تعليما .. أى أنها لم تعلمها الموسيقى ،
ولا اللغة الفرنسية العظيمة النفع للفتاة .. ولكنها وقد
انجبتها عفوا - من زوجها الراحل - طفلة موفورة الصحة
والجمال ، فقد هيات لها مربية ومربية ، وألبستها خير
الثياب القطنية الموشاة بالزخارف ، وأخذية من جلد الماعز
واعتادت أن ترسلها لتتنزه في الخلاء وتجمع النباتات الفطرية
والتوت البرى .. واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير
لتعلمها القراءة والكتابة والحساب .. حتى اذا انقضى ستة
عشر عاما ، وجدت في « إيزا » صديقة ، وأنيسة رحيمة
القلب دائمة الانشراح ، وربة بيت نشيطة .. ولما كانت « آنا
فيدوروفنا » كريمة النفس ، فأنها دائما ما كانت تأوى في
البيت بعض الأطفال لتربيتهم .. سواء كانوا من أبناء البيت
أو من القطاء .. وقد بلغت « إيزا » العاشرة ، بدأت تعنى
بهم ، فتعلمهم ، وتلبسهم ثيابهم ، وتصحبهم الى الكنيسة ،
وتكبحهم اذا أسرفوا في اللعب المرهق . وعندما كبرت ، ظهر
على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب ، المروجع الساقين ،
الذى كان بحاجة الى من يعامله كطفل .. ثم أصبح الخدم
والفلاحون يأتون للسيدة الصغيرة بمطالوم العبيدة ،
وبأوجاعهم التى كانت الفتاة تعالجها بحب اللسان والنفع
والكافور .. وكانت هناك شؤون التدبير المنزلى التى القيت
على عاتقها من تلقاء ذاتها .

وبما لبثت أن استيقظ في أعماقها جنين لم يلق رضاء ..
جنين الى الحب ، لم يجد منفثا له الا في الطبيعة والدين .

فأصبحت ليزا أنثى نشيطة ، طيبة ، بشوشة ، معتمدة على نفسها ، طاهرة ، عميقة التدين . . ومن الصحيح أنها كانت تنال - بعض الشيء - من جراء غرور أنوثتها ، إذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها في الكنيسة ، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلبة من بلدة (ك. . .) ، وكانت تستاء أحيانا من نزوات أمها العجوز وزمجرتها ، الى درجة البكاء . . وكانت ترثوها - كذلك - أحلام الحب ، في أكثر صوره سذاجة واضحاكا . . ولكن هذه الأحلام كانت تتبدد في نشاطها النافع الذي تحول الى ضرورة . فلما بلغت الثانية والعشرين من عمرها ، لم يكن قد تبقى في نفسها الصافية الطمئنة - نفس الهدراء اللتى نمت بنيا ونفسيا على أجمل صورة - أى اثر للندم أو الحسرة . . وكانت « ليزا » متوسطة الطول ، اقرب الى السمنة منها الى النحول ، ذات عينين في لون ثمار البندق ، ليستا بالواسعتين ، وقد خلق جفناها السفليان مكحولين قليلا . كما كان لها شعر طويل الغلائر ، ذو لون بنى فاتح . وكانت تسير في خطوات واسعة ، وهى تتمايل قليلا كالبطة . . كما يقولون ! اما وجهها ، فكان يبدو - عندما تكون مشغولة ، وغير منفعة - وكأنه يقول لكل من ينظر اليه : « من المبهج أن يعيش المرء في الدنيا ، عندما يكون له من يوليه الحب ، وعندما يكون له ضمير صاف ! » . . حتى في لحظات الاستياء ، أو الحسرة ، أو الجزع ، أو الحزن كانت تتجلى في عينيها - بالرغم منها ، وبالرغم من الدموع التى تملأ عينيها وحاجبها الايسر العابس وشفتيها المزمومتين - نفس صريحة ، لم يفسدها عقل معوج . . كانت روحها الصافية تشع من غمازتى خديها ، ومن ركنى فمها ، ومن العينين المضيئتين اللتين اعتادتوا الابتسام والرضى بالحياة !



« ١٠ » -

♦ كان الجو لا يزال حاراً، رغم أن الشمس جنحت إلى المغيب عندما دخلت الفصيلة قرية (موروزوفكا) : : وعدت أمام الفرسان - في طريق القرية المتربة - بقرة جامحة شردت عن قطعها ، فراحت تقف وتتلقت من آن إلى آخر ، وهي ترسل خواراً ، دون أن يخطر لها ببال إطلاقاً ، أن خير ما تفعله هو أن تتنحى عن الطريق . واحتشد الفلاحون - شيوخاً ونساء وأطفالاً ، وخداماً من دار سيدة الضيعة - على جانبي الطريق ، وراحوا يتأملون الفرسان في فضول ، بينما كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم - التي كانت تدق الأرض ، وتصلح أحياناً - وسط عاصفة كثيفة من الغبار . وإلى يمين الفصيلة ، كان ثمة ضابطان استويا - في غير اكتراث - على صهوتي جوادين أسودين بديعين . وكان أحدهما هو « الكونت توربين » ، القائد . أما الآخر ، فكان شاباً في غضارة الصبا ، رقى حديثاً من مرتبة الطلبة إلى مرتبة الضباط ، ويدعى « بولوزوف » .

ومن أحسن كوخ في القرية ، خرج فارس في سترية بيضاء من التيل ، فرفع قلنسوته ، وسار إلى الضابط . فسأله الكونت : « أين المقر الذي خصص لنا ؟ » . فقال « جاويش

التعيينات» المشرف على مقام الفصيلة ، وقد شد جسمه كله :
 « لقد نظف كوخ شيخ القرية لسعادتكما . وقد أردت أن
 أنزلكما في دار سيدة الضيعة ، ولكنهم يقولون أن ليست هناك
 حجرات . ان صاحبة الزمام لثيمة ! » فقال الكونت وهو
 يترجل أمام كوخ شيخ القرية ، ويشد ساقيه : « لا بأس ! .
 وهل وصلت مركبتى الخفيفة ؟ » . فأجاب « جاويش
 التعيينات » ، مشيراً بقلنسوته الى الهيكل الجلدى لعربة
 ظهرت لدى المدخل الخارجى للكوخ ، واندفعت الى بابه
 الداخلى الذى اصطف عنده أعضاء أسرة شيخ القرية ليتأملوا
 الضابط : « ها هى ذى قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة » .
 ودفع عجوزا من الواقفات ، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ
 الذى نظف حديثا ، ويخطو جانبا ليفتح المدخل للكونت

وكان الكوخ كبيرا ، واسعا ، ولكنه لم يكن نظيفا للغاية .
 وكان الوصيف الالماني - الذى كان يبدو فى لباس السيد
 الراقى - يقف فى الداخل ، يرتب الثياب فى حقيبة كبيرة ،
 بعد أن أقام سرير حديديا ، وهيا الفراش . وهتف الكونت
 فى استياء : « أف ! .. ياله من مسكن قذر ! أليس بوسعكم
 أن تعشروا على شيء أفضل ، فى منزل أحد السادة ،
 يادايدينكو ؟ » . فأجاب جاويش التعيينات : « اذا رغبت
 يا صاحب السعادة فساأول مرة اخرى فى بيت سيدة
 الضيعة . ولكنه لا يبدو أفضل من الكوخ كثيرا » . فقال
 الكونت : « لا بأس .. انصرف ! » . واستلقى على الفراش ،
 وقد عقد ذراعيه تحت رأسه . وما لبث أن صاح بوصيفه :
 « جوهان ! .. لقد تركت جزءا عاليا فى الفراش .. كيف
 لا تتقن اعداد الفراش كما ينبغى ؟ » . فأصرع جوهان كى
 يسويه ، ولكن الكونت قال : « لا ، دعه الآن » . وأردف فى
 لهجة تنم عن عدم الرضى : « ولكن ، أين ثوب الفرقة ؟ » .
 فتأمله الكونت - الروب دى شامبر » . فتأمله الكونت -

قبل أن يرتديه - وقال : « لقد توقعت هذا .. ان البقعة لم تنظف بعد . افهنالك خادم أسوأ منك ؟ » . وشد الثوب من يد الخادم ، وارتداه قائلاً : « قل لى : اتتعمد هذا الاهمال ؟ .. هل الشاى معد ؟ » . فقال جوهان : « لم يكن لدى وقت لاعداده » . فهتف الكونت : « يا لك من بليد ! » وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصيصاً الى جوار فراشه ، فراح يطالع فيها بعض الوقت ، فيصمت ، بينما خرج « جوهان » الى الردهة ليعد الغلاية ، ولاح جليا أن الكونت كان سىء المزاج ، ولعل ذلك كان راجعاً الى التعب ، والغبار الذى ران على وجهه ، والثياب المشدودة حول جسمه ، والمعدة الخاوية . فما لبث ان صاح ثانية : « جوهان ! احضر لى حساباً عن الروبلات العشرة . ما الذى اشترتته من البلدة ؟ » . وتأمل الحساب الذى قدم اليه ، وأدلى ببعض ملاحظات نمت عن عدم اقتناع بالاثمان الباهظة ، ثم قال : « قدم بعض الروم مع الشاى » . فقال جوهان : « اننى لم أشتري (روم) ! » . فصاح الكونت : « هذا بديع ! .. كم من مرة نبهتك الى وجوب وجود الروم ؟ »

— لم يكن معنى كفاية من النقود

— اذن ، فلماذا لم يشتري بولوزوف قدراً منه ؟ .. كان يجب ان تحصل من خادमे على بعض النقود للروم !

— لست ادرى .. لقد ابتاع الشاى والسكر

— ياغبى ! .. اخرج ! .. انك الانسان الوحيد الذى يعرف كيف يجعلنى أفقد صبرى .. انك تعرف اننى أتناول دائماً الروم مع الشاى فى الرحلات !

وكان حامل العلم « بولوزوف » قد أشرف على استقرار الفصيلة ، فأقبل بوجه مرخ . وقال : « كيف الحال يا توربين ؟ .. يبدو أن المكان هنا لطيف . ولكنى أصادرك بأننى جد متعب ، فقد كان الجو حاراً » . فصاح الكونت : « لطيف ؟ !

.. كوخ رطب قدر .. ولا (روم) بفضل سيادتك ، فان خادمك الغبي لم يشتد شيئا ، وكذلك هذا الغبي ! .. كان جدير بك أن تتذكر ، على الأقل ! » .. وخرج حامل العلم الى الردهة ، حيث راح يهمن لتابعه : « ولكن ، لماذا نشترى نحن كل شيء ؟ .. كأنما أنا المسؤول عن دفع ثمن كل شيء ، في حين أن وصيفه الألماني لا يفعل شيئا سوى أن يدخن غليونه ! » .. وكان الكونت قد تسلم - في تلك الاثناء - خطابين من وصيفه ، قرأ الأول ثم كوره وألقى به على الأرض .. وبدأ أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء له ، إذ ابتسم وهو يقرأه ، فسأله بولوزوف ، وقد عاد الى الحجرة وشرع يعد لنفسه مرقدا على بضعة ألواح خشبية : « ممن هذا ؟ » .. فأجاب الكونت مبتهجا ، وهو يسلمه الخطاب : « من مينا .. أتريد أن تراه ؟ .. يا لها من امرأة لطيفة ! .. الحق أنها أفضل بكثير من شبابتنا طبعتنا الراقية .. أنظر مدى ما في هذا الخطاب من مشاعر وذكاء ! .. ليس به من عيب سوى أنها تطلب نقودا ! » .. فقال الضابط : « أجل ، هذا عيب ! » .. - من الصحيح أنني وعدتها ببعض المال ، ولكن هذه انملة فاجأتنا ، كما أن .. ومع ذلك ، فسارسل لها مبلغا ، اذا ظلت في قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى . لأنها تستحقه ، فهي فاتنة !

وكان يراقب وجه بولوزوف وهو يقرأ الخطاب ، فما لبث هذا أن قال : « انه فظيع من الناحية النحوية ، ولكنه لطيف جدا ، ويلوح أنها تحبك حقا ! » .. فقال الكونت : « اممم ! .. اظنها كذلك ! لا يخلص في الحب سوى هذا الصنف من النساء ، اذا ما أحببت الواحدة منهن حقا ! » .. فسأله الضابط الشاب : « وممن كان الخطاب الآخر ؟ » .. وأجاب الكونت وقد بدا مستاء : « آه ، ذلك .. هناك رجل ، وغد سخيف ، كسب مني في المقامرة ، فهو يذكرني بالدين للمرة الثالثة .. ولست

أملك أن أدفعه في الوقت الحاضر ! »

وسادهما الصمت برهة ، كان حامل العلم - الذي بدا خاضعا لتأثير الكونت وسلطانه - يلقي نظرات على أسسدير توربين الوسيمة ، المكفهرة .. وما لبث هذا أن قال ، وهو يحتسى الشاي : « ولكن ، أعرف أن الأمر قد يتحسن تحسنا جوهريا .. فلو أننا حصلنا على ترقية - بحكم الأقدمية - في هذه السنة ، واشتركنا - الى جانب ذلك - في بعض العمليات ، فأننى قد أسبق في الترقية من يتقدموننى في الخرس » . وكان الحديث لا يزال يدور حول هذا الموضوع ، عندما أقبل الشيخ « دانييل » ، وأبلغهما رسالة آنا فيدوروفنا ، ثم أردف من تلقاء نفسه : « وقد كلفت كذلك بأن أسأل عما اذا كنت ابن الكونت فيدور ايفانيتش توربين ؟ » .. وكان يعرف اسم الكونت ، ويذكر زيارته لبلدة (ك ...) . وعقب قائلا : « لقد كانت مولاتنا آنا فيدوروفنا على تفارف وثيق به ! » . فاجاب الكونت : « لقد كان أبى .. وقل لمولاتك اننى جيد مهتم لهما ، ولسنا نريد شيئا ، ولكن .. قل اننا كلفناك بأن تسأل عما اذا كان من الممكن أن نظفر بغرفة أنظف من هذه ، في أى مكان .. في منزل الضيعة ، أو أى مكان ؟ »

وقال له بولوزوف ، بعد انصراف دانييل : « لماذا فعلت ذلك ؟ ماذا يهمنا ؟ - اننا لن نمكث سوى ليلة واحدة .. وقد يضايقون أنفسهم من أجلنا » . فصاح الكونت : « يا لتفكيرك ! اعتقد أننا أخذنا حظنا من الإقامة في الاكواخ القذرة ! .. من السهل أن يرى المرء انك لست عمليا . لماذا لا نقتنص الفرصة عندما يكون ذلك في وسعنا ، فنعيش كالادميين ، ولو لليلة واحدة ؟ .. انهم - على العكس - سيسرون جدا بأن يستضيفونا .. وأسوأ ما في الأمر ، ان تكون هذه السيدة قد عرفت أبى حقا ! » . وانتسم كاشفا عن أسنانه اللاعبة ، وهو يقول : « اننى أشعر دائما بالخجل .

من المرحوم أبى ، ففى كل مكان قصة فاضحة ، أو دين لم يسده . ولهذا أكره أن التقى بمعارفه . على أن هذا كان سائدا فى أيامه » . فقال بولوزوف : « هل أخبرتك يوما بقصة قائد لواء « اوغلانى » يدعى « ايلين » ، التقيت به مرة ؟ . لقد كان تواقا لان يراك ، فهو يحب أباك كل الحب ! » — اعتقد أنه امعة . . ولكن أسوأ ما فى الامر هم هؤلاء الاكابر الذين يؤكدون لى انهم كانوا يعرفون أبى ، ثم يروون عنه — وهم يتظاهرون بالتفكه — قصصا تجعلنى أخجل ! . من الحقيقى أنه كان ذا طبيعة جامحة ، وكان يأتى — أحيانا — أعمالا غير لطيفة . ولكن هذا كان مسلكا شائعا فى أيامه . ولو كان فى أيامنا ، لكان من المحتمل ان يصبح رجلا ناجحا كل النجاح ، فمن الانصاف ان نعرف بأنه كان ذا مواهب خارقة ! وأن هو الا ربع ساعة ، حتى عاد الخادم برجاء من مالكة الضيعة ، أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة فى دارها .

— (١١) —

« ما ان سمعت « انا فيدوروفنا » ان ضابط فصيلة الفرسان الخفيفة كان ابن الكونت فيدور توربين ، حتى استخفها الطرب ، وراحت تقول : « واعجبا ! . . يا للفتى الحبيب ! . . اهرع يا دانييل ، افعل ان مولاتك تدعوهم الى دارها ! » . وقفزت بسرعة الى غرفة الخدم ، وهى تصبح : « ليزى ! . . اوستيوشكا ! يجب اعداد حجرتك يا ليزا ، وبوسمك أن تنتقل الى غرفة خالك . وما أرى لديك مانعا يا أخى من أن تنام الليلة فى حجرة الجلوس . . ليلة واحدة ! » — لست احفل يا اجته ، فبوسمى ان أنام على الارض ! وقالت آنا فيدوروفنا ، وهى تروح وتغدو : « لا بد من ان يكون جميلا ، اذا صح أنه يشبه أباه . لكم اتمنى ان اراه ،



هذا العزيز ! .. يجب أن تتأمله جيدا يا ليزا ، فلقد كان أبوة جميلا .. الى أين تأخذين هذه المنضدة ؟ .. دعيها هنا : واحضري سريرين .. خذي واحدا من حجرة رئيس الخدم ، واحضري الشمعدان البلورى .. وضعي شمعا من النوع الجيد ! » .. واخيرا ، تم اعداد كل شيء ، ونسقت « ليزا » الحجرة للضابطين وفق هواها ، رغم تدخل أمها . فنشرت على الفراشين أغطية نظيفة معطرة ، ووضعت شموعا وقنينة ماء على منضدة قريبة منهما ، ونقلت سريرها الى حجرة خالها . وهدأت آنا فيدوروفنا بعض الشيء ، فجلست في مقعدها، وعادت الى أوراق اللعب، ولكنها بدلا من أن تستقرئها الحظ ، اسلمت رأسها الى راحتها ، وقد أسندت مرفقها الى المنضدة ، واستسلمت للتفكير ، وهي تهمس لنفسها : « آه ، يا للزمن ! .. ما أسرع ما يطير ! ألم يكن ذلك منذ أمد بعيد ؟ ومع ذلك فاني اكاد أتمثله الآن ! .. كان ارعن ! » . وتبادرت الدموع الى عينيها ، واستطردت تحدث نفسها : « وها هي ذي ليزي الآن .. ولكنها ليست كما كنت في سنها .. انها فتاة بديعة ، ولكنها ليست كما كنت .. » ثم رفعت صوتها قائلة : « ليزا .. يجب ان ترتدي ثوبك الموسلين « الليلة ! » . فقالت الفتاة وهي لاتمالك نفسها ،

لجهد التفكير في أنها ستلتقي بالضابطين : « لماذا يالاماه ؟ ما أراك ستدعينهما للجلوس معنا ؟ .. يحسن أن لاتفعلى ياماما ! » ..
والحق أن رغبتهما في رؤيتهما كانت أقل من توجسهما من الانفعال الطروب الذى تصور أنه يرتقبها . ولكن آنا فيدوروفنا قالت وهى تربت رأسها : « ربما رغبنا هما في أن يتعرفا إلينا يا ليزى ! » . وقالت لنفسها : « لا ، أن شعرها ليس كشعرى حين كنت فى سنها .. أواه يا ليزى ، لكم أتمنى لو أنك .. » .
وكانت تتمنى مخلصه شيئا ما لابنتها . ولكنها لم تملك أن تتصور أن يكون هذا الشيء زواجا من « كونت » ، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كتلك التى كانت بينها هى وبين الأب .. ومع ذلك فقد ظلت تتمنى فى لهفة شيئا ما ! .. ولعلها كانت تتوق الى أن تبعث فى نفس ابنتها ما خبرته هى مع الأب الذى مات !

وكان الفارس الكهل منفعلا هو الآخر ، لمقدم الكونت ، فحبس نفسه فى غرفته ، ثم خرج بعد ربع ساعة فى ستره مجسرية ، وسروال (بنطلون) أزرق فاتح ، ودخل الحجرة التى أعدت للزائرين ، وقد غشيه سرور مستحى كذا الذى يفشى الفتاة حين ترتدى ثوب سهرة للمرة الأولى فى حياتها .
ثم قال : « سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم يا اختاه ! .. لقد كان الكونت المرحوم فارسا حقا ، ومثلا للفرقة ! سنرى ! »

وصل الضابطان الى الحجرة التى افردت لهما ، من طريق المدخل الخلفى . فهتف الكونت وهو يستلقى به بشيابه وحذاءيه - على السرير الذى امد له : « هاك ! أرايت ؟ .. ليس هذا أفضل من الكوخ بصرا صيره ؟ » . فاجاب بولوزوف : « هنا أفضل طبعاً ، ومع ذلك .. إن نصبح مدينين لصاحبة

الزمام .. » . فقاطعه الكونت صائحا : « هراء ! .. يجب أن يكون المرء عمليا في جميع الأمور . أنهم جند مسرورين ، وأؤكد لك .. آه ، اسمع يا .. اطلب شيئا نسدله على النافذة ، والا تعرضنا لتيار هوائى بالليل ! »

وفى تلك اللحظة ، اقبل الفارس الكهل ليتعرف الى الضابطيين . ولم يفغل بالطبع ان يقول انه كان والكونت المرحوم زميلين — وان قالها وقد تضرع وجهه قليلا — وانه نعم بالخطوة لدى الكونت .. بل واضاف انه كان أسير فضله مرة أو اثنتين . ولكنه أغفل أن يذكر أى فضل ذلك .. أهو أغفال الكونت ان يرد له المائة روبل التى اقترضها ، أو هو تعمدته ان يلقى به على الجليد الذائب ، أو هو سبابه آياله أمام جمع من الناس ! .. وابدى الكونت الشاب ادبا جما للفارس الكهل ، وشكر له المأوى الذى اتيح له ولزميله . فقال الكهل : « يجب ان تلتمس لنا العذر ، ايها الكونت ، اذا لم يكن مأوى فحما ! » .. وكاد يلقى به صاحب السعادة ، وقد نسي عهده بمحادثة ذوى المكانة .. واستطرد قائلا : « ان بيت اختى صغير ، ولكننا سنسندل على النافذة ستارا فى الحال ، وسيصبح كل شيء كما تزوم » . وانحنى مغادرا الحجرة مسرعا ، لا ليأمر باحضار الستار ، وانما ليبدى بتقرير عن الضابطيين .

واقبلت « أوستيوشكا » الحسناء بشال سيدتها ، فسدت به النافذة ، وقالت ان السيدة امرتها بأن تسأل السيدين عما اذا كانا يرغبان فى تناول بعض الشاى .. وبدأ أن الوسيط المريح قد اثر على مزاج الكونت ، فابتسم فى طرب ، ومازح « أوستيوشكا » حتى اوشكت ان تقول انه ساقف ، وسألها عما اذا كانت سيستدتها الصغيرة جميلة ، وقال — ردا عن سؤالها ان كانا يريدان شايا — ان لها ان تحضر الشاى ، ولكن المهم هو ان تحضر شيئا من الفودكا ، وشيئا يؤكل ، اذا لم يكن عشاؤهما معدا .

وكان الخال متحمسا للكونت الشاب ، فراح يطنب في امتداح ادبه ، وفي اطراء الجيل الجديد من الضباط ، قائلا انه ارفع من الجيل الماضي بدرجة لا تدع سبيلا للمقارنة . ولم توافقه « آنا فيدوروفنا » ، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت فيدور ايفانيتش توربين .. وأخيرا ، اتخذ غضبها مظهرا جديا ، وقالت في جفاء : « ان من يغلبك أخيرا ، هو المفضل عندك يا أخى .. ان الناس أكثر مهارة اليوم طبعاً ، ولكن الكونت فيدور ايفانيتش رقص نابذاع ، وكان لطيفا الى درجة ان كل امرئ كان متهوسا من أجله ، مع انه لم يبد اهتماما بأحد سوى ! .. ومن ثم ترى انه كان هناك أناس لهم قدرهم ، في الايام السالفة كذلك ! » . وهنا بلغها طلب الفودكا ، والمنعشات الخفيفة ، فقالت : « أرايت يا أخى انك لا تتصرف قط التصرف الصحيح ؟ .. كان من الواجب ان تأمر بالعشاء ! .. مرى باعداده يا ليزا ! »

وهرعت « ليزا » الى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخللة، والزبد الطازج، وأمرت الطاهية باعداد بعض الفطائر المحشوة . وقالت آنا فيدوروفنا : « هل لديك شيء من شراب الشيرى يا أخى ؟ » . فقال : « لا يا اختاه ، لم يكن لدى شيء منه إطلاقاً ! .. انما الذى لدى « روم » يا آنا فيدوروفنا ! » . فهتفت : « او ليس الاثنان سواء ؟ .. أعطهما بعضه .. ولكن، الا يكون من الافضل ان ندعوهما الى هنا يا أخى ؟ .. انك تعرف كيف تدعوهما ، وما أظنهما يستاءان ! » . فقال الفارس السكهل انه يشهد بأن الكونت الشاب اللطف من ان يرفض ، وأسرع ليدعوهما . فذهبت آنا فيدوروفنا الى حجرتهما وارتدت ثوبا حريريا ، وقلنسوة جديدة . ولكن ليزا كانت في شغل عن الثياب ، فلم تجد وقتا لتستبدل ثوبها القطنى الوردى ، ذا الكمين الفضفاضين . فضلا عن انها كانت في اقصى درجات الانفعال ، وقد تولاهما شعور بأن شيئا بديعا في

ارتقاها ، وكان ثمة غمامة داكنة تخيم على روحها ! .. لاح لها ان الكونت الفارس الجميل ، لا بد ان يكون مخلوقا جديدا ، لا ندرك كنهه ، ولكنه .. جميل ! لا بد ان تكون أخلاقه ، وطباعه ، وحديثه ، من طراز غير عادي ، يختلف عن كل ما صادفت من قبل ! .. كل ما يخطر بباله أو على لسانه لا بد ان يكون حكيما ، صوابا .. وكل ما يفعل لا بد ان يكون مشرفا .. وكل مظهره لا بد ان يكون جميلا ! .. أبدا ماداخلها ريب في ذلك . ولو انه طلب حماما من « البراندي » والعطور — لا مجرد بعض المنعشات — لما دهشت ، ولما لامته ، بل لاقتنعت اقتناعا راسخا ، بأن هذا هو الصواب ، وانه ضروري ! ووافق الكونت لغوره عندما أنهى اليه الفارس الكهل رغبة اخته . فمسح شعره بالفرشاة ، وارتدى زيه الرسمي ، واخذ علبة السيجار الذهبية . وقال لبولوزوف : « هيا ! » . فقال هذا : « من الخير ان لا نذهب في الواقع ! » . ثم اردف بالفرنسية : « لسوف نكبدهم الكثير ، ليكرمونا » . ولكن الكونت اهاب به ، قائلا : « هراء ! .. لن يكونوا الا سعداء بنا » . ثم عقب بالفرنسية : « ولقد قمت ببعض تحريرات ، فعلمت ان هنا ابنة جميلة .. فهيا ! » . وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية ، لمجرد اشعارهما بانه الآخر كان ملما باللغة ، وقد فهم ما قاله : « معذرة ، ايها السيدان ! »

— (١٣) —

• تخرج وجهه ليذا وغضت بصرها — وقد خشيت ان تنظر الى الضابطين — وتشاغلته بملء ابريق الشاي ، عندما دخل الضيفان الحجرية . أما آنا فيلدوروفنا ، فكانت تطل النقيض ، اذ قفزت وبادرت الى الانحناء ، وشرعت تتحدث الى الكونت الشاب ، دون أن تحول بصرها عنه .. فقالت انه



كان ذا شبه فلد بآبيه ، وقدمت اليه ابنتها ، ثم راحت تقدم اليه الشاي ، والمربي ، والحلوى المصنوعة في البيت . ولم يد أحد اى اهتمام بحامل العلم ، لتواضع مظهره وحيائه ، فسر لذلك كل السرور ، اذ كان - لوجه الحقيقة - يحسق في « ليزا » ، ويتمعن جمالها الذى أدهشه ، كما بدأ واضحاً . وكان الخال ينصت الى حديث اخته مع الكونت ، والكلمات تتزاحم على شفتيه . متربصاً فرصة يروى فيها ذكرياته في الفروسية . وفي اثناء تناول الشاي ، اشعل الكونت سيجاراً ، فلم تقو « ليزا » على ان تمنع نفسها من السعال . وكان كثير الكلام ، لطيفاً ، راح - في البداية - يروى اقاصيصه في الفترات التى كانت تتخلل حديث آنا فيدوروفنا المتدفق ، ولكنه ما لبث - في النهاية - أن انفرد وحده بالحديث .. شئ واحد أذهل مستمعيه . ذلك انه كان يستخدم في قصصه كلمات لم تكن تعتبر نائية في الوسط الذى كان ينتمى اليه ، ولكنها كانت تبدو - في الوسط الذى جلس فيه - جريئة اكثر مما ينبغي ، حتى لقد انزعجت لها آنا فيدوروفنا ، واشتد تضرع وجه ليزا .. ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك ، وظل مطمئناً ، منطلقاً ، منظرها !

وملات « ليزا » الاقداح في صمت ، ولم تسلمها الى يدي الزائرين ، وانما وضعتها على مائدة بالقرب منهما ، وهى بعد

لم تغلب على انفعالها ، وقد راحت تصفى الى ما كان يبدر من الكونت . وما لبث حديثه - الذى لم يكن جد عميق بالنسبة لها - وتردده فى الكلام ، ان طمان انفعالها رويدا . فهي لم تسمع منه الاشياء اللبقة الباردة التى توقعتها فى خيالها . وعندما ملأت قدحه للمرة الثالثة بالشاي ، التفت عيناها المستحييتان بعينيه ، فلم يقض بصره ، وانما ظل ينظر اليها فى هدوء ، وبابتسامة خفيفة .. فشعرت بشيء من المسك العدائى نحوه ، وسرعان ما تبينت انه لم يسكن يختلف فى شيء عن الناس الذين اعتادت ان تلقاهم ، بل ولم يكن ثمة ما يدعو لان تخشاه ! .. ومع ان اظافره كانت طويلة ونظيفة ، الا انه لم يؤت شيئا فذا من معالم الجمال . وطوت ليزا حلمها فجأة - وان لم تسلم من ألم داخلى - وازدادت هدوءا ، ولم يعد يمضها سوى النظرات الصامتة ، التى شعرت ان حامل العلم كان يوجهها اليها .. وقالت لنفسها : « لعل فتاى ليس ذاك الضابط ، وانما هذا ! »

— (١٣) —



• دعت السيدة العجوز ضيفيها - بعد الشاي - الى حجرة الجلوس . واستوت ثانية فى مقعدها المألوف ، وهى تتساءل : « ما أظنك تريد ان ترتاح يا كونت ؟ » . فلما تلقت جوابه

بالنفي ، قالت : « ترى ما الذى أستطيع ان أفعله لتسلية ضيفينا العزيزين ؟ .. أتلعب الورق يا كونت ؟ .. اذن ، فعليك يا شقيقى أن تهيب لنا لعبة » - فقال الفارس : « انك تجيدين لعبة « الترجيح » (١) ، فلماذا لا تلعبها جميعا ؟ .. أتلعب يا كونت ؟ .. وانت الآخر ؟ » .. فأعرب الضابطان عن استعلادهما لان يفعلا كل ما يروق لمضيفهم الكرماء ! واحضرت « ليزا » مجموعة أوراق اللعب القديمة ، التى كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول ثورم وجه أمها ، أو متى يعود خالها - اذا ما ذهب الى البلدة - أو هل يزورهم أحد من الجيرة ، أو ما الى ذلك . وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التى كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ . وتساءل خالها : « ولكن ، لعلكم لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة .. اننى أعب مع آنا فيدوروفنا على انصاف كوبيكات .. ومع ذلك فهى تكسب كل أموالنا ! » . فقال الكونت : « أية مراهنات تروق لكم ، تسرنى ! » . فقال آنا فيدوروفنا : « حسننا ، اذن .. فليكن «أرهان» «كويك» ورقيا واحدا ، لمرة واحدة ، اكراما لمضيفينا ! .. فليتنازلا على آلة العجوز المسكينة ! » . وقالت فى سريرتها ، إذ استولى عليها فى شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة : « لعلى أكسب مثلها « روبل » ، أو حوالى الروبل ! »

وقال الكونت : « اذا شئتم علمتكم كيف تلعبون « الباس » ، فهى طريقة بديعة ! » . ورغب كل امرئ فى أن يتعلم الطريقة

(١) فى هذه اللعبة يتبارى اللاعبون فى اعلان الحيل التى تمكنهم اوراقهم من اتيانها . والذى يذكر اعلى رقم ، يختار مجموعة الورق التى يستخدمها ، ويؤدى الحيل التى اعلنها ، والا دفع الغرامة . واللاعب الذى يعلن انه « باس » ، يعنى أن لا حيل لديه ، فاذا قام بعيلة ما ، دفع الغرامة . واصطلاح « آس وفاليه على بياض » معناه أن اللاعب يحمل اعلى ورقتين

الجديدة التى شاعت فى (بطرسبورج) . وزعم الخال انه كان يعرفها ، ولكنه نسيها قليلا . بيد ان « آنا فيدوروفنا » لم تستطع ان تفهمها البتة ، رغم طول التكرار ، حتى اضطرت فى النهاية الى ان تبسم وتهز رأسها وتقول أن كل شيء أصبح واضحا لها . . ولم يضحك أحد عندما أعلنت - خلال اللعب - انها « بائس » ، مع انها كانت تمسك فى يديها « اس وفاليه على بياض » ، وضاعت عليها ست حيل ! .. وما لمتت ان ارتبكت ، وتبدت عليها الحيرة والتردد ، ثم قالت انها لم تألف الطريقة الجديدة . ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرا على الكسب منها ، رغم الغمزات التى راح زميله يزجىها اليه بقدمه ، تحت المائدة !

وأحضرت « ليزا » مزيدا من الحلوى ، وثلاثة أنواع من المربى ، ونوعا خاصا من التفاح حفظته منذ الموسم السالف . ووقفت خلف امها تراقب اللعب ، وتنظر الى الضابطين - من آن لآخر - مختلسة النظر ، بوجه خاص ، الى يدى الكونت البيضاوين - بأظافرهما الوردية المعنى بها - وقد راحتا تتداولان الاوراق برشاقة ومران وثقة ! .. ومرة أخرى ، خسرت آنا فيدوروفنا ، فاشتد استياؤها . وقالت ليزا تسرى عنها ، وتحاول ان تعينها على الموقف السخيف : « لا تكثرى يا أماه ، فلسوف تكسبين كل ما خسرت ! .. دعى بخالى يغش ، فهو لن يلبث أن يفتضح ! » . فرمقت آنا فيدوروفنا ابتها بنظرة مرتاعة، وهتفت : « ليتك تساعدننى ، يا ليزا العزيزة ! » . فأجابت ليزا : « ولكننى لا أعرف هذه الطريقة ، أنا الأخرى ، وما أرى الا أنك ستخسرين مبلغا كبيرا ، ولن يتبقى شيء لثوب ييموشكا الجديد ! » . فقال حامل العلم ، وهو يتطلع الى ليزا ، تواقا الى مجاذبتها أطراف الحديث : « أجل ، من السهل أن يخسر المرء - بهذه الطريقة - عشرة روبلات فضية ! »

وامرت السيدة العجوز ببعض التبيذ الخفيف المصنوع في البيت ، فشربت قدحين ، واشتد احمرار وجهها ، وبدأ أنها وطلدت العزم على أن تتحمل أى حظ يصيبها . وافلتت خضلة من شعرها الاشيب ، فلم تحاول أن تردّها الى مكانها . وما من شك في أن المبلغ الذى خسرتّه بدا لها كما لو كان بالملايين ، فتحمست لاسترداده . واخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم ، تحت المائدة .. واخيرا ، انتهى اللعب ، بالرغم من محاولات آنا فيدوروفنا الخبيثة ، بتعمد الاخطاء في الجمع ، كي تزيد من مرات كسبها . ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع اذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية .. ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره ، وسار الى النافذة التى كانت « ليزا » تقف عندها منتهكة في تنسيق بعض المخلّلات العشاء . وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الامسية أن يفعله دون أن يفلح .. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو ! وفي تلك الاثناء ، كان حامل العلم في موقف محرج . فان آنا فيدوروفنا بدأت تفرج من غضبها ، في غياب الكونت ، وفي غياب ليزا بوجه خاص ، اذ كان وجودهما يسرى عنها !

وقال بولوزوف ، لمجرد أن يقول شيئا : « لقد كان من المعيب أن نكسب منك كل هذا ، في الواقع .. انه لمخجل حقا ! » . فصاحت : « طبعاً ، مادمتم تبتكرون طرقاً جديدة لا أعرفها .. حسناً ، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية ؟ » . فقال أخوها الذى أطربه أن كان رابحاً : « اثنان وثلاثون روبل ورقي .. وربيع ! هات النقود يا اختاه .. ادفعي ! » . فصاحت : « سأدفعها جميعاً ، ولكنك لن تستدرجنى ثانية .. انه مبلغ لن استرده ماحييت ! » . ونهضت مسرعة الى حجرتها ، وهى تتمايل ، وعادت بالنقود . واستولى الخوف على « بولوزوف » خشية ان تعنف « آنا فيدوروفنا » معه

إذا تحدث إليها ، فتركها في صمت وهدوء ، وانضم إلى الكونت
وليزا اللذين كانا يتكلمان عند النافذة

أخذت نسمات ليل شهر مايو العليلة تداعب - بين آن
وآخر - لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين قامتتا على المائدة
التي أعدت للعشاء ، في حجرة الجلوس .. وكان النور يغمر
الحديقة التي كانت النافذة تطل عليها ، ولكنه نور من نوع
آخر .. نور القمر الذي أوشك أن يكتمل ، وقد راح يسبح
فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة ، وهو يضاعف من تألق
السحب البيضاء التي كانت تضيء على وجهه غلالة رقيقة ،
بين الحين والحين .. وكانت الضفادع تنق عاليا ، بجوار
البركة التي خلع القمر على أحد جانبيها بريقا فضيا ، كان
يتضح للأنظار عبر الطريق المحفوفة بالأشجار .. وأخذت
بعض الطيور ترفرف وتبدأ ، أو تتواثب ، من غصن إلى
غصن ، في مجموعة من أشجار البنفسج الشدية . التي
كانت فروعها تتمايل في دلال نحو النافذة .. وقال الكونت
ليزا ، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة : « ياله من
جو بديع ! .. أعتقد أنك تكثرين من الرياضات هنا ؟ »
فاجابت ليزا ، وهي تتشعر بأى خجل من الحديث معه :
« أجل . فحوالي الساعة من كل صباح ، أعني بتفقد رغبات
أمي في الضيعة واصطحب ييموشكا - خادمة أمي الخاصة -
في نزهة على الأقدام » . فقال وهو يثبت عويئة (مونوكل)
على إحدى عينيه ، وينقل بصره بين ليزا والحديقة : « ان
الحياة في الريف تشرح الصدر ! .. أولا تخرجين قط بالليل ،
للنزهة على ضوء القمر ؟ »

- لا ، ولكنني اعتدت - قبل عامين - أن أتمشي مع خالي
في كل ليلة مقمرة . إذ كان يعاني من مرض غريب .. لم يكن

بوسعة لن ينام عندما يكون القمر بدرا ، اذ أن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة ! .. ومع أن نافذتها منخفضة ، إلا أن ضوء القمر ينساب خلالها مباشرة !

وأومات نحو غرفة خالها ، فقال الكونت : « عجيب .. لقد ظننتها غرفتك » . وكان جوابها : « لا ، فلن أنام فيها سوى الليلة .. فقد خصصت غرفتي لكما » . وهتف الكونت : « أحقا هذا ؟ .. ويلي ! لن أغفر لنفسي أن أزعجتك » . وترك العوينة تسقط على صدره ، اظهرا لاستيائه ، وأردف : « لو أننى عرفت بأننى سأزعجكم .. » . فقالت : « لا زعاج هناك ، بل اننى - على النقيض - مسرورة ، فان حجرة خالى بديعة ، ومشرقة بالضوء ، ونافذتها منخفضة ، بحيث أستطيع أن أجلس فيها إلى أن يواتينى النعاس ، أو أن أهبط إلى الحديقة فأتمشى قليلا ، قبل أن آوى إلى فراشى » .

وقال الكونت لنفسه ، وهو يعيد العوينة إلى عينه ، ويتأملها (يا لها من فتاة رائعة !) . وحاول أن يمس بقدمها بقدمه ، وهو يتظاهر باصلاح جلسته على حافة النافذة .. « وما أبرعها اذ أطلعتنى على أننى أستطيع أن أراها من الحديقة وهى تجلس فى النافذة ، اذا شئت ! » . وخيل إليه أن النصر سهل ، ففقدت ليزا فى نظره بعض سحرها ، وما لبث أن قال ، وهو يرسل البصر إلى الطريق المحفوفة بالأشجار : « وما أبهج أن يقضى المرء ليلة كهذه فى الحديقة ، مع حبيب ! » . وارتبكت « ليزا » لهذه الكلمات ، وتكرر لمسات قدمه لقدمها . فقالت - دون تفكير - محاولة أن تخفى اضطرابها : « أجل ، فان المشى تحت ضوء القمر جميل ! » . وبدأت تشعر بشيء من عدم الارتياح . وهمت أن تنصرف بوعاء « المخللات » ، عندما انضم اليهما حامل العلم ، فشعرت برغبة فى أن تتبين أى نوع من الرجال هو الآخر !

وقال الشاب : « ما أجملها من ليلة ! » . فقالت لنفسها :
 لاحديث لهما الا عن الطقس ! » . واستطرد بولوزوف : « وما
 أبدعه من منظر ! .. ولكنى أحسبك قد مللته ! » . فتساءلت :
 « ولماذا تحسب ذلك ؟ .. من المحتمل أن يمل المرء ثوبا أو
 غذاء طال تعوده إياه ، ولكن .. كيف يمل المرء حديقة جميلة ،
 يولع بأن يتمشى خلالها .. لاسيما عندما يكون القمر مشرقا ؟ !
 .. أن البركة تبدو واضحة ، خلال نافذة خالي ، وسأمل
 النظر منها الليلة ! » . فقال الكونت وقد ساءه أن حل مقدم
 زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة : « ولكنى لا أظن أن
 لديكم أية بلابل في هذه المنطقة » . فقالت : « لا ، غير أنه
 كانت هنا بعض البلابل منذ عام ، ولكن الصيادين وأجراس
 العربات أخافتها .. ولقد كنت — منذ عامين — أجلس مع
 خالي في الدرب المغطى بفروع الشجر ، فننصت اليها لساعتين
 أو أكثر ! »

وبعد العشاء — الذي راح الكونت خلاله يطرى الطعام ،
 ويقبل عليه ، مما بدد بعض ضيق رب البيت — تمنى
 الضابطان لمضيبيهما ليلة هائلة ، وذهبا الى حجرتهما .. ولقد
 صافح الكونت الفارس الكهل ، وشهد ما كانت دهشة آنا
 فيدوروفنا عندما صافحها هي الأخرى ، دون أن يقبل يدها
 .. كما صافح ليزا ، وهو يحمق في عينيها ، وعلى شفتيه
 ابتسامته اللطيفة . وكم أخجلت نظرته الفتاة ، في هذه المرة ،
 وجعلتها تقول لنفسها : « انه مليح الطلعة جدا ، ولكنه كثير
 الاغترار بنفسه ! »

— « ١٤ » —

♦ قال بولوزوف لصاحبه ، حين أصبحا في غرفتهما : « ألم
 تخجل من نفسك ؟ .. لقد تعمدت أن أخسر ، وظللت أمس



قدمك ، تحت المائدة . الست في خجل ؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيما استياء ! » . فضحك الكونت من قلبه ، وقال : « لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز ! » . وظل يضحك في مرح ، حتى ان « جوهان » - الذي كان يقف أمامه - اشاح بوجهه ليخفي ابتسامة .. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك : « وتصور ان يصيبها هذا مع ابن صديق للأسرة ! » . فقال بولوزوف : « لا ، لقد كان تصرفك سيئا في الواقع . لقد كنت شديد الاسف من أجلها ! » . فصاح الكونت : « ياله من هراء ! .. وكم أنت صغير ، عديم التجربة ! .. لماذا أردتني على ان اخسر ؟ ولماذا ينبغي على البرء ان يخسر ؟ .. لقد ألفت الخسارة قبل ان أتسلم اللعب ! ثم ان عشرة روبلات قد تكون ذات نفع يا عزيزي . انظر الى الحياة نظرة عملية ، والا بقيت دائما في ضيق ! »

ولزم بولوزوف الصمت ، لاسيما وانه رغب في هدوء يفكر خلاله في « ليزا » التي تراءت له ذات طهر وجمال غير عاديين . وخلع ثيابه ، ثم استلقى على السرير الوثير ، النظيف ، الذي اهد له . وقال لنفسه وهو ينظر الى النافذة التي اسدل عليها الشال بدل الستار ، فتسلل نور القمر خلال النسيج . « أي عبث هذا الشرف والمجد العسكريين ! .. ان السعادة في العيش في عش هادئ ، مع زوجة حبيبة ، عاقلة ، ساذجة

الفؤاد .. أجل ، هذه هي السعادة الحقة . اللائمة ! » . على انه لم يفض لصديقه بهذه الخواطر - لسبب ما - ولم يثر ذكر الفتاة الريفية ، رغم انه كان موقنا من أن الكونت - هو الآخر - كان يفكر فيها !

وقال للكونت الذي كان يذرع الحجرة : « لم لا تخلع نيابك ؟ » . فأجابه : « لا أحس برغبة في النوم بعد . تستطيع أن تطفىء الشمعة إذا شئت ، وسأستلقي على الفراش بتيابى ! » . وواصل السير في الحجرة ، فقال بولوزوف الذي شعر - بعد سهرة الليلة - بمزيد من عدم الرضى عن نفوذ الكونت وتأثيره عليه ، وخالجه الميل الى التمرد على هذا الوضع : « لا تشعر برغبة في النوم بعد ؟ ! » . وقال في سريره ، وكأنه يخاطب توريين في العلن : « (بوسعى أن أتصور ما يجري الآن في رأسك ذى الشعر المنسحق . لقد رأيت مدى إعجابك بالفتاة ، ولكنك غير كفء لأن تفهم مثل هذه الإنثى الساذجة ، الشريفة .. أنها تشتهي امرأة مثل ((ميلا)) وإشارات الكتف الخاصة بضابط في رتبة ((كولونيل)) .. يجب أن أسالك حقا عن رأيك في الفتاة » . والتفت اليه ، ثم عدل عن رأيه ، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام رأى الكونت عن ليذا اذا كان مخالفا لما ينبغى ، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته ، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت ، رغم انه يشعر - يوما بعد يوم - بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه .

وقال إذ رأى الكونت يرتدى قلنسوته ويسعى الى الباب : « الى أين أنت ذاهب ؟ » . فأجابه : « سأذهب لاتفقد الاحوال في حظائر الخيل » . وهتف الشاب في سريره : « عجيب ! » . ولكنه أطفأ الشمعة ، وولى وجهه شطر الحائط ، محاولا أن يطرده عن ذهنه أفكارا سخيفة سداها الفرة ولحماتها العلاء نحو صديقه .

وفي تلك الاثناء ، كانت « آنا فيدوروفنا » قد آوت الى مخدعها بعد أن قبلت أخاها وابنتها ووصيفتها - كعادتها - ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم .. وكان قد انقضى زمن طويل مذ تعرضت السيدة العجوز لمثل هذا العدد من الانفعالات القسوية في يوم واحد ، فلم تستطع أن تؤدي صلاتها في هدوء ، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة ، الحية .. ذكريات الكونت المتوفى ، والشاب المتأنق الذي غشها في غير اشفاق . على أنها ما لبثت أن خلعت ثيابها ، وشربت نصف قدح من « الكفاس » (١) ، ثم رقدت على سريرها . وتسالت قطتها المدللة الى الحجرة في خفة ، فنادت « آنا فيدوروفنا » ، وشرعت تمسح على ظهرها ، وتنصت الى هريرها (٢) . بيد أنها لم تستطع النوم ، فقالت لنفسها : « لا بد أن القطة هي التي تستبقيني مؤرقة ! » ، وطردتها من السرير ، فقفزت الى الأرض بخفة ، وسارت - وهي تحرك ذيلها المنفوش - فقفزت فوق المدفأة . واقبلت الوصيصة التي كانت تنام في حجرة « آنا فيدوروفنا » ، فبسطت فراشها من اللباد على الأرض ، وأطفات الشمعة ، وأوقدت فتيلة أمام الأيقونة ، وسرعان ما ارتفع غطيظها .. ولكن النعاس لم يواتها ، فاذاً أغمضت عينيها ، كان وجه الفارس الشاب يتمثل لها ، ويخيل اليها أنه كان في الحجرة متنكراً في أى شيء . واذ ذاك كانت تفتح عينيها ، وتتأمل كل شيء حولها على ضوء الفتيلة .. وأحسست بحرارة قلب في جسدتها .. ولم تعد تحتمل دقات الساعة التي كانت تعلو المنضدة ، ولا غطيظ الخادم ، حتى أنها أيقظتها وأمرتها بأن لا ترسل غطيظاً ! ..

(١) مشروب غير مسكر ، يشبه « السويدا » في مادته وطريقة صنعه .

(٢) الصوت الباطني الذي تعدهه القطة عادة

وعاودتها الأفكار التي كانت تدور حول ابنتها ، والكونت الراحل ، وابنه الشاب ، ولهب الورق .. واختلطت الأفكار جميعها ، فكانت تتمثل نفسها وهي تراقص الكونت القديم ، وتشعر قبالاته على كتفيها الناصعتين .. ثم تتمثل انتها في احضان الكونت الشاب .. وراحت تقول لنفسها : « لا ، ان الناس اليوم غيرهم بالأمس .. كان الكونت الآخر على استعداد لان يشب في النار من أجلى ، وكان على حق . أما هذا الكونت فينام كالاحمق ، سعيدا بأن ربح منى .. فلا غرام يستهويه ! .. ما كان أروع الآخر اذا جثا على ركبتيه قائلا : « ما الذي تريدني على أن أفعل ؟ .. اننى على استعداد لان أقتل نفسى اذا شئت ! » .. ولو اننى طلبت ، لقتل نفسه ! »

وفجأة ، سمعت وقسع قدمين عاريتين في الردهة ، ثم اندفعت ليزا - وعلى كتفيها شال - فارتمت على سرير أمها وهي شاحبة ترتجف !

كانت ليزا قد اوت وحيدة الى الغرفة التي كانت لخالها من قبل ، فارتدت سترة بيضاء ، ولفت رأسها الغزير الشعر بمنديل ، واطفأت الشمعة ، وفتحت النافذة وجلست على مقعد مندها ، مرسله بصرها الى بركة الماء التي كانت تلمع في ضوء القمر الفضى .. وانبعث أمامها - فجأة - كل ما كان يشغل بالها ، وقد تبدى على ضوء جديد : أمها العجوز الكثيرة النزوات - التي أصبح حبها الاعمى لها جزءا من نفسها - وخالها المتداعى اللطيف ، ورقيق الدار ورقيق القرية الذين كانوا يعبدون مولاتهم الصغيرة ، والبقر والعجول ، وكل هذه الطبيعة التي كانت تموت وتبعث مزات لاحصر لها ، والتي نشأت في فمارها ، محوطة بخلق تحبهم ويحبونها .. كل هذه الأمور التي امتادت أن تضي على روحها اشراقا وسكينة

ناعمة ، بدت لها — فجأة — غير كافية لأرضائها . . بل بدت
كثيبة ، غير ذاك قيمة ، وكأنها كان ثمة هاجس يهيب بها :
« أتيتها الحمقاء الصغيرة ! . . لقد عشت عشرين عاما في
السفاسف ، تخدمين الغير دون أن تدري لذلك سببا ، ودون
أن تدركي ماهي الحياة ، وما هي السعادة ! » ، وراحت
نفوس يبصرها في الحديقة التي أسبغ القمر عليها نوره . .
تري ما الذي بعث في بالها هذه الخواطر ؟ . . لم يكن السبب
حبا طارئا ، تولاهما نحو الكونت ، كما قد يخيل للمرء ، فهي
— على العكس — لم تمل اليه . . وكان من المحتمل أن تكون
أكثر استعدادا لأن تميل الى زميلة ، لولا أنه كان غير مريح ،
وكان ساذجا ، ضموتا ، فظلت تنسياه — على غير تعمد —
وتتذكر طيف الكونت في غضب وحق ، إذ أيقنت أنه لم يكن
المثل الأعلى الذي اعتادت أن تحلم به . . كأن مثاليها الأعلى
مفرط الجمال في كل شيء ، جديرا بالحب أن مثل هذه الليلة
ويين بهذه الطبيعة ، دون أن يصرفها عن جماليها حولها . .
ولقد أدت الوحدة التي كانت تعيش فيها من قبل — في
غياب من يحتمل أن يسترعى انتباهها — الى أن ظلت قوة
الحب ، التي أودعتها العناية في كل منا على قدم المساواة ،
هادئة ، ساكنة في صدرها . فعاشت طويلا في سعادة آسنة
كان يبعثها الشعور بوجود هذه القوة في أعماقها ، وكانت
تفتح مغاليق قلبها — بين حين وآخر — لكي تتأمل كنوزه ،
حتى تضيق منها على أي امرئ ، دون تفكير . فليدعها الله
تنعم بهذه النعمة النادرة ، الى نهاية عمرها ! . . فمن يدري
أنها ليست خير النعم وأقواها ، وأنها ليست السعادة الحقة ،
والميسورة ؟ ! . . وهتفت الفتاة لنفسها : « نواه يا إلهي ،
أيها الرب . . أمن المحتمل أن أكون قد بددت شبابي وهنائي
عيشا ، وأنني لن أحظى قط . . لن أحظى قط . . ؟ »
ونظمت الى أعماق السماء التي أثارها القمر ، وغطتها سحب

كالصوف المندوف ، حجبت النجوم ، واخذت تسعى نحو القمر . ثم قالت لنفسها : « لو قدر لهذه السحابة الصغيرة أن تصل إلى القمر ، فستكون هذه إشارة إلى أن مايجول بخاطري صحيح ! » وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة ، فغطت الجزء الأسفل من قرص القمر ، وإذا بعنمة تدب في الضوء الذي كان يتراعى على الحشائش ، وعلى قمم أشجار الموالح ، وعلى البركة .. وازدادت ظلال الأشجار قتامة .. وسرت خلال أوراق الشجر ريح خفيفة - كأنها تتم التناسق بين الظلال القائمة - فحملت إلى النافذة عسير الخضرة المخضلة بالندى ، والمتربة الرطبة ، والبنفسج !

وقالت الفتاة تواسى نفسها : « لا .. إذا غرد العندليب الليلة ، فستكون هذه إشارة إلى أن كل ما أفكر فيه هراء ، وإن لأدعى لأن أياس ! » .. وسكنت في جلستها طويلا ، ترتقب شيئا ما ، بينما عاد الاشرار إلى كل شيء ، ثم عادت السحابة الصغيرة تسبح عابرة أمام قرص القمر ، مشبعة العنمة في كل شيء : وكان الناس قد بدأ يراود أجفان الفتاة ، عندما أبعث من لدن البركة شدة العندليب فأيقظها من اغفائها ، : وفتحت العذراء الزيفية عينيها ، وانتعشت روحها مرة أخرى ابتهاجا بتلك الرابطة الغامضة التي كانت تربط بينها وبين الطبيعة التي استلقت أمامها مشرقة ، هادئة .. وأسندت ذراعيها إلى حافة النافذة ، وأطلت ! .. وغشى قلبها شعور بأسى عذب ، فاعم .. لمالت عينيها دموع حب طاهر شاسع ، يهفو إلى البرى .. دموع مسرية ، هواسية .. وأسندت الفتاة رأسها إلى ذراعيها ، ووجالت يخطها أديميتها المفضلة ، ثم قامت وعيناها مخضلتان بالدموع .

وأيقظتها لمسة .. لمسة كانت خفيفة ، ولطيفة . واشتد ضغط اليد على يدها . وفجأة ، تنبعت إلى الواقع ، فلصرخت ، وقفرت ، وهرعت مغادرة الحجرة ، وهى تحاول أن تقنع

نفسها بأن الذى كان يقف فى ضوء القمر - فى الحديقة - لم يكن الكونت .. بل كان طيفا !

— « ١٥ » —



• **والحق** انه كان الكونت . وعندما سمع صرخة الفتاة ، وحشجة منبهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة - وقد نبهته الصرخة - اندفع عبر الحشائش المنداة ، الى جوف الحديقة ، وقد خامره شعور اللص الذى أوشك أمره أن يفتضح .. وراح يردد لنفسه : « يالى من أحق ! .. لقد أخفتها ! .. كان خليقا بى أن أتلف فى إيقاظها ، بأن اتحدث إليها فى رفق .. يالى من جلف ! » . وتوقف ، وأصغى ، فاذا الحارس قد نفذ الى الحديقة ، وهو يجر عصاه خلفه . وأسرع الكونت الى البركة ينشد مخبأ ، فأفزعت الضفادع ، اذ قفزت من تحت قدميه الى الماء .. ومع أن حذايه ابتلا ، الا انه جلس القرفصاء ، وراح يستعيد كل ما جرى .. كيف بحث عن نافذتها ، وكيف رأى - أخيرا - طيفا أبيض ، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مرارا ، وهو يتنصت

ألى أنفه صوت . . كيف كان يشعر - في لحظة - بيقين من أنها كانت تنتظره ، مستاءة لتأخره . . ثم يشعر - في اللحظة التالية - بأن من المستحيل أن تكون قد قبلت أن تلقاه بمثل هذه السهولة . . ثم كيف أقنع نفسه - أخيراً - بأن خجل العذراء الريفية هو الذى جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة ، فسار إليها فى عزم . . ثم نكص على عقبيه . . وبعد أن عبر نفسه مراراً بالحب ، اقترب فى جراءة ، ومس يدها !

ومرة أخرى ، أرسل الحارس سماعاً أجش ، ثم غادر الحديقة . . وأغلق مصراعاً نافذة الفتاة ، وسمع رثاجهما يحكم من الداخل . . وكان هذا مثيراً لاساه . . كان على استعداد لأن يضحى بأى شىء فى سبيل فرصة تمكنه من أن يبدأ من جديد ، فلا يتصرف بغباء كما فعل . . وراح يقول لنفسه : « فتاة رائعة . . ناضرة . . فاتنة الى هذا الحد . . ومع ذلك فقد تركتها تفلت من بين أصابعى . . يالى من نذل أحق ! » . . وأبى أن ينام ، فراح يسير على غير هدى ، فى الطريق التى كانت تحف بها أشجار الموالح ! . . واذاً ذلك ، اسبغ الليل عليه - هو الآخر - منحه الناعمة . . منحة الاسى المستعذب ، والشعور بالحاجة الى الحب ! . . وكانت أشعة القمر الواهنة تلقى نقاطاً من الضوء خلال الافنان الكثيفة ، على الارض ، حيث نمت بعض فروع من العشب ، أو تناثرت بعض اغصان ميتة . . وكان ثمة ضوء يسقط على غصين منحني ، فيجعله يبدو وكأنه مكسو بطبقة بيضاء . . وكانت أوراق الشجر المفضضة تتهاوس من آن الى آخر . ولم يكن ثمة ضوء فى الدار ، كما كان الصمت يرفرف على الكون ، وفيما عدا صوت بلبل لاح انه كان يملأ الفضاء

المشرق ، الساكن ، الذى لانهاية له . . وهتف الشاب وهو
 يملأ صدره بعبير الحديقة : « آواه ، يا ربى ! . .
 آية ليلة هذه ! يالها من ليلة رائعة ! . . ومع ذلك ، فانى أشعر
 بشيء من الحسرة ، وكأننى غير قانع بنفسى . . غير راض عن
 الناس وغير راض عن الحياة بأسرها ! . . يالها من فتاة حلوة ،
 بديعة ! . . لعلها تأذت منى حقاً ، أو أصيبت بضر ! » .
 وهنا اختلطت أحلامه بعضها ببعض ، فأخذ يتمثل نفسه مع
 الريفية العذراء فى الحديقة ، فى أوضاع عديدة ، غريبة . ثم
 حل طيف خليلته « مينا » محل طيف الفتاة ، فهتف لنفسه :
 « يالى من أحق ! . . لم يكن ينبغى على سوى أن احيط
 خصرها بذراعى ، وأقبلها ! »

وعاد الكونت الى حجرته ، وهو فى حسرة ، فاذا زميله
 لا يزال مستيقظاً ، واذا به يتقلب فى فراشه ، ويلتفت اليه .
 فسأله : « ألم تنم بعد ؟ » . . فأجاب بولوزوف : « لا » . .
 وعاد الكونت يقول : « هل أنبئك بما حدث ؟ » .
 فقال الآخر : « هات ما عندك »

— لا ، يحسن أن لا أخبرك . . أو . . لأبأس ، سأخبرك !
 وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه ، وقال :
 « هل تصدق أن السيدة الصغيرة واعدتنى على اللقاء ! » .
 فقفز بولوزوف من فراشه صائحا : « ماهلن الذى تقول ؟ » .
 وأهاب به الكونت : « الا استمع الى » . ولكن الشاب صاح :
 « ولكن . كيف ؟ ومتى ؟ انه مستحيل ! »

— كان ذلك بينما كنت تجمع الحسباب لعقب اللعب . .
 فقد أخبرتنى انها ستجس فى النافذة بالليل ، وان من السهل
 أن ينفذ المرء من هذه النافذة . أرايت جدوى أن يكون المرء

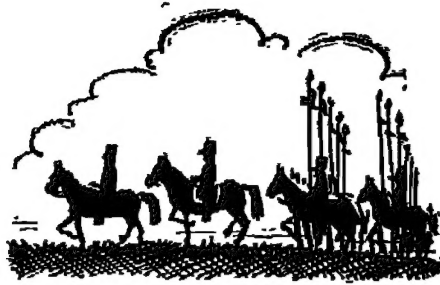
عمليا ؟ ! .. ألم تسمعها بنفسك تقول — أثناء وقوفك معنـا
أنها ستجلس إلى النافذة بالليل ، وتأمل البركة ؟ ! »

— بلى ، ولكن هذا لم يكن يعنى شيئا ..
— هذا عين ما لم أستطع ادراكه : هل قالت ذلك متعمدة ،
أو أنها لم تكن ترمى إلى غاية ؟ .. من المحتمل أنها لم تكن
راغبة حقا في أن توافق بهذه السرعة ، ولكن الامر لاح على
النقيض . وانتهى أبشع نهاية .. لقد تصرفت بحماقة !

وابتسم ازدراء لنفسه ، فتساءل بولوزوف : « ماذا تعنى ؟
.. وأين كنت ؟ » . فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه في
روع صاحبه ، وروى له كل ما حدث ، ثم أردف : « لقد
أفسدت الفرصة بنفسى .. كان ينبغي ان أكون أكثر جرأة .
ولكنى جعلتها تصرخ وتجرى مبتعدة عن النافذة »

فابتسم حامل العلم في غير ارتياح ، ردا على ابتسامة
الكونت التى ظلت أمدا ذات اثر كبير عليه ، وقال : « اذن
فقد صرخت وهربت ! » ..

فقال الكونت : « أجل . ولكن ، لقد آن لنا ان ننام ! » ..
وبعاد حامل العلم يولى وجهه شطر الحائط :
وظل صامتا عشر دقائق . ولا يعلم سوى الله ما كان
يدور فى نفسه ، ولكنه — حين التفت ثانية — كان يحمل
على وجهه امارات العذاب ، والعزم .. فقال فجأة ،
وبخشونة : « كونت توربين ! » .. وأجاب الكونت فى هدوء :
« أتهدى ؟ .. ماذا هناك أيها الضابط بولوزوف ؟ » . فصاح
بولوزوف : « كونت توربين .. انك لوغدا ! » . وقفز من
فراشه مرة أخرى .



— « ١٦ » —

• ناهت القصيلة القرية في اليوم التالي . ولم يـكن
 انضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى ، ولم يودعاهم . .
 لا اولم يكلم كل منهما الآخر بل عقدا العزم على أن يتبارزا
 في أول موكن تنزل فيه القصيلة فيه . ولكن الكابتن «شولز»
 — وكان ضابطا طيبا ، وفارسا رائعا ، وشخصية محبوبة من
 كل امرئ في الكتيبة ، وقد اختير ليكون شاهد الكونت —
 استطاع أن يسوى المسألة خير تسوية ، فلم يقتصر الامر على
 أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب ، بل أن احدا في
 الكتيبة لم يعلم بالمسألة . وظل توربين وبولوزوف يتبادلان
 الاحاديث العادية ، اذا ما التقيا في حفلات العشاء والمقامرة ،
 وان لم يعودا الى صداقتهما السالفة وودهما القديم !

((تمت))

راجع مكتبتك الخاصة لتتأكد من وجود كل هذه
الشواهد - التي قدمتها لك ((مطبوعات كتابي)) في
اعدادها السابقة - فهي ثروة أدبية لا تقدر بمال

- | | |
|-------------------------|---|
| تشارلس ديكنز | قصة مدينتين |
| ويلكي كولينز | ذات الثوب الابيض |
| ديل كارنيجي | الخالدون |
| سومرست موم | الخاطئة |
| جى دى موباسان | حياة امرأة (جزءان) |
| البرتو مورافيا | الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم |
| سوفوكليس واندريه جيد | أوديب |
| جوستاف فلوبير | مدام بوفارى (جزءان) |
| ستيفان زيفايچ | عاشقات في الخريف |
| طاغور | قلوب ضالة |
| جيوفاني بوكاشيو | ديكاميرون (الف ليلة ليلة الايطالية) |
| ميكا والتارى | الظلم للحب |
| شارلوت برونتي | جين اير (٣ اجزاء) |
| مارجورى كورجين | فاتنات الرجال |
| جوركى | رجال ونساء |
| جون شتاينبك | الثار للوطن |
| أدوين چون ديفيز | فرنسا الجريحة على ضفاف النيل |
| هنرى بوردو | الابن الضال |
| برنارد نيومان | اسرار الجاسوسية |
| روبرت هتشنز | بيلا دونا (٣ اجزاء) |
| ليديا لامبير | بوشكين |
| | اعترافات جان جاك روسو (٥ اجزاء) |
| أروغ نماذج الادب الصينى | قصص من الصين |
| | ليالى بلزاك (الف ليلة ليلة الفرنسية) أونوريه دى بلزاك |
| هوميروس | اللياذة (٣ اجزاء) |
| البرتو مورافيا | قصص من روما |
| فلورنس باركلى | المسيحة (جزءان) |
| موريس ديكوبرا | سفينة الملذات |



”ليو تولستوى“ الكاتب الكبير،
والقصصى المبدع، والفيلسوف
العظيم.. فى نهاية عمره.

الكونت ”ليو تولستوى“ عندما كان
ضابطا بالجيش القيصرى،
فى التاسعة والعشرين من عمره..

لم يكن السيف فى يد ”تولستوى“ - فى صده شبابه - أقوى من القلم حين امتشق
ليفزو العقول والأذهان، كداعية للسلام والإنسانية.. ولقد فُقد التاريخ اسم
”تولستوى“ كـ فيلسوف، ولكنه كان إنسانا قبل أن يكون فيلسوفا. فام تكن فلسفته
نصوصا جامدة، ولا مبادئ ماله، وإنما كانت رسالة عملية لإصلاح الإنسان، سواء
فى مجتمعه الفردى، أو مجتمعه المحلى - الوطن - أو المجتمع الأكبر.. العالم كوحدة !
والقصتان الطويلتان اللتان يحتوئهما هذا العدد من ”طبوعات كتابى“ هما - بإجمال
النقاد - ضمير ما كتب ”تولستوى“ من قصص، قبل أن يتفرغ لتأليف رواياته
الحاليتين: ”الحرب والسلام“، و”أنا طاشينا“.. وقد صور فى إحدى
الأرض - فى روسيا القيصرية - محلات نفوس تلك الطبقة، كارتفاع
فى الثانية حياة الطبقة الراقية - فى عهد القيصرية - بما فيها من ثقافة
وفنى كليهما، كان ”تولستوى“ يخدم رسالة واحدة، هى: إر
ورفع قيمة الكرامة الإنسانية.

Bibliotheca Alexandrina



0559085



طبوعات كتابى

الترجمة الكاملة الآمينة لشوامخ الكتب العالمية